قطار الليل إلى تل أبيب

رشا عدلي

رواية

مبنية على أحداث حقيقية

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

قطار الليل
إلى تل أبيب

قطار الليل
إلى تل أبيب

رشا عدلي

رواية

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرّحمن الرحيم

الطبعة الأولى: نيسان/أبريل 2021 م - 1442 هـ

ردمك 9786140266643

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

تصميم الغلاف: علي القهوجي

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

إلى عمر وأحمد

مبنية على أحداث حقيقية

(اليهودي المنتشر في كل مكان وغير المستقر في أي مكان، كل ما يملك ذهنية الفئة، وهي ليست ذهنية قومية؛ لذلك لا نراه في لندن إنجليزيًّا، ولا في باريس فرنسيًّا، ولا في لاهاي هولنديًّا، فهو دولة داخل الدولة، لأنه لا يعامل أبدًا كابن وطن. نجد اليهودي سلبيًّا دومًا لا يُحسب له حساب، فهو لا يملك أيّة ملكية زراعية، والتجارة التي تجعله كوزمبولتيًّا دومًا تعود عليه بثروات يسهل نقلها، وأنتم تطلبون منه أن يحب وطنًا، أعطوه إذًا وطنًا!).

تيودور هرتزل، 1905

(كيف للإنسان أن يكون مواطنًا مخلصًا لبلد مولده، وفي الوقت نفسه يكون مواليًا لبلده القومي الإسرائيلي؟ كيف بإمكاننا فعل ذلك!؟)

موصيري باشا موجهًا سؤاله للحاخام الأكبر في أحد الاجتماعات بالقاهرة عام 1940.

(الوقت حان لقيام دولة اليهود في فلسطين، وإذا فشلنا في تحقيقها سلمًا فنحن عازمون على تحقيقها حربًا).

رئيس الاتحاد الصهيوني في حفل

بمدينة الإسكندرية عام 1944

إن بعض الوثائق التي جاءت في الكتاب، كان مرجعها كتاب:
"وثائق الجينزا اليهودية في مصر" - المركز القومي للترجمة 2017.

1
الرمادي لون أقرب للحقيقة الإنسانية

القاهرة، خريف 2010

وقفت أمام صورته المعلقة على جدار الغرفة، وتذكرت عندما طلبت منه في بداية تعارفهما: (عدني أنك لن تبتعد عني أبدًا).

ربت يومها على ظهرها برفق، وهو يخبرها: (الموت وحده القادر على أن يفرقنا). يومها اطمأنت.

دائمًا يبدو الموت كما لو أنه بعيد.. بعيد عنا جدًا. شبح خفي يأتي يلتهم الآخرين، أما نحن، فلا. لن يقترب منا. ما تزال هناك أحلام وآمال ومستقبل. ما تزال الحياة أمامنا واسعة. وطرقنا طويلة وممتلئة بالزهور. ولكن دائمًا للموت مخططات أخرى لا يطلعنا عليها، يحتفظ بها لمفاجأتنا في الوقت المناسب، الوقت الذي يحدده وحده.

- أمي.

خرجت من ذكرياتها على صوت ابنتها.

- موعد الحافلة اقترب.

- لا تقلقي الفطور معد على طاولة المطبخ، هيا بنا.

لاحظت أنها نسيت، ووضعت ثلاثة أطباق على الطاولة كما تعودت أن تفعل. حملت الطبق الزائد، وقامت مسرعة حتى لا تلاحظ ابنتها؛ تعلم تمامًا ما يجلبه هذا الأمر من إثارة لذكريات حزينة، ولكن الطفلة كانت لاحظت ذلك وبنبرة يشوبها العتاب.

- لماذا لا تتركيه؟ ربما يأتي. أخبرتني جدتي أن الأرواح لا تفارق أحبتها، وتظل دومًا تحوم حولها.

- نعم، ولكن الأرواح لا تأكل؛ لذلك لا حاجة لوجود الطبق.

كسا الحزن ملامح الطفلة، وارتجفت الملعقة التي تأكل بها الكورن فليكس، وبكت في صمت. اقتربت منها، جففت دموعها، ثم ضمتها إليها.

- اتفقنا أن لا دموع مجددًا.

تخبرها بذلك في الوقت الذي كانت تبكي فيه.

السابعة تمامًا، بوق الحافلة.

وهي تجلي الأطباق تطلعت من النافذة المطلة على الحديقة وبوابة المنزل وشاهدتها، وهي تسير ببطء وبحماس فاتر، تحمل حقيبتها على ظهرها كحمل ثقيل، هي التي كانت تقطع الباحة بخفة فراشة.

كيف لمكالمة هاتفية جاءت لهم بالخبر يومها أن تبدل حياتهم لمثل هذا الشكل، وتقلبها رأسًا على عقب. تتذكر هذه النبرة جيدًا، هذه النبرة التي أخبرتها: (زوجك حالته خطيرة جدًا سقط أمام باب سيارته، وذهبنا به إلى أقرب مستشفى) صاحت قائلة: أعطه الهاتف، أريد أن أحدثه. ليرد الصوت بالنبرة ذاتها التي تتردد مثل صدى مدوٍّ حزين كثيرًا في عقلها من حين إلى آخر (هو لا يستطيع التحدث سيدتي حالته لا تسمح بذلك). كان لهذه الجملة وقع صادم عليها، وقع شعرت معه أنها لن تسمع صوته مجددًا. ركضت إلى المستشفى وكانت الأفكار السوداء تركض داخل رأسها. حدسها الذي لا يخيب أبدًا كان يخبرها أن هناك شيئًا سيئًا.. سيّئًا جدًا سيحدث، وكانت تتمتم بالدعاء حتى لا يحدث هذا الشيء، ولكنه حدث.

حملت كوب القهوة معها إلى غرفتها، لتشربها أثناء استعدادها للذهاب إلى العمل.

تايير من سترة تحتها قميص أبيض وتنورة. طلبت من مديرها أن تستبدل القميص الأبيض بآخر أسود حتى تنقضي فترة الحداد، ولكنه رفض قائلًا: (الحزن بالقلب ليس بالأبيض أو بالأسود).

لكنها لم تستطع أن ترتدي الأبيض، الأبيض لون الفرح وهي حزينة. مزج الأبيض بالأسود يمنح لونًا رماديًّا.

الرمادي إنّه لون أقرب إلى الحقيقة الإنسانية، بالرغم من كل اللوم الذي يلقى عليه بأنه لون مراوغ، لون غير صريح، غير واضح.

كانت عكس الناس تراه لونًا صادقًا وحقيقيًا، لا يوجد إنسان مهما بلغت سعادته خالٍ من حزن، وليس هناك تعيس لا يحمل ولو قدرًا ضئيلًا من سعادة. ليس هنا قلب أسود لا توجد به نقطة واحدة بيضاء، وفي المقابل ليس هناك قلب أبيض لا تلطخه بقعة سوداء.

حاولت أن تخفى شحوب وجهها والهالات السوداء تحت عينيها بأدوات تجميل، ولكنها لم تفلح، فاستعانت بنظارة شمسية تخفي عدستاها الكبيرتان معظمه. أحكمت إغلاق سترتها على قميص من اللون الرمادي، ثم رشت بعضًا من العطر وذهبت.

أخبرتها سيدة من سيدات العائلة، وهي تواسيها وتقدم لها واجب العزاء عن الآية القرآنية: **وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا...**، ونبهتها أنه يحظر عليها خلال شهور العدة أن تبارح بيتها إلا للأمر المهم والضروري، وإن حدث فلا تتزين ولا تتعطر. مسها شعور بالاستغراب في البداية، ولكن يومًا بعد آخر كانت تلك الأوامر الإلهية تنبع من داخلها. هناك شيء ما يثنيها عن فعل ذلك، هي رافضة الحياة من الأساس بكل متاعها بعدما رحل شريكها فيها.

طال الوقت ولا تزال ترتدي الحداد، تعتذر عن دعوات من الأهل والأصدقاء. حتى أنها لم تعد تجيب على هاتفها إلا على المكالمات المهمة فقط.

2

جينزا تعني دفن وخزن

وضعت البطاقة الممغنطة على بوابة الهيئة. استقبلها رجل الأمن بابتسامة.

- أسرعي أستاذة لقد بدؤوا الاجتماع.

- إنها التاسعة.

- إنه اجتماع مبكر.

- معقول.. ربما لم أنتبه.

أسرعت الخطى، طلبت المصعد الذي توقف بها عند الطابق الرابع.

وجدتهم ملتفين حول طاولة دائرية. أعضاء لجنة البحث عن وثائق الجينزا اليهودية، وعلى رأس الطاولة كان يجلس مدير الآثار اليهودية، وبمحاذاته رئيس قسم الدراسات اليهودية. عندما دخلت كفَّ رئيس القسم عن الحديث، ونظر إليها نظرة يشوبها اللوم.

- أعتذر عن التأخير، وأتمنى ألّا يكون فاتني الكثير.

- على أي حال الاجتماع مسجل، يمكنك أن تستمعي إلى ما فاتك في وقت لاحق.

ثم واصل كلامه:

مرة أخرى، كل ورقة من هذه الأوراق مهمة جدًا مهما احتوت من معلومات. وأؤكد على عدم اعتبار أوراق الجينزا أوراقًا يهودية، قبل كل شيء هي أوراق مصرية، فهي مخطوطات وتراث موجود على أرض مصر، وما يهمنا في المقام الأول ترجمة هذه الوثائق لنتعرف أكثر عمّا حاولت الطائفة اليهودية دفنه عبر العصور ويجب أن تعلموا أننا اخترناكم لما تتمتعون به من خبرة ونجاح ونثق في أنكم سوف تقومون بعملكم بكل حرص ودقة.

مؤكد ستقابلكم بعض الصعوبات، فكما تعرفون هذه الوثائق كانت في الأساس معدة للأتلاف، ومرت عليها قرون. أقدم وثيقة ترجع للقرن الخامس الميلادي وحتى القرن التاسع عشر، ظل اليهود يدفنون أوراقهم في مقابر الجينزا، وبعض الوثائق فتتها الزمن ومحا حبرها، وهي أصعب المشاكل التي قد تواجهكم.

لقط منه مدير الآثار اليهودية الحديث:

- الجينزا هي كلمة عبرية مشتقة من كلمة جنز أي خزن ودفن، اعتاد اليهود منذ قديم الأزل أن يفعلوا ذلك بناء على ما جاء في سفر التثنية الآية 3 و4 وفيها يقول الله لبني إسرائيل: (حطموا أصنام الآلهة الوثنية، واكسروا صواريها، وامحوا أسماءها، ولا تفعلوا كذلك مع اسمي) احتار اليهود في كتابتهم المقدسة غير الصالحة للاستخدام؛ فقرروا أن يدفنوها لتبلى بطريقة طبيعية، بعد ذلك أخذوا في دفن جميع وثائقهم في كل ما يتعلق بصنوف الحياة.

هذه الوثائق كانت تُكتب على الرق والجلد والورق، الوثائق التي على الرق تأخذ وقتًا أطول بكثير حتى تبلى. لقد عثرنا على نسخة من التوراة، يعود تاريخها إلى القرن الخامس، وما زالت على حالتها حتى الآن، أما الأكثر عرضة للتلف هي الورقية.

كتب اليهود هذه الوثائق كعاداتهم في الكتابة في كل بلد من بلاد العالم التي عاشوا فيها، وهي أن يكتبوا لغة البلد بحروف عبرية، فهم يكتبون اللغة العربية بحروف عبرية، ويطلق عليها اسم العبرية العربية، وفي بلاد فارس يكتبون اللغة الفارسية بحروف عبرية، وتسمى العبرية الفارسية وهكذا.

منح أحمد بن طولون في القرن التاسع الميلادي مساحة كبيرة من الأراضي لليهود تقع بين منطقة المعادي والبساتين، وخصصها لتكون مقابر لهم، وخصصوا منها مساحة لبناء مقابر

الجينزا لتنقل إليها الأوراق بعد امتلاء الغرف بالمعابد اليهودية، وعملية النقل كانت تتم في جو طقسي حيث يصلون صلوات خاصة مقدسة على هذه الأوراق قبل أن تنقل، وكانوا يعلنون عن ذلك اليوم قبلها بفترة، ويدعون الناس للاحتفال، ويطبعون الدعوات ويوزعونها، وعند المقبرة يقوم الحاخام بنفسه بتقديم طقوس دينية معينة أثناء عملية الدفن.

لقد عثرنا على مئات الآلاف من الوثائق، وأعتقد أن ذلك أمر طبيعي، فقد حرص اليهود منذ قرون طويلة على الاحتفاظ بكل ما كُتب بخط اليد حتى لو كان فاتورة أو إيصالًا.

وكما أخبركم الدكتور (علي) عن أهمية المعلومات المدونة في هذه الأوراق، أنها مهما بدت دون أهمية تذكر، لكنها ستساعدنا في تتبع تاريخ اليهود في مصر والعالم، وحياتهم الثقافية والاجتماعية والسياسية أيضًا.

قاطعه دكتور علي:

- دعونا نقل إنّ أي شيء بإمكانه إثارة الشك والريبة يجب أن تخبرونا به. سنعقد اجتماعًا أسبوعيًا نستعرض فيه الوثائق المهمة والتي ستكون محلًا للنقاش.

هذه المعلومات يجب أن لا يُفصَح عنها أبدًا حتى إلى أقرب الناس إليكم، عملنا سيكون في محيط سري وكتيم. سيتم العمل على المشروع في مبنى مصفح بالكامل، لا يسمح بدخوله إلا ببصمة العين، والمكان كله مراقب بالكاميرات ثلاثية الأبعاد من الداخل والخارج.

هناك حافلة ستكون في انتظاركم أمام الباب الخلفي للهيئة في التاسعة صباحًا، وستقوم بإعادتكم إلى المكان نفسه في الرابعة.

مرة أخرى أكرر: لقد تمّ اختياركم للعمل في هذا المشروع الخطير والمهم؛ لأنكم أشخاص متفرِّدون ومميَّزون في عملكم. فمن بين الكثير من الأسماء المرشحة وقع اختيارنا عليكم، ونثق في أنكم ستكونون على هذا القدر من المسؤولية.

والآن نفتح باب المناقشة. من يملك أي سؤال فعليه أن يطرحه علينا.

ما إن أنهى كلمته، حتى طرحت عليه سؤالها بلهفة:

- هل يمكن الذهاب إلى المكان بسيارتي؟

بنبرة لا تحتمل الجدل:

- عذرًا غير مسموح.

عندما لاحظ على وجهها ملامح الإحباط:

- عليكم اعتبار أنفسكم في معسكر نخضع فيه جميعنا لجميع النظم والشروط، حتى يتم الانتهاء من الأعمال الموكلة إلينا؛ ربما من هذا المنطلق تستطيعون أن تستوعبوا الأمور بصورة أفضل.

شغل تفكيرها كيف ستترك ابنتها كل هذا الوقت بمفردها. ستنهي العمل في الرابعة، والعودة إلى منزلها بالتجمع الخامس تستغرق في أقل تقدير ساعة، وهذا في حال كانت الحركة المرورية ميسرة؛ وبذلك فهي لن تصل إلى بيتها قبل الخامسة مساء، إذن ستسبقها ابنتها إلى البيت بساعتين ونصف، وهي لم تتعود أن تمكث بمفردها خاصة في مثل هذه الظروف.

ماذا تفعل.. هل تعتذر؟ مؤكد لن تستطيع. مديرها اختارها للعمل في اللجنة من بين عدد كبير من الزملاء الأكفاء الذين يفوقونها عمرًا وخبرة، وأخبرها مهللًا كأنه يزف لها خبرًا: (لقد رشحتك لما وجدته فيك من حماس وشغف تجاه الأبحاث والاكتشافات، ومؤكد هذه الوثائق ستؤجج هذا الحماس أكثر فأكثر).

سعدت جدًا عندما سمعت بذلك. سعدت بالثقة التي منحها لها، وسعدت بالأسرار التي سوف تقوم باكتشافها، ولكن كان ذلك في زمن آخر. صحيح ليس ببعيد، ففي علم الحساب تسعون يومًا، وفي علم الزمن ثلاثة أشهر، ولكن للقلب حسابات أخرى، القلب الذي يقيس الأيام بما مرّ فيها من فرح ومن حزن؛ ولذلك فهي تشعر بأنه مرّ عليها دهر بحاله.

كان ذلك قبل وفاة زوجها، تتذكر عندما هاتفته لتخبره باختيارها في اللجنة بصوت ممتلئ باللهفة والحماس. فأجابها: (أشعر أن قلبك يكاد يتوقف من السعادة. مبروك يا حبيبتي). اليوم حماسها ونشاطها ذهبا ليحل محلهما فتور ولامبالاة، وكأن الحياة غلفت بكرتون أسود ثقيل.

لاحظ زميل لها امتقاع ملامحها فسألها: هل كل شيء بخير؟

هزت رأسها بما يفيد نعم.

منذ موت زوجها، والانتهاء من مراسم العزاء ومواساة الأهل والأصدقاء التي بدأت تنحسر تدريجيًا، أغلقت بابها عليها وعلى ابنتها، رفضت دعوات أمها الملحة للذهاب للعيش معها: (لن أترك منزلي.. الحياة ستستمر كما كان وليد على قيدها تمامًا.. لن يتغير شيء) نعم، الحياة تستمر، ولكن بشكل مختلف. الموت كان جاثمًا بأنفاسه الثقيلة على كل شيء من حولها. فقد المنزل حميميته ودفأه، وحديقته التي كانت مفتونة بها أصبحت مهجورة وموحشة. وبدا الطريق طويلًا ومظلمًا كما لو أنه نفق لا نهاية له.

صحت من شرودها على صوت رئيس اللجنة، وهو ينهي حديثه قائلًا: الوثائق والأوراق نُقلت إلى المبنى، وكل شيء أصبح جاهزًا، وسنبدأ العمل مطلع الأسبوع المقبل.

إذن كان عليها تدبر أمورها بأقصى سرعة. يمكنها أن تطلب من مساعدة المنزل، أن تؤجل ذهابها حتى تعود، ولكنها كانت دائمًا في عجلة من أمرها، فمؤكد لن توافق.

3
البيانيست

خفضت صوت الموسيقى في راديو السيارة لتتمكن من الرد على الهاتف. كان رقم مدير الموارد البشرية بالفندق، فكرت في عدم تلقي المكالمة، وجعل الرنين يستمر إلى الأبد، ولكنها تراجعت عن قرارها.

- مرحبًا سيدة مانوليا.

- مرحبًا.

- أريد أن أبلغك أن مدة عقد البيانست الذي تعاقدنا معه ليحل محلك خلال الشهور الماضية سينتهي بعد غد، عليك أن تخبرينا هل ستعودين إلى العمل أم نوقع عقدًا دائمًا مع العازف الجديد؟

مرت فترة صمت، قطعها الرجل قائلًا بنبرة من يعلم بخفايا الأمور:

- أعتقد أن ثلاثة أشهر وقتٌ كافٍ، وعليك تدبر أمورك. تعلمين أن الفندق لا يستطيع الاستغناء عن عازف بيانو البهو، والعازف الجديد اشترط على الفندق توقيع عقد سنوي معه، لذلك يؤسفني أن أخبرك في حال لن تستطيعي الرجوع لعملك سنضطر آسفين على الاستعانة به بدلًا منك.

- هل يمكنك أن تترك لي مهلة من الوقت للتفكير؟

- سيدة مانوليا، نحن نعتز بعملك معنا، وأعتقد أن ثلاثة شهور وقتٌ كافٍ، وعليك الرجوع لممارسة نشاطاتك مرة أخرى. غدًا سأنتظر ردك النهائي.

صوت الرجل كرنين عملة معدنية ارتطم بشدة بالأرض، وأخذ يدوي في أذنها بصدى مدوٍّ لرنين كلماته.

- (يؤسفني ذلك - ثلاثة شهور وقتٌ كافٍ - سنضطر آسفين للاستعانة بعازف آخر).

كانت تريد أن تعيد الاتصال به، وتصيح فيه: (ما أدراك أن ثلاثة أشهر على موت أعزّ إنسان هي وقتٌ كافٍ! هل هناك للحزن صلاحية معينة؟! وهل له زر نضغط عليه لإيقافه أيها السخيف المتعجرف؟!).

شعرت أن المشاكل بدأت تنهال فوق رأسها، وعليها من اليوم أن تواجه الكون وحيدة.

4
أسرار كونية

في صباح خريفي غائم كانت الحافلة التي سيستقلّونها تنتظرهم أمام المبنى الخلفي من بوابة الوزارة، تأخرت عن موعدها عشر دقائق، لم يكن من عاداتها التأخر، على العكس كانت تحرص دائمًا أن تصل قبل الموعد، ولكن الإصلاحات في إحدى الطرق الرئيسة عطلت حركة السير، عندما استقلّت الحافلة كانت المقاعد كلها ممتلئة بأعضاء اللجنة.

ألقت التحية، فتمتمت الأصوات بالإجابة عليها. أثناء بحثها عن مقعد شاغر كانت تتفحص ملامحهم، كانوا بأعمار مختلفة وهيئات مختلفة أيضًا. من هو لطيف السحنة ومن هو عابسها، على أي حال هي سوف تعمل معهم لمدة ثلاثة أشهر فقط، فلتدع اللطيف في لطفه، والعابس في عبوسه.

عند مبنى يقع في مكان متطرف في وسط صحراء القاهرة الجديدة توقفت بهم الحافلة، ومن الواضح أن فكرة المجئ بسيارتها كانت فكرة غبية، فهذا المكان بالتأكيد كان بحاجة إلى مرشد ليدلها إليه.

المبنى مكون من ثلاثة أدوار بنظام حماية خاص، وكاميرات في جميع الأماكن ترصد أدق الحركات. الدور الأول مبنى استقبال يؤثثه طقم من الجلد، وكونتر يقف عليه عدد من الموظفين.

أرشدهم المشرف إلى الدور الذي سوف يقومون فيه بعملهم، تقع وحدة ابحاث وثائق الجينزا في الطابق الثاني بينما الطابق الثالث للترميم والرابع للأرشفة. ممر طويل على جانبيه غرف للباحثين مجهزة بأحدث الأدوات، وذلك لمساعدتهم في إنجاز عملهم بإتقان، بعد اجتماع سريع مع رئيس المركز المشرف على خط سير العمل الذي يظهر بهيئة جادة، فلم يشغل باله حتى أن يبتسم،

وهو يحييهم. أكد عليهم ضرورة ارتداء الكمامات والقفازات، والتعامل برفق وحرص شديدين مع الأوراق.

قاطعته: ولكن فواتير البيع والشراء والعقود وما إلى ذلك، هل يجب علينا أيضًا ترجمتها؟

تطلع إليها بشيء من الاستغراب:

- هل أنت متأكدة من سبب وجودك هنا الآن؟

كان في تساؤله شيء من النزق لذا أجابته بتحدٍّ:

- أعلم سبب وجودي هنا جيدًا، ولكن ألا ترى أن الوقت الذي سوف نقضيه في ترجمة وثائق عن البيع والشراء أو خطابات غرامية، من الأفضل أن نستغله في ترجمة الوثائق المهمة.

- هذه الأوراق ستمكننا من تتبع تاريخ اليهود في مصر، وستكشف لنا الكثير من الأشياء المهمة، فاليهود ولزمن طويل كانوا من ضمن أفراد المجتمع، ومؤكد ما تحمله هذه الأوراق سيكشف لنا عن جوانب متعددة في التاريخ المصري في حقب زمنية مختلفة، وأعتقد أني أخبرتكم بذلك أمسِ.

- حسنًا، لننتظر ونرَ ما ستكشف عنه هذه الأوراق من أسرار كونية، ولكن أريد أن أخبرك شيئًا، في الواقع أريد أن أخبركم جميعكم أن السر الأكبر، السر الأعظم في هذا الكون هو (الموت.. الموت فقط.. الموت وحده) ما قيمة العثور على مستندات، وترجمتها لمعرفة أسرار تاريخ مضى، وحياة اندثرت منذ زمن؟! صدقوني: لا قيمة لأي شيء، أي شيء آخر ليس له قيمة.

تخيلت نفسها، وهي تخبرهم بذلك، وتتطلع في وجوهم لتتفقد ردود أفعالهم.

- في حالة احتاج أحد منكم أمرًا، ليس عليه سوى أن يرفع سماعة الهاتف، وطلب الرقم الداخلي لمكتبي.

توجهوا إلى ممر رقم 3، في نهايته كانت توجد ردهة واسعة تشغل حائطها خزانة جدارية مصفحة بباب كبير بمقبض من النيكل يتم التحكم بدرجة الحرارة والرطوبة فيها، تحتوي على أرفف ممتلئة بأظرف للوثائق. سلمها موظف ظرفًا مدوَّنًا عليه معلومات، بينما باشر موظف آخر تعبئة

المعلومات على جهاز الكومبيوتر، وأكد عليها بعد ترجمة كل وثيقة أن تسجل بياناتها لأغراض الفهرسة وابتسم متمنيًا لها حظًا سعيدًا.

5
الأمنيات المعلقة

وضعت الكارت الممغنط على ماكينة عبور البوابة الإلكترونية للمجمع السكني الذي تسكن فيه، المكان كله محاط بأسوار شاهقة لتحمي سكانه من تطفل العابرين. فهم أشخاص من ذوي الأسماء اللامعة؛ مشاهير الفن، نجوم الكرة، وسياسيون ورجال أعمال بارزون، أسماء لعائلات عريقة، وهناك أيضًا طبقة النوفوروش (الأغنياء الجدد) التي تطفو على السطح.

يمكننا أن نقول إنه مجمع مميز، ليس كباقي المجمعات التي انتشرت في السنوات الأخيرة على أطراف المدن والتي بإمكان كل من هب ودب أن يسكنها. مجرد أن يذكر أحد أنه يسكن هذا المجمع يحظى باحترام لافت.

منذ عدة سنوات جاءها زوجها مهللًا، يخبرها أن عائلته كسبت قضية الوقف التي طال التقاضي فيها، وأن القضاء حسم أخيرا الأمر لصالحهم، وخلال أيام قليلة سيصنفون ضمن فئة المليونيرات، وذلك بعد بيع الأرض.

- من الآن علينا أن نعد قائمة الأمنيات.

كان يقصد الأمنيات المعلقة، التي كان ضيق اليد لا يسمح بتحقيقها، أخذ يعد على أصابعه:

- منزل كبير وأنيق، سيارة حديثة، رحلة حول العالم. أعتقد أن هذا كافٍ، وأنت ماذا عنك؟

ابتسمت: وهل بعد ذلك سيتبقى لنا شيء، ولو بقي فمن الأفضل أن نحتفظ به في البنك تحسبًا لتقلبات الزمن.

اقترب منها، لفها بذراعه: ها أنت دائمًا تفكرين في الغد، دعينا نعِشْ يومنا، لا أحد يعرف ما الذي يمكن أن يحدث غدًا؟

- نعم، ومن أجل هذا يجب علينا أن نفعل ذلك.

كان يتحدث، وكأنه على يقين أنه لم يتبقَّ له سوى القليل في هذه الحياة، لم تستطع أن تكبح رغبته في شراء هذه الفيلا المقامة على ربوه عالية، والتي خصصت الشركة المصممة لها قسطًا وافرًا من الدعاية بوسائل الإعلام جميعها. دخل عليها، وفي يده كتالوج للمشروع الذي صُمِّم على نهج الريف الإنجليزي: مساحات خضراء واسعة، بحيرات، ملاعب جولف، نادٍ صحي. حديقة واسعة بحمام سباحة تيحدها أسوار عالية لتوفر لهم الخصوصية.

- هي جميلة حقًّا، ولكن بعد شرائك هذه الفيلا لن يتبقى معك شيء؟

- سيبقى جزء من المال يمكننا به أن نبدل سيارتنا للموديل الأحدث.

عندما شعر بعدم حماسها لمس شعرها:

- حبيبتي، نحن لن نعيش سوى مرة واحدة، دعينا نستمتع بحياتنا.

- ولكن هذا تبذير، يمكننا شراء مسكن مناسب بسعر أقل من ذلك بكثير.

- أي تبذير! تتحدثين وكأني تعبت وشقيت حتى جمعت هذا المال؟! هو ميراث من أجدادي، ولولا ذكاء المحامي وحيله لم نكن لنربح القضية، ولم نكن قد استرددنا الأرض من الحكومة. يمكنك أن تعتبري المال كأنه لم يأتِ.

وبذلك تم الشطب على البند الأول والثاني في قائمة الأمنيات فقط، وتركت بقية الأمنيات المعلقة.

وهكذا وجدا نفسيهما ضمن سكان المجمع، الأمر لم يكن مجرد أن تقتني مسكنًا فيه، بل الأهم أنك تعيش كما يعيش جيرانك فيه، تتبع طقوسهم، تمارس عاداتهم، تتحدث كما يتحدثون، ترتدي أحدث صيحات الموضة كما يرتدون، تقضي إجازتك في ربوع أوروبا كما يفعلون.

نعم، الأمر أنك تصبح واحدًا منهم، أن تشبههم.

ولكي يشبهاهم كان عليهما أن يضحيا بكثير من الأشياء، أهمها راحة البال، فالعيون تلاحقك أينما تذهب. كما لم يكن من الممكن العيش بمنأى عن الجيران، فبين يوم وآخر هناك دعوة غداء أو عشاء أو حفل عيد ميلاد، بالإضافة لسهرات الويك أند، والمناسبات الخاصة التي يجتمعون للاحتفال بها في الكلوب هاوس الملحق بالمجمع.

6

بيانو مفردة إيطالية تعني (رقيق)

مرت على السوبرماركت لتشتري البقالة، فلمحتها جارتها، وجاءتها مسرعة. رسمت تعبير الهلع على وجهها، وهي تصافحها (يا الله تبدين في حالة مزرية، هوني على نفسك عزيزتي، كلنا سنموت) تعلم أن أهم صفات سكان هذا المجمع المغالاة في رد الفعل تجاه أي شيء وكل شيء؛ لذلك لم تستغرب من هذا التعبير، كأن كارثة كونية قد حدثت أو على مشارف الحدوث.

هزت رأسها باستسلام ويأس:

- في الواقع المسؤولية كلها تقع على عاتقي الآن: البيت والعمل وشراء الطلبات والاهتمام بطفلتي، والأصعب من ذلك أنني في الأيام المقبلة سأقضي في العمل وقتًا إضافيًا، وسأضطر للعودة في وقت متأخر، ولا أعرف كيف سأترك ابنتي بمفردها.

ضمتها إليها، وهي تصيح بالإنجليزية: (اووه نو).

ثم فجأة انفرجت أساريرها، وكأنها عثرت على اكتشاف رهيب.

- لا تحملي الهم، سوف أمنحك رقم مكتب التخديم الذي أتعامل معه يمكنه أن يوفر لك شغالة مقيمة من جنوب أفريقيا، من هؤلاء اللائي ليس عليهن سوى هز الرأس، وهن يقلن: تحت أمرك سيدتي.

- أنا لا أريد من تهز رأسها لي بالسمع والطاعة، أريد من أثق بها.

- هذا المكتب مضمون، وجميع من في الكمبوند يتعاملون معه. ثقي بي.

المشكلة لم تكن في عدم الثقة فقط، المشكلة كانت في عدم توفر المال أيضًا، هي تعلم أن راتب العاملات الأفريقيات أقل بكثير من الفلبينيات والأندونيسيات، ولكنه في نفس الوقت كثير عليها، وهي في حاجة شديدة اليها، وبالنسبة إلى الراتب فيمكنها تدبيره من المكافأة التي ستحصل عليها من العمل في المشروع.

وبدا من الواضح أيضًا أن عليها أن تعاود الاتصال بمدير الفندق، لتخبره أنها ستعود للعزف يومي الجمعة والسبت. لم تعزف يومًا من أجل المال، كان العزف على البيانو ضرورة ملحة لها للشعور بالراحة والسكينة.

تعلمت العزف عندما كانت في الثانية عشرة، جلب لها أبوها مدرسًا خاصًا، رجلًا أنيقًا، مدرس موسيقى في مدرسة ثانوية. قبل بداية أي شيء أخبرها أن بيانو مفردة إيطالية تعني (رقيق) لذلك يجب التعامل معه برفق.

ومع الوقت شعرت أنها بحاجة إلى أكثر من ذلك، بحاجة إلى أكثر من مدرس خصوصي يعاود تعليمها النغمات نفسها، وينتظر حتى تنتهي ليصفق لها، وهو يومئ برأسه (برافو). طموحها كان أكبر من أن يلبيه لها هذا الرجل، كانت تحلم بفرقة ومايسترو وجمهور. التحقت في الإجازة بالمدرسة الصيفية لمعهد الكونسرفاتوار، وهناك لم تنمِّ موهبتها كهاوية فحسب، بل أكثر من ذلك، أصبحت محترفة. انضمت إلى إحدى فرق الأوبرا وأصبحت عضوًا مهمًّا لا يمكن الاستغناء عنه. صاحبتهم للعزف بحفلات داخلية وخارجية، وأحيانًا كانت تُدعى للعزف منفردة أو بالمشاركة مع فريق ثلاثي أو رباعي على أشهر مسارح أوروبا.

لم يعطلها عزف البيانو عن دراستها، على العكس كان حافزًا لنجاحها، من غير اللائق أن تكون عازفة موهوبة ولامعة، وتحصيلها الدراسي ضعيف أو متوسط. كان نجاحها كعازفة يشكّل نجاحها في الحياة كلها.

وكان من الصعب بعد الزواج والإنجاب أن تواصل ما حققته من نجاح في الموسيقى. تراخت، تكاسلت، أو ربما هي دورة الحياة التي جعلتها تكتفي بدورها كزوجة، ولكنها حاولت تعويض هذا التراخي في أن تكون زوجة وامرأة عاملة ناجحة وطموحة.

عندما انتقلوا للسكن في الكومبوند، أعلن الفندق الذي يقع بداخله في باب الوظائف الخالية بإحدى الجرائد عن حاجته لعازف بيانو البهو. فجأة اشتعلت الفكرة في رأسها، الفندق قريب، والعمل خلال أيام العطلة الأسبوعية فما المانع؟!

تقدمت إلى الوظيفة، والتحقت بها، ولم يكن ذلك من أجل المال بالتأكيد وقتها، ولكن اليوم كان قرار عودتها من أجله.

- حسنًا، علينا أن نقر بأن جميع الأشياء تبدلت.

هكذا حدّثت نفسها، وهي تشعر في قرارة نفسها بخوف من الزمن ومن المجهول والمستقبل؛ لذلك اتخذت القرار بتأمين مستقبل ابنتها، وخاصة أن موت زوجها كشف لها أنه ليس هناك من أحد يمكنها الاعتماد عليه.

- لقد تأخرتِ كثيرًا، لقد ظننت أنك لن تعودي.

وضعت الأكياس على طاولة المطبخ، واقتربت من ابنتها التي كانت تقف عند عتبة الباب، وضمتها إليها.

- حبيبتي لماذا تقولين ذلك؟ كيف لا أعود؟! ألم أخبرك أمس بأني سأتأخر عن موعد حضوري في الأيام المقبلة؟!

لم تجبها، ولكنها شعرت كما لو أنها تضم إليها سنجابة صغيرة مذعورة.

- لماذا أنتِ خائفة هكذا؟ أنا معك، ولن أتركك أبدًا.

حملتها، وأجلستها على المقعد.

سأصنع السلطة فورًا. احزري ما الطعام اليوم؟ إنه شيء تحبينه كثيرًا.

كانت تريد أن تطمئنها، أن تدخل البهجة إلى قلبها، ومن أجل ذلك كانت على أتم الاستعداد لتفعل أقصى ما في وسعها.

- إسباجتي بكرات اللحم.

قالتها كمن يفاجئ أحدًا بشيء يحبه، وهي تضع سرفيس المكرونة في منتصف الطاولة.

لم تبدِ ابنتها أي تعبير، كانت واجمة. تظهر من النافذة شجرة الدلب، وهي تهتز بقوة بفعل الرياح، فتتساقط أوراقها. كل منهما في مقابل الأخرى تتبادلان نظرات هاربة تقطعها ابتسامة مصطنعة. يتدلى مصباح من السقف وعلى أثر ضوئه الباهت تناولتا طعامهما دون شهية تُذكر. مقعده الخالي منه زاد من الشعور بالوحشة، وحشة تنزع من المرء شهيته للحياة أيضًا.

- احكِ لي كيف كان يومك؟

- يوم مثل كل يوم.

تتذكر عندما كان وليد يوجه إليها هذا السؤال، ولم تكف عن الاسترسال في الكلام، تحكي بالتفصيل كل شيء منذ أن تركب الحافلة حتى تعود. تحكي وتبتسم تارة، أو تغضب في أخرى، تحكي بلغة جسدها الثرثارة.

- متى موعد تمرينك؟

- لن أذهب بعد الآن، لقد اعتذرت.

- هل حقًّا ما تقولين؟

- نعم.

- ولكن رقص الباليه هو أكثر شيء تحبينه في هذا العالم.

- لم أعد أحب شيئًا.

ثم تركت المائدة، وذهبت.

- سآخذ غفوة سريعة، هناك الكثير من الواجبات المدرسية عليّ إنجازها.

أخبرتها بذلك، وهي في طريقها مخلفة لها ظهرها.

تستوعب ما تمر به. عندما نشعر أن الحياة خذلتنا، نتوقف عن ممارسة ما اعتدنا ممارسته من الأشياء التي نحبها، وكأننا بذلك نعاقب الحياة، ونحن في الحقيقة لا نعاقب سوى أنفسنا. وهي الطفلة المدللة التي فقدت أباها في لمح البصر دون سابق إنذار، كيف بإمكانها أن تفهم ذلك؟ أن تفهم ما يصعب فهمه على الراشدين؟!

7
الكثرة لنا

كان الاجتماع الأول لهم. التف الجميع حول مائدة بيضاوية في حجرة الاجتماع المزودة بشاشة كبيرة وأجهزة حاسوب، جلس رئيس اللجنة على رأس المائدة، ووجه لهم التحية والشكر على جهودهم التي من المؤكد لن تقاس بثمن. أعلن بدء الجلسة، وطلب من الباحثين طرح الوثائق المهمة التي قاموا بترجمتها.

صوت أنثوي ناعم لا يمت بصلة لهيئة صاحبته التي ترتدي تايير من قماش التويد من موضة عهد مضى، وتضع فوق عينيها نظارة بعدستين مقعرتين.

- كثيرًا ما وجدت في الوثائق التي قمت بترجمتها عبارة (ربي مائير بعل هانيس)...، وقد استوقفتني هذه العبارة، ومن خلال بحثي وجدت أنه رجل دين تنتسب له بعض الكرامات، ويوجد قبره في مدينة طبرية، ويعد مزارًا يرتاده اليهود للتبرك به.

اقترنت باسمه منذ مطلع القرن التاسع عشر صناديق للصدقة يكتب عليها (لأجل الرب مائير بعل هانيس)، وحصيلة هذه الصناديق تذهب إلى مزاره في طبرية.

عقب الرئيس:

- ولم يكن الرب مائير وحده الذي صُنعت باسمه صناديق للصدقة، هناك الكثيرون منهم. لقد حاول حاخامات اليهود منذ قرون ترويج فكرة الأولياء والكرامات، واعتادوا أن يجمعوا الأموال على صيتهم، وأكبر وأهم مثالين على ذلك كان موسي بن ميمون الذي روج اليهود شائعة بأن مبيت

المريض في السرداب الملحق بمعبده، والذي كان محل أعماله وأبحاثه قبل وفاته، يشفي من مرضه، وذلك نظرًا لأن ابن ميمون بجانب أنه كان رجل دين وفيلسوفًا، كان طبيبًا ماهرًا ذائع الصيت، فجاء المرضى من كل حدب وصوب لزيارة المعبد والمبيت في سردابه، والشرب من ماء بئر موجودة فيه.

تحدث باحث بنبرة صوت متسارعة ومختلطة ما بين لهفة وبهجة:

- لقد عثرت على وثيقة مهمة جدًا، وهي تفيد بأن آنسة يهودية باتت ليلة في مقام الفقيه موسي بن ميمون الكائن في حارة اليهود بمصر.

الوثيقة عبارة عن تذكرة منقوش عليها صورة موسى بن ميمون، ومكتوب فيها:

(معبد ومقام السيد الميموني الواقع في الحي الإسرائيلي بدرب محمود بمصر، وصلنا من جانب الآنسة (أوديت يواقيم) مبلغ قدره ثلاثون قرشًا إجرة النوم عن ليلة الجمعة 15 يوليو عام 1949).

- ثلاثون قرشًا كانت تعد مبلغًا كبيرًا في ذلك الوقت، ولكن بالنسبة إلى معتقداتهم في الأولياء وثقتهم اللا متناهية في كراماتهم، فكل ذلك بإمكانه أن يهون وقتها. والمثال الثاني هو شخصية يهودية تعرف (بأبي حصيرة)، لقد لفق اليهود عنه قصة غريبة، وهي أنه جاء من المغرب إلى مصر، سابحًا في البحر فوق حصيرة لذا سمي بأبي حصيرة. وتواصلت من بعدها الادعاءات، عام 1907 ادعى بعض اليهود الذين كانوا يعيشون في مصر، أنه يوجد في قرية "دميتوه" القريبة من الإسكندرية في منطقة المقابر التي تقع على ربوة عالية - والتي تضم رفات 88 من اليهود - مقبرة لحاخام يهودي من أصل مغربي يُدعى أبا حصيرة، واسمه الأصلي أبو يعقوب، وأنه من أولياء الله وله كرامات مشهودة.

ومنذ ذلك الوقت بدؤوا يتوافدون على القرية بأعداد كبيرة عامًا بعد آخر؛ وذلك للتبرك بهذا الحاخام الذي ذاع صيته. وبعد اتفاقية كامب ديفيد عام 1978 بدأ اليهود يطلبون رسميًّا تنظيم رحلات دينية إلى هذه القرية للاحتفال بمولد أبي حصيرة، وقاموا بتوسيع المقبرة من مساحة 350 مترًا إلى 8400 متر حتى تستوعب أعدادهم التي بدأت تتزايد عامًا بعد آخر، وكان هذا الاحتفال يستمر لمدة 15 يومًا، وكانت طقوسه غير لائقة أبدًا بعاداتنا وأخلاقنا، ومؤخرًا تم منع هذا الاحتفال.

لذلك لن نستغرب أبدًا، فهم يروجو شائعات من هذه النوعية التي تصدقها العقلية اليهودية التي تؤمن تمامًا بمثل هذه الأمور، ويصبح وقتها من السهل سحب أموال اليهودي عن طريق الصدقة، وهو المعروف عنه حرصه الشديد.

استعرض عدد كبير من الباحثين الوثائق المهمة التي عثروا عليها بينما تجلس على يمينه مباشرة، فنظر إليها، وعيناه تنطقان بسؤال لم ينطق به.

- وأنت ماذا عنك؟!

نظرت إلى الأوراق التي معها، وتحدثت:

- وقع تحت يدي عدة وثائق من جمعية تُدعى (تاج التوراة) كان منها دعوة لاحتفال بذكرى وفاة سيدنا موسى عليه السلام:

(مبارك الرب مصر اذكروا توراة موسى عبدي يسعدنا أن ندعوكم بمناسبة ذكرى وفاة سيدنا موسى عليه السلام لإحياء ذكراه، وسوف يعقد الاجتماع في حارة اليهود بمبنى زخارون جرين التي بإمكانها استيعاب ألف شخص) ودمتم بخير وسعادة.

والوثيقة تشير إلى أن اليهود يجتمعون هذا اليوم لقراءة بعض نصوص التوراة من سفر الخروج.

ولكن هناك أمرًا ما أثار استغرابي؛ في بداية الورقة كان نقش لشعار الجمعية وهو عبارة عن شكل تاج، بينما دوّن تحته تاريخ تأسيسها، وتم تحويل الأرقام إلى حروف، ونتج ذلك عن عبارة (الكثرة لنا). لقد تم تأسيس هذه الجمعية عام (5670) بالتقويم العبري، وعندما عادلت هذا التاريخ بالحروف، وجدت أنه غير مساوٍ لعبارة (الكثرة لنا)، ولم أجد تفسيرًا لذلك.

هزّ الرئيس رأسه:

- حسنًا، هذه ملاحظة مهمة.

ثم قام بضبط وضع نظارته على وجهه.

- كان اليهود يستخدمون (الكابالاه)، وهي طريقة لتحويل الأرقام إلى أحرف، وذلك وفق قانون حساب الجُمّل بأن ترتيب الأرقام ترتيبًا تنازليًّا وفقًا للقيمة الرقمية للحرف، على أن تكون هذه الطريقة غير جامدة، فيسمح بالإخلال بهذا الترتيب، وذلك لصياغة كلمة أو عبارة دينية أو نصيحة أو استخدام يدعو للتفاؤل.

أمسك القلم، وقام يكتب على اللوحة المعلقة على الحائط. منظره ذهب بها عبر الزمن ليضعها هناك طالبة في المرحلة الثانوية، عندما كان الأستاذ أنور، مدرس الرياضيات، يقف أمام السبورة ليشرح لهم المعادلات الرياضية، والتي لم تكن تفهم منها شيئًا على الإطلاق. اعتادت أن تتركه يشرح ويملأ السبورة بمعادلاته الصعبة، وخيالها يذهب لما ستفعله في عطلة نهاية الأسبوع، أو تفكر ماذا أعدت أمها من طعام على الغداء، وفي الوقت نفسه كانت لا تشيح بنظرها عن السبورة، وبين الفينة والأخرى تهز رأسها بما يعني (كل شيء مفهوم)، وفي إحدى المرات بعد أن انتهى من شرح إحدى المعادلات، وسألهم كعادته: (هل هناك أحد لم يفهم؟)، فهزت رأسها بقوة بما يفيد أنها فهمت جدًّا؛ وذلك حتى ينهي الحصة ولا يعاود الشرح.

مسح المدرس السبورة، وكتب مسألة أخرى، ثم سألهم من يريد أن يقوم بحلها؟ أغلبهم رفعوا أياديهم، ولكنه اختارها بالرغم من أنّها لم ترفع يدها، أوحى له تحريكها لرأسها بهذه الثقة بأنها أكثرهم فهمًا لهذه المعادلة الصعبة، وستفلح في حلها. كانت بالطبع في موقف لا تُحسد عليه عندما تسمرت أمام السبورة والطبشورة في يدها، ولم تكتب شيئًا.

تاريخ تأسيس الجمعية كما جاء بالوثيقة هو (5670)، وهذا العدد يساوي مجموع القيم الرقمية للحروف مرتبًا تنازليًّا أي 500+400+200+70)، ومجموع هذا الرقم يدل على الهزيمة والفشل؛ لذلك تم تبديلها إلى تاريخ أخر لتمنح هذا المعنى (تاج التوراة) وهو اسم لجلب البركة بالحلية ذات شكل التاج الملكي، التي تزين الصناديق التي تحفظ فيها أسفار التوراة.

تعالت الهمهمات، واتسعت العيون دهشة، وجاء صوت من آخر المائدة:

- يمكنهم التحايل على كل شيء، فلماذا لا يمكنهم التحايل على التواريخ بالزيادة والنقصان طالما في النهاية الأمور ستصب لمصلحتهم؟!

انفضّ الاجتماع بعد ثلاث ساعات متواصلة، كان موعد الراحة فنزلوا إلى المطعم يتناولون الوجبات الخفيفة والمشروبات.

تلقت اتصالًا من مكتب التوظيف يخبرها أنه وجد عاملة بالمواصفات المطلوبة.

تنفست الصعداء، فخلال الأيام الماضية كانت تطلب من الشغالة ألّا تذهب حتى عودتها، فكانت تستجيب على مضض. تجدها عندما تعود واقفة على عتبة الباب في انتظارها لتهرع في طريقها.

ذهبت لجلب العاملة من المكتب، ذُعرت عندما شاهدتها، كانت تبدو كعود ثقاب محروق يرتدي قبعة، نحيفة وضعيفة إلى حد فكرت أن الموافقة عليها، وأخذها إلى المنزل لخدمتها، ستكون وزرًا لا تستطيع أن تحتمله. لاحظ صاحب المكتب ترددها، فحاول أن يطمئنها.

فبدل صوته لنبرة العارف بخبايا الأمور، ودون انقطاع أخذ في سرد مزاياها، وكأنها تجلس أمام مندوب مبيعات يعرض عليها سلعة للبيع: هذه السيدة تعمل في مكتبنا منذ ما يقارب ثلاث سنوات، لقد عملت في بيوت أطباء مشهورين، فنانين، رجال أعمال، ولم تُقدم فيها أية شكوى طوال مدة عملها معنا، وهي أيضًا واحدة من القليلات اللواتي يتحدثن الإنجليزية، صحيح أنها لا تتحدثها بطلاقة، ولكنها تفهم ما تملينه عليها. تأكدي أنك لن تسمعي منها سوى سمعًا وطاعة سيدتي.

فجأة قاطعته بنبرة حادة قائلة:

- هل أخبرك أحدهم مسبقًا أن عهد العبيد انتهى؟!

امتقع وجه الرجل:

- عذرًا، لا أفهم إلى ماذا تلمحين؟

- هل يمكنك أن تتحدث عنها باعتبار على أنها إنسانة، وليست سلعة للبيع.

- هذا عملي سيدتي، يجب أن أخبرك بمزاياها وعيوبها، هناك عقد سيوقع بيننا، وفي حال إذا لم يعجبك فيها شيء، فستكونين ملزمة بدفع راتبها بالكامل و...

علمت أنه لا طائل من المناقشة معه، وكما قال هذا عملي، فكيف سيفهم ما الذي تعنيه؟ هي مجرد سلعة، سينال مكتبه عمولة عنها بقيمة شهر من راتبها مقدمًا، بالإضافة إلى أنه سيخصم من مرتبها نسبة شهريًّا ليضعها في جيبه. لو كانت تملك المال الكافي، لكانت دفعت له قيمة ما سيخصمه من مرتبها، ولكن ما باليد حيلة.

في طريق رجوعهما، قصت عليها رحمة بصوت واهن أنها تعمل منذ خمس سنوات بعد أن تأزمت الحالة الاقتصادية في بلدها، وهرعت نساء البلد ورجاله للعمل في بلدان شمال أفريقيا والدول العربية. زوجها التحق بالعمل في خدمة الغرف بأحد الفنادق بإحدى دول الخليج، وهي جاءت مصر بناء على توصية إحدى قريباتها التي نصحتها بالذهاب إلى هناك، لأنها ستجد المعاملة الجيدة التي وجدتها في منازل هذا البلد، وثقت بحديث قريبتها التي لفت على بلاد الله للعمل فيها، وتملك خبرة كافية، فطلبت من وكالة التخديم ببلدها أن توفر لها عملًا بمصر. توقفت فجأة عن الحديث، ثم فتحت محفظتها، ومدت لها صورة فوتوغرافية، كانت تظهر فيها مع زوجها وأولادها، ثلاثة أطفال في سنوات متعاقبة أكبرهم لم يتعدَّ عمره السادسة.

- ولكنهم صغار جدًا، من الذي سيهتم بهم؟

تبدلت نبرتها للأسى:

- تركتهم مع أمي، ولكنها سيدة مسنة لن تستطيع الاعتناء بهم طوال اليوم، لذلك ألحقتهم بدار حضانة فتحت أبوابها خصيصًا للنساء اللواتي تركن أطفالهن، وسافرن للعمل في الخارج، يذهبون إليها من الصباح إلى الظهيرة.

من المرآة الأمامية للسيارة شاهدتها، كانت تضم الصورة إلى صدرها، وتضم معها أولادها.

8
أنا يهودي

القاهرة 1947

لم أحب الكتابة ولم أكتب يومًا، حتى عندما كنت أعمل مدرسًا كنت أشعر بالضيق عندما أكتب على السبورة بالطبشور. لا أذكر أنني كتبت رسالة في حياتي سوى مرة لفتاة الجيران، ولم تحتوِ الرسالة إلا على كلمة واحدة (أحبك). أحبك هل حقًّا كتبت ذلك؟! وهل كنت أحبها فعلًا؟ لا أعلم تحديدًا، على أي حال ليس ذلك موضوعنا، ولكن هي الظروف التي قادتني إلى هنا، إلى منتصف الصحراء، هي التي دعتني لذلك.

من المؤكد أن حماسكم أُثير الآن لتعرفوا ما هي الظروف التي قادتني إلى هنا؟! ولكن من أنتم؟! القراء، أي قراء وأنا لا أنوي نشر كتاب، ربما قراء أفكاري.

أحيانًا ترغمك الظروف على فعل أشياء دون إرادة منك، والغريب أنها تمنحك فرصة أن تكتشف نفسك من جديد، أن تعيد النظر في مواقف بعينها. أن تفهم وترى من وراء الأحداث الأشياء التي سقطت سهوًا عنك.

سطرًا بعد آخر شعرت أني أجيد الكتابة، ولكن على أي حال هذه الأفكار لا أستطيع أن أطلق عليها مذكرات. لا، هي ليست كذلك. يمكنني أن أقول: إنها مجرد شذرات من حياة رجل عابر.

أنا (يهودي)، وما قيمة ذلك؟ ما قيمة أن أذكر ذلك؟ حسنًا، سأخبركم بالأمر. هل لو كنت مسلمًا أو مسيحيًا كنت سأهتم أن أكتب ذلك؟ من المؤكد لا. وقتها ستكون تفصيلة ليس لها أهمية، إنما

في حالتي أنا، وكوني يهوديًا، فهي الأساس، أساس كل شيء، أساس كل الأشياء.

وُلدت لأجد نفسي كذلك في البداية، لم أعطِ الأمر أية أهمية. عذرًا، لا أقصد أهمية كوني يهوديًّا، ولكن أهمية أية طائفة أتبع. أتبع الأشكيناز أم السفارديم؟ فلم أهتم يومًا بذلك، ولم اهتم مثلًا بأي توراة عليّ قراءتها، ولا أي معبد عليّ أن أذهب للصلاة فيه.

لم تشغلني أبدًا هذه الأمور لسبب بسيط هو أن اليهود يشبهون بعضهم بعضًا في النهاية؛ آمالهم وأحلامهم وخططهم ومصائبهم واحدة.

أبي رجل بسيط، تاجر ميني فاتورة معروف في الوسط اليهودي بطيبته ودماثة خلقه، وأمي ربة بيت لا تبرحه سوى للذهاب إلى المعبد أو زيارة الأقارب. كنت الأوسط بين أخ يكبرني بأربع سنوات وأخت تصغرني بسنتين.

أسرتنا هي مثال للتركيبة النمطية للأسر اليهودية. إنها الدورة الحياتية التي لم ولن تتغير على مر السنوات. تولد، ثم تُختن بعدها بثمانية أيام، ثم بعدها بأسبوعين تتعلم أن تذهب إلى المعبد تؤدي واجباتك وفروضك.

وكما هو متبع ترتب لك أمك لقاء زواج، تتزوج، تنجب، ترعى بيتك وأسرتك، ثم ترحل.

كنا في منطقة وسطى في المجتمع اليهودي بين الفقراء الذين يسكنون حارة اليهود بالموسكي وسوق السمك بالإسكندرية، وبين أثرياء يهود جاردن سيتي والزمالك بالقاهرة.

لم نكن مثل هؤلاء ولا هؤلاء، ولكننا كنا مندسين بينهما. كنا يهود الطبقة الوسطى، نسكن في شقة كبيرة ليست شديدة الأناقة، وليست بسيطة، منزل عادي مريح فيه وسائل الراحة كافّة، فريجيدير ماركة ايديال، وأبورجاس ماركة بريموس، وكانت أمي تمتلك ماكينة خياطة ألمانية ماركة سنجر، كانت تقوم بنفسها بخياطة ملابسها هي وأختي، ما زال ايقاعها الرتيب، وهي تخيط عليها يدوي في رأسي.

كان منزلنا يقع في شارع التوفيقية، في مكان تجاري وحيوي، الحركة فيه لا تتوقف، ويطلق على هذا المربع (المنطقة الذهبية). كان مركزًا مهمًا للتجارة، ومنه تدار ثروات البلد. حيث كل شيء في محيطك البورصة، والبنوك، وقاعات السينمات، والمسارح، والنوادي، والفنادق.

عاش أهلي حياة مسالمة، مطمئنة، وسط جيران من المسلمين والأقباط. حصلت على التوجيهية من مدرسة الليسيه فرانسيه، وبعدها عملت مدرسًا للغة الفرنسية في إحدى مدارس الطائفة اليهودية.

كنت أعمل من الثامنة والنصف صباحًا حتى الثالثة عصرًا، بعدها أخرج أقابل أصدقائي في المقهى، نشرب، ونتناول وجبات خفيفة. في الشتاء نختار مكانًا دافئًا، وفي الصيف نذهب إلى حمام سباحة فندق شبرد، ومن حين إلى آخر نذهب لمشاهدة الأفلام الأمريكية في سينما جولدن ماير، كانت السينما مزينة بالمرايات المزخرفة بالذهب عند مدخلها، وبسجادة حمراء ممتدة على طول الردهة التي توصل إلى قاعة العرض.

9
للإيجار لدواعي السفر

في بداية القرن، كان اليهود يعيشون في مصر العصر الذهبي لهم، فقد منحت لهم الحكومة أعمالًا مهمة ومشرفة. نعم، لا يمكن إنكار الحقيقة؛ كنا مسيطرين على الاقتصاد التجاري والصناعي، وكل ذلك عندما أصبح قطاوي باشا عضوًا في البرلمان، وامتلكت عائلة موصيري معظم أرصدة البورصة. هذا الأمر كان محرضًا ليهود أوروبا الذين جاؤوا من لشبونة وروما واليونان وقبرص بآمال وأحلام كبيرة، ولكن لم يكن من السهل تحقيقها. قلة من الأذكياء فقط هم الذين استطاعوا فعل ذلك، ومن خابت أحلامهم عملوا في الأعمال المهنية البسيطة، واستمروا في العيش في مصر.

كنا نشعر بارتياح بأن كل شيء هادئ ومطمئن، ولم نكن نعلم أنه الهدوء الذي يسبق العاصفة. العاصفة التي استيقظنا على هيجانها في صباح أحد الأيام عندما أعلن الملك فؤاد دستور 1923 والذي جاء فيه (إن الإسلام هو دين الأمة واللغة العربية لغتها الرسمية). صحيح، كنت وقتها صغيرًا فلم يتجاوز عمري خمسة عشرة عامًا، ولم أكن أعي ما يدور، أو أوليه اهتمامًا، ولكن هذا القلق الذي أشعله القرار في قلوب وعقول الأقباط واليهود، أثار أفكاري وتساؤلاتي التي ظلت لوقت طويل دون إجابة.

لمحت ذعرًا ينبثق من عيون اليهود، وسمعت أحاديثهم عن مستقبلنا المرعب يتحدثون بها في كل مكان، في الشارع، في المقهى، في المعبد، وخلف الأبواب المغلقة. أثر ذلك في عقلية ونفسية الصبي البض الذي لا يزال يخطو خطواته الأولى في العالم، ورسخ ذلك داخلي شعورًا بعدم انتماء للبلد ولشعبها ولأرضها.

شكك الكثيرون في أن الملك سينفذ هذا القرار، وأنه سوف يتراجع عنه تحت ضغط الإنجليز، ولكن القرار نفذ، وآمالهم خابت.

هذا القرار أثر في المجتمع اليهودي بجميع طوائفه وفئاته، ولكن تأثيره كان أقوى على من يسكنون حارة اليهود، هؤلاء البسطاء الفقراء الذين قدموا إلى مصر منذ آلاف السنين، وجذورهم متعمقة فيها، لقد خذلهم القرار بعد أن أخبرهم أنهم يعيشون في مصر ضيوفًا.

وجد البعض أن شراء جوازات سفر أوروبية هو حماية لهم، وانتشر الأمر، وأصبح من العادي أن تجد مراسلًا من قنصلية أوروبية يدق باب بيتك أو دكانك، أو يستوقفك في الشارع ليعرض ويقترح عليك جوازات سفر. كان يمكنك أن تشتري جواز سفر يونانيًّا بخمسة قروش، وإيطاليًّا مقابل عشرة قروش، ولكن الفرنسي كان أغلاها، ثمنه يصل إلى مئة قرش.

كنت عكس الناس أؤمن بالجزء الفارغ من الكوب، وأفكر بأي شيء يمكنني أن أملأه. كانت ميزة هذا القرار أنه وحّد يهود مصر وجعلهم أكثر قربًا. لم يعد يهود جاردن سيتي ينفرون من يهود حارة اليهود، ولم يعد الأشكيناز يشعرون بالفوقية على السفارديم. فالقرار ولّد لديهم شعورًا بالنبذ والأقلية، ومنحهم إحساسًا بأنهم يجب أن يتحدوا ويصبحوا عصبة، وكان من الصعب أن يحدث ذلك.

مرت السنوات، ولم يتبدل شيء غير قلق وخوف وارتياب اليهود من المستقبل، كان في تصاعد مستمر. أصبحوا يعتمدون أكثر على الأعمال الحرة، إذا أتيحت لهم الفرصة، ويتركون العمل بالحكومة، كان من الممكن جدًّا أن تستغني عنهم في أي وقت، ويصبحوا بلا عمل ولا مأوى، وكنت واحدًا من هؤلاء، ولكن دعوني أخبركم أنني في حقيقة الأمر كنت أبحث عن ذريعة أترك بها هذه الوظيفة الثقيلة عليّ.

ساعدتني في اتخاذ هذا القرار صدفة بحتة، جاءتني في شكل يافطة معلقة على باب أحد الدكاكين، وقع نظري عليها في أحد الصباحات، وأنا في طريقي إلى المدرسة. كان مكتوبًا بخط عريض (للإيجار لدواعي السفر). كان متجرًا مساحته كبيرة، يقع أسفل مبنى كبير وملحق به دور مسحور. يتميز بأن موقعه حيوي، ومهم، يطل على ثلاثة نواصٍ رئيسة. لحظة أن وقعت عيني على اليافطة، قررت استئجار المكان فورًا من دون تفكير، ووقفت أخطط ليكون مقهى كبيرًا، وضعت

ديكوراته وقائمة طلباته، وشاهدت الندل، وهم يذهبون ويجيئون يلبون طلبات الزبائن. في نفس اللحظة قررت ترك وظيفتي. إنها واحدة من اللحظات التي يمكنك أن تتخذ فيها قرارات مصيرية.

حسبت تكلفة الإيجار مع التجهيزات، فوجدت أنها فوق مستوى إمكانياتي، حتى مدخرات أهلي المتواضعة التي كانوا سيساهمون بها لم تكن تفي بالغرض. عرضت فكرة المشاركة على صديقين لي أحدهما يهودي فرنسي، والآخر مسيحي أرمني، رحبا بالفكرة، وتم كل شيء على وجه السرعة.

صُمم المكان على النمط الفرنسي، فُرشت الأرضية بألواح الباركيه، وبُطنت الجدران بتلبيسات من خشب الماهوجني، وعلقت على الجدران أباليك بإضاءة خافتة.

في السقف كانت المراوح تدور ببطء لتلطف الجو، وجهاز الجارامفون يطلق معزوفات متعاقبة لشوبان، وأغاني أوبرالية إيطالية، وأحيانًا فرنسية.

قبل الافتتاح كنا قد اتفقنا على كل شيء عدا الاسم، جلسنا لاختيار اسم جذاب وأنيق، ولكنها كانت المرة الأولى التي نختلف فيها على شيء، كل واحد كان يريد أن يختار اسمًا وفقًا لملته أو جنسيته، وعندما تصاعد الخلاف اتفقنا أن نختار اسمًا حياديًّا لا يمت لأي منا بصلة.

في غضون شهور قليلة، تحول المكان من محل بقالة متهالك إلى مطعم أوروبي أنيق. كانت ميزته أنه مناسب لجميع المستويات وجميع الأعمار. يمكنك أن تجد فيه بشاوات وبكاوات وتجارًا وموظفين. طاولات تتم عليها صفقات كبيرة، وطاولات تناقش قضايا سياسية، وطاولات للعشاق أيضًا. نظّمنا العمل، وقسّمنا أمور المكان، توريدات المطبخ كانت من اختصاص أرتين، إدارة الصالة والعمال كانت من اختصاص فيليب، والأمور المالية كانت من اختصاصي، وكان ذلك بالنسبة إليّ مطمئنًا ومريحًا ومناسبًا لطبيعتي التي تميل إلى العزلة في أغلب الأحيان.

10

ولكن ما هي المزوزات؟

كان موعد الاجتماع الأسبوعي المبكر، تجرّعت قبله عدة أكواب من القهوة لتفيق، وتستطيع أن تستوعب ما يدور. عرض الوثائق ونقاشها يستمر وقتًا طويلًا، وعليها أن تكون بكامل تركيزها وانتباهها.

- وثيقة عبارة عن خطاب لا يحمل اسم المرسل لكنها مرسلة من فلسطين. أبدى فيها المرسل رغبته بزيارة مصر في إجازته، ولا بد من وجود كفيل لضمان مغادرته خلال المدة المصرح بها، وإلا يتوجب عليه أن يدفع قيمة (60 جنيهًا)، وهو لا يملك هذا المبلغ، ويسأل المرسل إليه إن كان بإمكانه كفالته؟

- هذا يعني أن فلسطين كانت واقعة تحت الاحتلال البريطاني. كانت سلطة الاحتلال تفرض مبلغًا ماليًا على المسافرين من بلد إلى آخر داخل نطاق البلدان الواقعة تحت الاحتلال، هذا النظام بالإضافة إلى أنه يوفر موردًا ماليًا، كان يمنحها سلطة التحكم والمراقبة.

تحدث باحث ذو أناقة متكلّفة بنبرة صوت قوية:

- رسالة لم ترد فيها أية إشارة إلى جهة الإرسال، ولكنها مرسلة لحبر معبد طائفة القرائيين. المرسل واحد من يهود السفارديم المقيمين في الأندلس أو شمال أفريقيا؛ وذلك لأنه أضاف إلى اسمه (سفاردي - قح - نقي)، وهو لقب يضيفه اليهود السفارديم إلى أسمائهم كنوع من التباهي. يخبره المرسل أن هناك عددًا من مزوزات الباب، صنعت بشكل جميل، ويريد أن يرسلها له مع أحد

الأشخاص القادمين إلى مصر ليبيعها هناك، مؤكدًا عليه بأن هذه المزوزات ستجد إقبالًا كبير من يهود مصر الأثرياء.

ومن ذلك يتضح أن رجال الدين اليهود لا تقتصر أعمالهم على الأمور الدينية فقط، وهناك أكثر من وثيقة تكشف عن معاملات تجارية بين رجال الدين ويهود داخل وخارج مصر. سألت باحثة يتملكها فضول تجاه كل شيء وأبسط شيء:

- ولكن ما هي المزوزات؟

من الواضح أن سؤالها ولّد لدى الرئيس رغبة مكبوتة ليعمل مدرس لغة عربية، تحمحم قائلًا:

- هي جمع كلمة (مزوزا) لفافة من الرق أو الورق مكتوب عليها صيغة صلاة الشماع الواردة في سفر التثنية، والتي تبدأ بعبارة (اسمع يا إسرائيل، الرب إلهنا رب واحد) وهذه العبارة تمثل جوهر ديانة اليهودية، تُطوى هذه اللفافة، وتُحفظ في قارورة من الزجاج، وتُثبت على القائم الأيمن من حلق الباب، ليضع الشخص الداخل والخارج يده عليها، وهو يقول: ليحفظ الله خروجي ومجيئي إلى الأبد.

أضاف باحث: هناك فاتورة أيضًا تؤكد ما قاله زميلنا، إن رجال الدين اليهودي لا تقتصر أعمالهم على الأمور الدينية. (أقر أنني تسلمت من الحاخام الأكبر معلمنا سماحة يوسف عنتيبي - حفظه الله وأدامه - يدًا بيد خمسين فرنكًا مقابل طباعة كتاب (شولحان عاروخ)، وكان ذلك في المدينة المقدسة يوم الثلاثاء الموافق 10 حشوان سنة 676 بالتقويم الصغير، وتوقيع المستلم (صموئيل اللاوي زوكرمان، مؤلف الكتاب)، وكتاب شولحان عاروخ مكون من أربعة أجزاء، يحتوي على سائر القواعد الدينية التقليدية للسلوك.

تحدث أحد الباحثين بصوت خفيض يخيل إلى المستمع أنه عبر سنوات وسنوات حتى وصل إليه:

- أمسِ قمت بترجمة وثيقة أعتقد أنها مهمة، الوثيقة مؤرخة (24 نوفمبر عام 1913)، والخطاب مرسل من شخص يدعى يوسف السلحدار، وموجّه إلى شخص يدعى الخواجة جاك

بيرون. ملخص الوثيقة أن المرسل يسعى إلى الحصول على الجنسية الإيطالية، وذلك مقابل 100 جنيه إفرنجي، ويخبره فيها أنه ترك له المبلغ عند أحد رجال البنوك (وحيث إنكم ساعون لي في أسباب تبعيتي لدولة إيطاليا، فبناء عليه إننا وضعنا في يوم 24 نوفمبر مبلغ مائة جنيه إفرنجي طرف جانب "الخواجة فيتاكوريل" قيمة أتعاب هذه الشغلة، وقد فوضنا جنابه أن يودع لكم مبلغ المائة جنيه، وذلك يوم استلامي البزابورت. وإذا مر ستون يومًا ولم أحصل عليه، يكون لي الحق في أخذ المبلغ الموضوع في ظرف خاص لدى جناب الخواجة فيتا، ويكون هذا الخطاب لاغيًا ولا يعمل به، ووقع في نهاية الوثيقة يوسف السلحدار).

- كما ترون هذا الخطاب دليل على سعي اليهود وراء الجنسيات الأوروبية منذ وقت طويل. الخطاب مؤرخ عام 1913، إنه وقت مبكر جدًا، وكانت أمامهم فرصة الحصول على الجنسية المصرية في العشرينيات والثلاثينيات، ولكنهم فضّلوا أن يكونوا أوروبيين ليستفيدوا من قانون الامتيازات الأجنبية، وبعد إلغاء الامتياز وصدور قوانين جديدة فيها ميزات عديدة للمصريين، بدؤوا يسعون للحصول على الجنسية المصرية، ولكن وقتها كانت الكثير من الأوضاع قد تغيرت، وخاصة بعد توسع فكرة الصهيونية، وأصبح منح الجنسية لليهود شيئًا صعبًا جدًا.

صوت من آخر الطاولة:

- وهذه الرسالة تؤكد أن اضطهادهم بمنعهم على الحصول على الجنسية المصرية كان مجرد كذبة.

- ليست هذه الرسالة وحدها، هناك الكثير من الأمثلة، وربما أغربها وأتفهها عندما شب حريق في مكتب وزارة الخارجية بمدينة ليفرتو في إيطاليا قبل قيام الحرب العالمية الثانية بعدة سنوات، كان من ضمن الخسائر حريق سجلات الأهالي المقيمين في جميع أنحاء العالم، فوجّهت القنصلية الإيطالية في مصر دعوة لجميع المواطنين الإيطاليين من مواليد مدينة ليفرتو ليقوموا بتسجيل أنفسهم، وجد اليهود المصريون أن هذه هي فرصتهم الذهبية، وذهبوا بأعداد كبيرة جدًا ليقوموا بتسجيل أنفسهم كيهود إيطاليين من بلدة ليفرتو، أبدى القنصل دهشته من هذا الكم الكبير من الإيطاليين المقيمين في مصر، وبالرغم من شكه لم يكن أمامه سوى أن يقوم بتسجيلهم.

- كانوا يشعرون دائمًا بعدم الارتباط أو الانتماء الحقيقي لمصر، مهما حاولوا أن يظهروا عكس ذلك.

- لم يشعر اليهود بانتماء تجاه أي بلد من البلدان التي عاشوا فيها؛ لأن انتماءهم لم يكن أبدًا قوميًّا، بل كان انتماءً دينيًا وعرقيًا؛ لذلك أسسوا لأنفسهم مجتمعًا خاصًا بهم. كانوا دولة داخل الدولة، وفي اعتقادي أن السؤال الذي وجهه ألبرت موصيري لناحوم أفندي الحاخام الأكبر ورئيس الطائفة الربانية في منتصف القرن الماضي يلخّص الكثير من الأمور (كيف للإنسان أن يكون مواطنًا مخلصًا لبلد مولده وفي نفس الوقت يكون مواليًّا لبلده القومي اليهودي؟ كيف بإمكاننا فعل ذلك؟!) لقد وجّه موصيري هذا السؤال للحاخام في أحد الاجتماعات، ونشر في جريدة إسرائيل، وهي جريدة موالية للفكر الصهيوني كان يمتلكها موصيري الذي لم يحظَ برد من الحاخام، لقد كرر له السؤال نفسه في عدة اجتماعات أخرى، وكانت في كل مرة الإجابة هي الصمت.

11
البجعة السوداء

في البداية كانت هذه المهمة منهكة بالنسبة إليّ، ومختلفة عن أسلوب حياتي الذي يدور حول وتيرة روتينية وهادئة، فجأة وجدت نفسي مطالبًا بحل الكثير من المشاكل المالية، ورؤية الكثير من الوجوه، وسماع المزيد من الثرثرة، ولكن النجاح الذي كان يحققه المطعم كان يحفزني، ويجعلني أنسى معه كل شيء.

بعد مرور عام واحد أصبح (البجعة السوداء)، وهو الاسم الذي اخترناه لمطعمنا واحدًا من أشهر وأفضل المطاعم بالقاهرة، وذلك كان يحسب لأرتين في المقام الأول الذي كان يعمل بجد وجهد وإخلاص لا مثيل لهم

لم يخلع يومًا الأفريول الأزرق ولا حذاء الكاوتش من ماركة باتا. كان مسؤولًا عن التوريدات وشؤون المطبخ، ولكنه كان يساعد في كل شيء، الاهتمام بالصالة وإدارة شؤون المخازن، وكان ينقل مع الموردين اللحوم والمواد التموينية للمخزن، وفي كثير من الأحيان كان يساعدني في المعاملات الحسابية، ويهتم بتصليح أي عطب يحدث في المكان.

وكان ذلك نتيجة لنشأة أرتين في جمعية تابعة للآباء السالزيان، وهي جمعية تعتني بالأيتام، وتذهب بهم منذ نعومة أظافرهم للتدريب على الأعمال الشاقة بالورش. التحق منذ صغره بمعهد (دون بوسكو)، وهو معهد فني تابع للجمعية واقع على كورنيش النيل بمنطقة روض الفرج، فصار العمل جزءًا من صميم حياته.

أمّا فيليب فكان على عكس أرتين، يبدو متأنقًا دائمًا في بذلاته التي يشتريها في زياراته إلى فرنسا، وقوامه الرشيق يظهر أناقتها أكثر والتي تكشف علاماتها على أنها من بيت أزياء كبير، يصفف شعره إلى أعلى مستعينًا بكمية كبيرة من البارلانتين، فتبدو خصلاته لامعة ومتماسكة، ويفوح منه عطر قوي.

كان حرصه على أناقته لا يقل عن حرصه على أناقة المكان، ملابس النُدل يجب أن تكون نظيفة ومكوية، المفارش ومحارم المائدة رائحتها عطرة، ومنقوش عليها شعار المكان، تبدّل الزهور بالمزهريات يوميًّا، اللوحات التي تشغل الحائط أصلية، وأدوات المائدة أيضًا من السيفر الأصلي.

هكذا كان أرتين، وهكذا فيليب. ولعلكم تسألون: وكيف أنا؟ حسنًا، سأخبركم بحقيقة الأمر. دعوني أُلقِي نظرة إلى المرآة لأرى نفسي كيف أبدو. لا داعي للسخرية، أقصد كيف أبدو الآن؟! لم أنظر إلى المرآة منذ أن قدمت إلى هنا، إلى هذا المكان الشاسع الضيق، المزدحم الفارغ، البارد الحميمي، المظلم المنير، هذا المكان الذي زججت بنفسي فيه هو الشيء وعكسه.

أعتقد أني قد ازددت نحافة حتى أصبحت كهيكل عظمي، وذقني التي لم أحلقها منذ أمد تمنحني عقدًا آخر فوق عمري، أرتدي بيجامة مقلمة، إنها نفس التقليمات التي كان يرتديها يهود مذابح الهولوكست، نعم نفس اللون، نفس القماش، طول القلم وعرضه.

وكأن على اليهود دومًا أن يرتدوا هذه المنامات المقلمة، ربما لأنها تضفي إحساسًا بالبؤس، وبالوهن، وبالقهر. على أي حال كانت الزي الرسمي لجميع المعتقلين هنا، وهذا الذي كان يهون الأمر. انتظروا، ولا تفتحوا أفواهكم دهشة. نعم، أنا واحد من مئات المعتقلين هنا، وأعتقد أن مفردة "معتقلين" أرقى قليلًا من المسجونين ومن المحبوسين. كلمة اعتقال تضفي نوعًا من الاحترام على صاحبها، أعتقد أنكم تشاركوني الرأي.

دعونا نعود مرة أخرى إلى موضوعنا، لم أكن في هرولة أرتين، ولا في أناقة فيليب. هيئتي تبدو مثل هيئة موظفي الدولة، أنتظر موسم التخفيضات في محلات شكوريل وجاتنيو لأشتري من هناك كسوة العام، ثلاثة قمصان من القطن وثلاثة بنطلونات من الترجال في الصيف، وثلاثة قمصان من الكتان وثلاثة بنطلونات من الصوف في الشتاء، لم أكن من هواة ارتداء البدل وعقد ربطات العنق، فقط أرتديها عندما يُحتم عليّ ذلك في المناسبات الخاصة.

كنت أبدو بملامحي وهيئتي الصارمة وملابسي الكلاسيكية أكبر من عمري الحقيقي، لم أدخل في علاقات عاطفية جادة، وقعت في إعجاب الكثيرات، ولكني لم أحاول أن أُعبّر عن إعجابي لهن، كنت أجبن من أن أُبادر أنثى بالحديث، نعم، كانت تنقصني الثقة بالنفس.

دائمًا أبدو هادئًا مثل متسرنم داخل أحلامه كواحد من هؤلاء الأشخاص الذين يمنحون إيحاء بأنه ليس لهم علاقة بما يدور حولهم، ولكن هناك نيران تتوقّد في داخلي، نيران تغلي، ثم تفور، ووقتها أعصف بأي شيء أمامي.

12
ولماذا لا أستطيع؟

استيقظت اليوم على صوت مشاجرة. كان من الطبيعي في هذا المكان أن أستيقظ بين يوم وآخر على صياح، فما هو المتوقع من مكان يضم على أناس من عدة فئات يحمل كل منهم آراء مختلفة باختلاف عقائدهم وأفكارهم؟ على أي حال كنت تعودت ألّا أتدخل في شيء. ما أكتبه لكم أهم بكثير من هذه الآراء المختلفة.

كان قرار الملك فؤاد بجعل اللغة العربية لغة الدولة، والإسلام هو دينها، بمثابة حجر قوي هزّ مياه البحيرة الراكدة، ولكن قراره اللاحق الذي أصدره عام (1929) كان بمثابة الزلزال الذي هزّ كياننا. قام الملك بتغيير جزئي في شروط الحماية، ووضع شروطًا جديدة تنتمي للقومية المصرية.

كان القرار الأصعب هو نزع السلطات من الأجانب، ومنح السلطات الحكومية فقط للمصريين. والهوية أصبحت تعادل الجنسية. المسلمون فقط هم من يكتبون في السجلات مصريين، أما القبطي فهويته قبطية، واليهودي هويته يهودية.

هذا القرار ولّد داخلي شعورًا بالحقد والكراهية تجاه كل شيء، عمّق إحساسي بأنني لا أنتمي إلى هذا المكان، وكان على السذج من اليهود الذين يصدقون هذه الشعارات التي ترفع بأننا نسيج واحد، وقطب مهم من أقطاب المجتمع، و..، و.. أن يعلموا أنها شعارات رنانة، شعارات كاذبة، مخادعة ليس أكثر.

عندما رآني أبي في هذه الليلة، وأنا أرغي وأزبد من شدة انفعالي أثناء مناقشتي معه بخصوص ما حدث، ابتسم، وقال:

- دعهم يفعلون ما يفعلون، هذا بلدنا، هي قرارات شكلية لإرضاء الإنجليز.

- كيف قرارات شكلية؟! هل تعلم جيدًا ما الذي يعنيه أنك بلا هوية؟! بينما قالت أمي، وهي تضع أمامنا صينية عليها كوبان، قرفة بالحليب لأبي، ويانسون لها:

- لا تشغل نفسك بمثل هذه الأمور يا عزرا.

انسحب أبي من النقاش ساحبًا معه الكوب من فوق الصينية:

- تعالي نجلس في الفرندة يا أوديت، فالجو رائع هذا المساء، السماء صافية والنجوم كثيرة.

كنت أراقبهما، وهما يسيران معًا في طريقهما إلى الفرندة، يظهر طول أبي الفارع قصر قامة أمي. أبي رجل الميني فاتورة يرتدي صباحًا معطفه الصوفي من كاروهات الأسود والرمادي، ويضع فوق رأسه البيريه، ويحمل فوق كتفه شنطة ليعرض بضاعته على الزبائن والتجار.

يعمل من دون كلل أو ملل من أول النهار إلى آخره، ليحصل في النهاية على قروش معدودة بالكاد تعيننا على الحياة، فمن المتوقع أن يكون هذا رد فعله، فهو لم يحاول أن يعترض يومًا في كل الظروف، وأمام كل المشاكل والعقبات، كان يهزّ رأسه بأن كل شيء سيكون له حل في القريب العاجل أو في البعيد.

أما أمي فتشبه جميع الأمهات اليهوديات، لا تشغل هذه الأمور بالها، هناك أفكار أكثر فاعلية وأكثر أهمية، كيف تفكر في مثل هذه الأمور التافهة، وهي مشغولة الفكر والبال بجدائل الثوم والفلفل المعلقة في المطبخ وتنقية الأرز جيدًا قبل عيد الفصح؟!

شعرت أنني يجب أن أكون عكس أبي هذا الرجل المسالم، المستسلم. كان أحدنا يبتعد يومًا بعد يوم عن الآخر إلى أن صرنا بعيدين تمامًا. رأيت خنوعه يومًا وراء آخر، كان ذلك الخنوع يخيفني، لم أكن أريده، لم أكن أريد أن أكون الرجل الذي يدفن رأسه في حفرة تحت الأرض هربًا من كل شيء.

وكنت عكسه، فبينما كان يهرب بدفن نفسه، كنت أهرب بالركض خارج نفسي. كان هروبي من الإطار الضيق الذي عشنا عمرنا محبوسين فيه. وكانت هذه اللوحة المعلقة على أحد جدران بيتنا محفزة لي على الدوام وكأن القدر جاء بها ووضعها أمامي لتدفعني بقوة لتحقيق أمالي.

هذه اللوحة أعطاها زبون لأبي، فنان إيطالي يقع مرسمه في ميدان الازبكية. اشتري كسوة الشتاء منه ولم يكن يملك مال كافيا ليسدد بقية ثمنه وتحت إلحاح أبي بمطالبته ببقية المبلغ، نزع أحد لوحاته من على الجدار وأعطاها له.

أبي الذي لم يكن يفهم شيء في الفن، أعجبته هذه اللوحة لأنها مختلفة. ففي العادة ترسم اللوحات لأشجار ولأنهار وللنساء الجميلات، ولكن هذه اللوحة كانت لصبي يهرب من داخل إطار اللوحة، وهو يلقي نظرة فزعة على الخارج. عندما جاء أبي ومعه اللوحة فور أن وقع نظري عليها شعرت أنني هذا الصبي، الذي يرتدي ملابس مهلهلة ويقوس قدمه ويقبض على الأطار بإحدى يديه، بينما عيناه توحيان بأنه يلهث مندهشا وهو يرى العالم "الخارجي" لأول مرة. سألت أبي عن تفاصيل اللوحة، عنوانها، من رسمها، وما الذي يقصده الفنان؟ ابتسم قائلا

- وما أدراني أنا بكل ذلك!؟ لقد حصلت عليها خلاصة حق

استفسرت منه عن عنوان المرسم وبعد انتهاء اليوم الدراسي ذهبت إلى هناك وجدت الفنان في مرسمه ولاحقته بالأسئلة حول اللوحة وطلبت منه أن يشرحها لي. ابتسم وتفهم إعجابي بها وأخذ يخبرني بأدق تفاصيلها. رسمها فنان إسباني يدعى (بيري بوريل ديل كاسو) عام 1879 وأطلق عليها اسم (الهروب من الإطار) كتعبير عن سخطه وتمرده عن ما يتبعه زملاؤه الفنانون بانتمائهم للمدرسة الرومانسية وتصوير العالم بأنه عاطفي وجميل بينما خارج إطار لوحاتهم هو قبيح ومظلم. ثم شرح لي الكثير من الأمور، عن نظرة الصبي التي هي خليط بين الفزع والدهشة وطريقة إمساكه بالحافة الداخلية للإطار دليل على تشبثه بحلمه في الهروب من داخل إطار حياته الضيق.

بعد أن انتهي من الشرح أضاف بصوت أقل حماسا

- يوم عرض اللوحة في معرض الفنان اخذ يخطب في الجمهور قائلا: (من الجيد أن تكون قادرًا على أن تكون ما أنت عليه، أن تفكر بحرية وتشعر بحرية وتعبر بحرية من الممتع حقا ألا

تكون مقيدا؛ لتستطيع التجول في الحياة وهذا العالم كما تختار. وعلى الرغم من أن كل هذا قد يبدو لطيفًا ورقيقًا ولكنه غير واقعي نعم غير واقعي بالمرة)

هذه الكلمات ظلت مثبتة في عقلي واكدت لي اكثر أن الفنان يعبر عني أنا، ليس فقط من خلال هذا الصبي الذي يريد الهروب ولكن من خلال الأفكار والأسباب التي دعته لرسم اللوحة. لذلك كانت دائما دافع لي للهرب من داخل إطار حياتي الضيق.

نعم، يا رفاق هذه هي الحقيقة!

رفاق... لكن رفاق ماذا؟ رفاق طريق.. رفاق العمر.. رفاق الكتابة. دعوني أدعُكم رفاق الكتابة، لأنكم تتطلعون إلى ما أكتبه، من الجميل حقًّا أن يكون عندي رفاق، لم يكن لهذه الكلمة وجود في قاموس حياتي. فيا رفاق، كانت عائلتنا نموذجًا من شخصيات المجتمع اليهودي المختلفة الآراء تجاه ما يحدث. أبي يمثل الشخصية التي لا يعجبها ما يحدث، ولكنه لا يرفض، لا يعترض، وأمي لا تعنيها هذه الأمور، فمنتهى طموحها أن تمارس طقوسها وحياتها من دون صعوبة، وبذلك فهي مطمئنة.

وأنا مثال الشخص الثائر الذي يريد أن يصنع شيئًا، ولكنه مكبل لا يستطيع. أعتذر يا رفاقي الأعزاء، فالعبارة الصحيحة (وأنا كنت مثال الشخص الثائر الذي لم يكن يستطيع)، فلم أعد كذلك، تبدلت الكثير من الأشياء منذ ذلك الحين، ولكن يومها تحديداِ شغلتني الكثير من التساؤلات (لماذا لا أستطيع أن أفعل شيئًا؟)، أملك ما يكفيني من أدوات: حقد، كراهية، ونيران مستعرة في داخلي، إذًا ما الذي ينقصني؟!

أعلم أن منكم من ستستوقفه هذه الكلمات من شاكلة حقد وكراهية، ربما يسخر البعض، ويمتعض الآخر ويبصق.

لا أستغرب فهذه الكلمات تثير الاشمئزاز، تثير القرف، ولكن ألستم معي أن في شخصية كل منا جزءًا ولو بسيطًا منها؟ أم أننا جميعنا ملائكة؟!

13
أشجار في فلسطين

في أحد الأيام الفارقة في حياتي، ذهبت إلى المعبد، وبعد صلاة السبت طلبت مقابلة الحاخام أفندي على انفراد، وحكيت له عمّا يعتمل في صدري من نار متأججة، عن رفضي، وشعوري بعدم الانتماء، وكراهيتي لكل ما هو مصري. كراهيتي لهذه الأرض، ناسها، وشوارعها، ومدنها، استمع إليّ من دون يقول لي شيئًا، كان يهز رأسه بين الحين والآخر، ثم أخرج ورقة، ودوّن فيها عنوانًا، وأعطاها لي مشددًا عليّ، وهو يصافحني:

- احرص على أن تأتي في الموعد المذكور بالضبط حتى لا يفوتك شيء.

ثم غادر بعد أن اعتذر بأن هناك الكثير من الأشياء تنتظره، وظللت بقية اليوم أتساءل عن هذا الشيء المهم الذي حذرني من أن يفوتني.

في السادسة مساء كنت في المطعم، عندما دخل شاب في بداية العشرينات، انحنى يحييني، ثم سألني:

- هل تريد أن تتبرع بزرع أشجار في فلسطين؟

كان تساؤلًا أثار فيّ كثيرًا من الأفكار، فجأة وجدت الدماء تفور في جسدي (أشجار في فلسطين).

- هل تنتمي إلى إحدى الجمعيات الصهيونية؟

- نعم.

هكذا بدأ الأمر بسؤال طرحه عليّ فتى بصوت متردد.

شعرت بفرح غامض، وملأني الحماس. بدأت فكرة ولادة الدولة اليهودية الجديدة تأخذ منحنى جديدًا وفعليًا، ومنظمات الصهيونية أخذت الأمر أخيرًا على محمل الجد. زادت أعداد المستوطنات، وسافر عدد من يهود أمريكا وأوروبا إلى فلسطين للمساعدة في تأسيس دولتنا (حسنًا، لقد حان الوقت يا سادة).

من المؤكد أنّ منكم من يسبني الآن، من يهاجمني، ويقول: من هذا المجنون الذي يهذي؟!

لا يهمني رأيك في ما أكتبه، ولا يهمني رأيك في قناعاتي، هناك بالتأكيد أشياء أكثر جمالًا، أكثر إثارة، أكثر تسلية، من هذه التفاهات، دعني في تفاهاتي وامضِ.

ذهبت إلى الموعد الذي كتبه الحاخام مؤكدًا على حضوري، كان الموعد في منزل يقع في منطقة الظاهر، المكان على اتساعه ولكنه لم يسع وقتها الحضور. عدد كبير من جنسيات وأعمار مختلفة أتوا جميعهم للاستماع للمحاضرة التي سيلقيها (شعياهو ليبوفيش)، عرفه منظّم الندوة بأنه مُفكّر ومفسّر للديانة اليهودية. تحمست عندما علمت بشخصية الضيف، فقد ذاع صيته مؤخرًا في الأوساط اليهودية.

يبدو في الأربعين من عمره بملامح بشوشة وصوت خفيض. بعد أن استمعت إليه، كنت أريد أن أخلع حذائي وألقيه عليه، أو أن أركله في مؤخرته وأوسعه ضربًا. كان هذا الحقير يرفض فكرة الصهيونية بشدة، ففي رأيه أن الديانة اليهودية هي ما يخص العلاقة بين اليهودي وربه عن طريق أداء الفرائض، أما القيم الفكرية الأخرى التي ربطت الديانة اليهودية بقيم لا علاقة لها بالدين مثل: تقديس الأرض أو مكان معين فهي خاطئة، لذلك كان يرفض المنطق الفكري للصهيونية الدينية، والذي يعتمد على التوراة كسند يعطي الحق لليهود بإقامة وطن قومي في فلسطين.

أثار كلامه حفيظة الصهاينة الحاضرين وعدد من اليهود الذين اعتبروا الحق اليهودي في فلسطين حقًّا إلهيًّا.

تعالت الأصوات والنقاشات التي توبخه، وعلى إثرها ترك الحلقة وخرج. كان خروجه من الحلقة مصدر راحة لعدد كبير من الحاضرين، أخذنا نتناقش، ونتحدث، وسعدت عندما وجدت عددًا كبيرًا منهم يحمل نفس أفكاري ونفس حقدي ونفس كراهيتي.

في هذا الموعد، وذلك المكان، كنا نحمل إصرارًا فولاذيًا بأن نقيم دولة. لا، لم يكن الأمر مجرد حلم من الأحلام، ربما يكون قابلًا للتحقق وربما لا، إنه رغبة قوية وعلينا تحقيقها، ومن أجل ذلك علينا أن نبدأ بشيئين مهمين وضروريين، الأول هو جمع الأموال، والثاني تسخير العقول. جمع الأموال لعمليات التأسيس والإنشاء، وتسخير العقول عن طريق إرساء الفكرة الأساسية بأن فلسطين أرض الميعاد التي على اليهود أن يعودوا إليها.

14

من يهود فلسطين إلى يهود مصر

- هناك وثيقة دعا فيها حاخام المعبد اليهودي إلى التجمع في تمام السادسة من مساء السبت الموافق... وذلك للتحدث عن (عقدة إسحاق)، ودوّن فيها هذه الآية من سفر التكوين (أما إسماعيل فقد استجبت لطلبك من أجله. سأباركه حقًّا، وأجعله مثمرًا، وأكثر ذريته جدًّا، فيكون أبا لاثني عشر رئيسًا ويصبح أمة كبيرة. غير أن عهدي أبرمه مع إسحاق الذي تنجبه لك سارة في مثل هذا الوقت من السنة القادمة).

ويحث الحاخام فيها اليهود على الحرص على حضور أولادهم معهم، لأنه - وكما أشار في الوثيقة - مهم أن يعرف الأبناء هذه القصة في سن الناشئة.

سألهم الرئيس:

- هل من أحد هنا يملك فكرة عن الذي تعنيه عقدة إسحاق؟

تبادل الجميع النظرات. ابتسمت عندما فكّرت لو أنها تهز رأسها بما يفيد (نعم)، فيطلب منها أن تخبرهم عنها، ووقتها تقف متلعثمة، وهي تردد: عقدة إسحاق، عقدة إسحاق. في الواقع أنا لا أعرف سوى عقدة أوديب ويمكنني أن أحكيها لكم.

تخيلت هيئة رئيسها الصارمة الذي لا يقبل المزاح أبدًا عندما يسمعها تقول ذلك، وبما أنه يعاملهم كما لو أنهم تلاميذ، فمؤكد وقتها أنّه سيطلب منها أن تغادر القاعة فورًا.

لمح الرجل شبح الابتسامة التي رسمت على وجهها، فرمقها بنظرة قاسية وبنبرة أعلى من المعتاد، وكأنه يقول: احذري أيتها التلميذة.

- يميل علماء التوراة إلى الاعتقاد أن هدف القصة، هو تفسير العلاقات الإثنية واللغوية بين الإسرائيليين والشعوب التي تعيش في أوساطهم. فقد ذكرت التوراة إسماعيل بأنه الجد الأول للشعوب العربية، وذكر أولاده في سفر التكوين مثل ابنه (حدار)، وهو اسم عربي.

وبعضهم أطلق عليهم أسماء الأماكن في الأراضي العربية مثل: (دومة وهي دومة الجندل في الصحراء السورية، تيماء في الجزيرة العربية، قيدار ابن إسماعيل هو أيضًا اسم إحدى القبائل العربية التي عاشت في وادي آل سرحان في الأردن)، وبالنسبة إلى هذه النظرة فإن علاقة النسب بين إسماعيل وإسحاق يمكن أن تفسر أوجه التشابه الملحوظ في الشعوب العربية القديمة التي كانت تربطها علاقات اجتماعية واقتصادية.

في سفر التكوين طردت هاجر، وطرد إسماعيل من قبيلة إبراهيم، ولم يرد ذكر أي شيء آخر في التوراة عن إسماعيل وذريته، ولم يرد تفسير للسبب الذي استبعد إسماعيل من الميثاق اليهودي، ولكنها ذكرت أن العلاقة بين إبراهيم وإسماعيل كانت مستمرة ولم تنقطع، لكن الديانة اليهودية لم تأتِ على ذكر بناء إبراهيم الكعبة، وأنه أمر باستقرار إسماعيل وذريته هناك.

ذكرت التوراة استجابة سيدنا إبراهيم لأمر الله بالتضحية بابنه إسحاق في سفر التكوين رقم 22 (للتضحية بولده إسحاق في أرض الموريا)، ويحصل إبراهيم بسبب ذلك على العهد والبركة الإلهيتين بعد أن اجتاز بنجاح الامتحان في الطاعة والإيمان بالله.

(ستكون ذريته كثيرة مثل نجوم السماء، وكرمل شاطئ البحر، وسيحتلون أبواب مدن أعدائهم، وستتبارك جميع أمم الأرض بذريته)، وعلى عكس ما جاء في القرآن بأن المعني بالتضحية كان سيدنا إسماعيل، وليس إسحاق، وتعرف القصة بكاملها في التعبير اليهودي الشائع بالعقدة أو عقدة إسحاق.

بعد انتهائه من سرد قصته، انتظر تعليقات الحاضرين، ولكن ساد الصمت. كانت القصة طويلة ومملة، ومؤكد أنّ الكثير منهم فعل مثلها عندما توجه نظرها إلى المتحدث، واضعة على وجهها تعابير الإنصات والاهتمام، بينما يشغل تفكيرها الكثير من الأمور.

من المؤكد أن هذا الباحث الوسيم يفكر في تلك الفتاة الجميلة التي أرسلت له طلب صداقة أمس على الفيس بوك، وهل هي حقًّا كما تبدو في الصورة جميلة ومثيرة أم أنها صورة مزيفة؟ يجب عليه إذن أن يبحث، ويتحرّى الحقيقة قبل أن يتورط معها في قصة ما.

هذا الرجل الذي شارف على الستين نظراته ضائعة، وكأنه وجد نفسه فجأة في هذا المكان يحمل همًا أكبر من طاقته. أما هذه السيدة التي يلفها الخمول فمؤكد أنّها تحلم بأن تمدد جسدها على الفراش، وهي تفكر في عذر مقبول تقدمه لزوجها؛ لأنها لم تصنع له المكرونة بالباشميل التي طلبها منها.

كانت تريد أن تقف، وتخبره أن عقدة إسحاق لا تعني أحدًا من الحضور، فكل منهم مشغول بعقدته. أخذ يتفرس في وجوههم لوهلة من الوقت، ثم عندما لم يحصل منهم على أي تعليق.

بنبرة يشوبها الأسى:

- حسنًا، هل يملك أحد منكم وثائق أخرى يريد تقديمها؟

- قمت بترجمة وثيقة كُتب فيها (من يهود فلسطين إلى يهود مصر)، ونجد أنه نقش شعار كل منهما في مقدمة الصفحة، ثم دوّنت عبارة (الرجل يساعد صديقه، ويشد أزر أخيه)، ووضع تحتها نقش ليدين تصافح كل منهما الأخرى. من لجنة طائفة البابليين بالمدينة المقدسة أورشليم لتبني وتعمر، تبارك الرب. القدس 28 أيار 1780.

نظر الرئيس في ساعة يده، وقاطع الباحث الشاب الذي كان سيهم بقراءة ما جاء في الوثيقة:

- هل يمكنك أن تلخص لنا ما جاء فيها، فلا نملك كثيرًا من الوقت؟

- حسنًا، حسنًا.

قالها الشاب، وهو يلف برأسه متطلعًا إلى وجوه المشاركين، وعلى وجهه ابتسامة خجولة كمن يعتذر عن شيء وحده يعلمه.

- الوثيقة عبارة عن خطاب رسمي مرسل من لجنة طائفة اليهود البابليين بمدينة القدس إلى المدعو (إسحاق مردخاي) بمصر، وهو الجابي المشرف على المعبد الخاص باليهود البابليين في

القاهرة، ويطلب منه رئيس اللجنة أن يقوم بفتح صندوق النذور الموجود في المعبد بالمفتاح المرسل مع الخطاب، وأن يجمع ما فيه من نذور، ويرسلها إلى القدس، وقد دوّن بين قوسين في هذه الوثيقة (الأموال التي تجمعونها تقدمونها لنا)، وأعتقد أن هذه العبارة تدل على أن جمع النقود سيكون بصفة دورية.

بحثت، ووجدت أن صندوق النذور كان يوجد في كل بيت يهودي، عندما يمتلئ يقوم صاحب البيت بجمع الأموال التي فيه، ويضعها في صندوق نذور المعبد.

التساؤل هنا: لماذا يريد رئيس لجنة طائفة اليهود جمع كل هذه الأموال التي يتبرع بها اليهود المصريون وإرسالها للقدس؟! فتاريخ الرسالة يشير إلى أنها كانت قبل قيام الصهيونية والدعوة لقيام دولة إسرائيل بفترة من الزمن.

أجابه أحد الباحثين الذي كان من الواضح أنه ارتدى ملابسه في عجلة من أمره هذا الصباح، ولم ينتبه أنه انتقى مجموعة من الملابس بألوان قوس قزح:

- هذا يؤكد أن فكرة قيام دولتهم كان يسبق بكثير قيام الحركة الصهيونية، فهي فكرة راسخة في عقولهم، ظلوا يعملون على تنفيذها منذ قرون طويلة، ولم تكن وليدة اللحظة كما يعتقد البعض.

15

مارش جنائزي

في تمام الثامنة كانت تجلس في جانب من بهو الفندق تعزف على البيانو، ما كاد أناملها تلمس المفاتيح، حتي تشيع في المكان أنغام هادئة. لم تعزف منذ وفاة وليد، بالرغم من أن العزف كان عزاء عن كل أحزانها، وصديقها الوفي في تضميد جراحها، مع كل جرح كانت تهرع لتعزف.

لكن هذا الجرح بالتحديد لم يفلح معه شيء، لم يكن بإمكان أي شيء أن يضمده. هي نفسها لم تحاول، تركت الجرح يضمد نفسه بنفسه، كان الأمر مؤلمًا، فالجرح غائر وعميق.

لكن ماذا عليها أن تعزف بملابس حداد وبنفسية محطمة؟! كان الاختيار الأمثل هو عزف المارش الجنائزي لشوبان من السوناتا الثانية القسم الثالث. تحتفظ بهذا المارش الحزين كنقش في ذاكرتها، لم تكن لأناملها أن تعزف أي لحن آخر. ما إن بدأت في العزف، حتى ذهبت بها الموسيقى إلى يوم الجنازة، الصمت، والنعش، والدموع، ولون الحداد، والطقس العاصف، والقبر.

كيف استطاع شوبان أن يؤلف لحنًا مثل هذا؟! أية قتامة؟ أي حزن؟ أي ألم كان يعيشه! لحن قادر أن يجعل الألم يخرج من مخبئه ليركض في طرقات القلب والروح، والذكريات المكدسة المحتشدة على جنبات الذاكرة تبرق، تضيء، تلمع من جديد. انسابت دموعها برفقة الموسيقى.

تقدم منها رجل أنيق في منتصف العمر تقريبًا، ومدّ لها منديلًا.

تطلعت إليه، كانت ملامحه غريبة، بشرة قمحية، عينان سوداوان واسعتان، شعر فاحم كثيف.

تناولت المنديل، وشكرته، هزّ رأسه لها من دون أن يجيبها.

لم تشعر بالخجل كعادتها عندما يلاحظ أحد بكاءها، دموعها هذه المرة لم تكن أبدًا فعل ضعف.

رفعت نظرها عن مفاتيح البيانو، وأخذت تنظر إلى الجالسين في البهو من حولها. كعادة زبائن البهو لم ينصتوا أبدًا إلى عزفها، فكل منهم مشغول بشيء ما، كان وحده من ينصت إليها.

ثم وقفت، وحيت الجالسين بإيماءة من رأسها، وذهبت.

لوهلة شعرت أن هذا الشخص سيلحق بها، لقد تعرضت إلى مثل هذه المواقف عدة مرات، ولكن مظهره لا يوحي بذلك، وكونه مدّ لها منديلًا لا يعني أنه من هؤلاء المتحرشين الذين يتتبعون خطى النساء.

اتصلت بابنتها لتطمئن عليها، كانت المرة الأولى التي تتركها مع رحمة الفتاة الأثيوبية التي كانت - كما أخبرتها جارتها - كل ما عليها فعله هو هز رأسها بالسمع والطاعة وتنفيذ الأوامر.

عندما عادت، كان المنزل يغرق في العتمة والصمت، تذكرت عندما كانت تنهي وصلتها الموسيقية، وتهرع إلى هناك لتقضي ليلتها في حضن زوجها الذي يبقى في انتظارها، لضيق وقتهما طوال اليوم كانت الدقائق التي يقضيانها قبل النوم، وهما يتناولان عشاءهما، ويفرشان أسنانهما، ويذهبان إلى الفراش، هو الوقت الباقي من اليوم الذي بإمكانهما فيه أن يحكي كلٌّ منهما إلى الآخر ماذا فعل، أين ذهب، من أين جاء؟

اليوم لم يعد موجودًا، وما عادت هناك قصص تُحكى، ما عادت هناك خطط لنهاية الأسبوع، ولا مشاريع للمستقبل.

لم تعد فرشاة أسنانه تؤنس فرشاة أسنانها، وسلة الغسيل المتسخ لم تعد تضم ثيابهما، ولم يعد صوته يصيح من المطبخ: انظروا من الذي سيعد مأدبة العشاء الليلة؟!

إنها تلك الأشياء العادية التي تتكرر كل يوم في حياتنا اليومية، ولفرط ما اعتدنا عليها نعتقد أنها بلا قيمة، بلا معنى، وبلا أهمية، ولكن فجأة في غفلة من الزمن يتلاشى كل شيء ليذهب سرابًا،

وكأنه لم يحدث يومًا، ونتحسر بعدها على تلك الأشياء التي لم نلتفت إليها.

فزعت عندما وجدت رحمة تجلس في الظلام:

- لماذا تجلسين هنا في الظلام ا؟

- تناولت الصغيرة عشاءها، ونامت.

- لماذا لم تنامي أنت أيضًا؟

- كنت في انتظارك، ربما تحتاجين شيئًا.

- أنا في العادة لا أحتاج إلى شيء، وليس عليك أن تبقي في انتظاري، اذهبي لتنامي، تصبحين على خير.

راقبتها، وهي تذهب إلى المطبخ، واستغربت من هذه الضعيفة كورقة شجر في مهب الريح، من أين تحصل على هذا النشاط؟! تبدأ يومها في السادسة صباحًا، وبإمكانها أن تواصل لليوم الثاني والثالث.

فتحت باب غرفة نوم ابنتها بهدوء حتى لا تستيقظ، اطمأنت إلى أنها تغط في نوم عميق، أحكمت وضع الغطاء عليها، وقفت تتأملها، وشعرت بالأسى من أجلها. عليها أن تواصل حياتها من دون السند، ما أصعب ذلك! إلى أي حضن ستهرع لو خذلتها الحياة، واحتاجت أن تشعر بالأمان. من الذي يمكنه أن يمدّها بالقوة للاستمرار لمواجهة هذه الحياة الشرسة؟ وأي ذراع ستقدمها لعريسها ليلة زفافها؟ مهما حاولت أن تكون لها بمثابة الأب والأم، فلن تستطيع أن تعوضها عن وجوده.

16

ها عبري - ها صغير

دعوني أصحح معلوماتكم، وأخبركم أن الحركة الصهيونية لم تكن يومًا وليدة اللحظة، لقد نشأت منذ قرون طويلة، ولكنها لم تتعمق وتنتشر، وتأخذ الكيان الذي أصبحت عليه إلا في نهاية القرن التاسع عشر. تم تأسيسها بشكل رسمي وموضوعي عام (1897)، وأول منظمة صهيونية تأسست في مصر هي (باركوخيا وهب)، بعدها بسنوات قليلة في 1905 تأسست منظمة أخرى تدعى (مورباخ)، بعدها بدأت تتشكل منظمات أخرى مثل: (هوشامير - بن بريت - مكابي). هذه الجمعيات كانت تعمل بصفة قانونية تحت سمع وبصر الحكومة؛ ما أضفى على وجودها شرعية، وكان معظمها منظمات فردية، البعض منها حقق نجاحًا، والآخر لم يحقق شيئًا يُذكر.

قامت هذه الجمعيات في البداية على حماسة أفرادها تجاه بناء وطن قومي، ولكن هذه الحماسة سرعان ما فترت؛ لذلك كانت معظم هذه الجمعيات تنهي أعمالها، وبعضها يستمر، ولكن من دون أي دور لافت.

كانت شعلة حماستهم سرعان ما تخفت وتنطفئ، ولمثل هذا، لمثل هذا الشيء البالغ الأهمية، لمثل بناء وطن لنا، لمثل استرداد أرضنا، كان يجب ألّا تنطفئ نيران حماسنا أبدًا، كان علينا أن نوقد شعلتها باستمرار بحطب الحقد لتشتعل نيران الكراهية.

سامحوني يا رفاق، إن كنت أؤذي مشاعركم الرقيقة بهذه الصفات (حقد.. غيرة.. كراهية)، اعتبروني شخصًا غير سوي.

انتظروا.. أحتاج أن أشعل سيجارة، ها هي علبة سجائري أوشكت على النفاد، ولن أحظى بواحدة أخرى قبل يوم السبت أي بعد ثلاثة أيام، عندما يذهب حارس المعسكر إلى السوق لشراء ما يحتاج إليه المعتقلون.

أعتقد أن الكثير منكم ضحكوا الآن، لا، إنها ليست ضحكة، إنها نخرة هذا الصوت الذي لا تستطيع أن تميزه، هل هي ضحكة أم بكاء أم هجاء؟

لا، أرجوكم. لا تعتقدوا أنني أسخر منكم! الأمر ليس كذلك أبدًا، هذا ما حدث بالفعل؛ تآمر معنا حارس المعسكر. في البداية اتفق معنا على أن يؤدي دور ساعي البريد في توصيل الرسائل إلى أهلنا وذوينا، فقد اختفينا من دون أن يعرفوا عنا شيئًا. منا من قُبض عليه، وهو في الشارع، ومنا من قُبض عليه، وهو في العمل، ومن كان يجلس على المقهى يلعب طاولة. اعتقلنا في ظروف غريبة وعجيبة، وكان أعجبها الذي اعتقل، وهو يمارس الجنس مع بغي في كرخانة بشارع محمد علي. اقتحمت قوات الأمن المكان، وأخذت تبحث في غرف النوم ذات الإضاءات الحمراء، ما كان يحدث هو الآتي: يقتحم المخبر غرفة النوم، يهرع إلى الفراش، يقبض بكف يده القوي على قفا الرجل، ويسأله أنت فلان الفلاني، فيرتعش ويجيبه (لا) حتى عثروا عليه. مؤكد أنّ هذا الذعر الذي تعرض له هؤلاء الرجال، سيجعلهم يفشلون في ممارسة الجنس مرة أخرى.

مع الوقت أصبح هذا الحارس يقدم لنا جميع الخدمات والمساعدات، يقوم بشراء الأدوية لمن يحتاج إليها، الكتب، السجائر، حتى الملابس الداخلية، ولم يكن يفعل ذلك لوجه الله، فقد كان يأخذ مقابل خدماته مبلغًا ماليًّا كبيرًا. وبالطبع، بما أننا لم نكن نملك أموالًا، كان يطلب من أهالينا أن تمده بها بعد أن يخبرهم أننا بحاجة إلى المال، ثم يدس في جيبه الكثير، ويمنحنا القليل، مستغلًا أن أحدًا منا لن يعرف أبدًا.

حسنًا، أعلم.. أعلم..، لا داعي للنرفزة، مؤكد أنكم مللتم من قصة الحارس المستغل اللئيم الذي كوّن ثروة من ورائنا، كنت أتسلى بقصها عليكم، وأنا أُدخن سيجارتي. ولكن ألا تعتقدون أن هذه النماذج البشرية الكثيرة المتواجدة بيننا تستحق دراسة نفسية دقيقة ومهمة؟!

في عام 1917 تأسس الاتحاد الصهيوني في مصر، وهو تابع للاتحاد الصهيوني العالمي، واستطاع أن يوحّد تحته جميع الحركات الصهيونية، وأصبحت المنظمة الصهيونية ذات شأن، وذلك

بعد أن دعمها عدد كبير من رجال الطائفة المهمين في المجتمع بالقاهرة والإسكندرية.

أسس ألبرت موصيري نادي الشبيبة الإسرائيلي، وقد نص قانون النادي على تأسيس جماعة (مكس نردو)، وهي جماعة واجبها تنبيه أبناء الطائفة بواجبهم تجاه أرضهم فلسطين، ولكن هذا القسم أُهمل.

وقاموا بإحيائه مرة أخرى عام 1932 تحت اسم (ها عبري - ها صغير) بشكل أكثر توسعًا، وكان اختصاصه هو نشر المبادئ الصهيونية، ودعم النشاط الصهيوني بفلسطين عن طريق التبرعات التي يجمعها. ساند النادي المشروعات الصهيونية الخيرية، وأهمها الجامعة العبرية في القدس، وجمع لها التبرعات، فتألفت لجنة خاصة في النادي باسم «أصدقاء الجامعة العبرية» حتى تتمكن من قبول أكبر عدد من الطلاب اليهود. كما ترون وقتها كانت جميع اتجاهات السير تصل إلى إسرائيل.

ولكن ما دخلنا بكل ذلك؟ نعم، أسمعكم وأنتم ترددون ذلك في أذهانكم. ها أنتم أصبحتم رقباء عليّ، في الوقت الذي من المفترض أنني أكتب الذي يمليه عقلي عليّ، وأُدون ما أريد أن أدونه من أفكار، من ذكريات، كيف حدث ما حدث؟ لا أعلم، كيف انقلبت الأدوار وأصبحتم بشكل أو بآخر تتدخلون في ما أكتبه؟ مؤكد حدث ذلك عبر اتصال خارج حدود الميتافيزيقا، وهكذا من دون سابق إنذار أجدكم، وقد تربعتم في عقلي تبدون آراءكم في ما أكتبه. تسخرون، تنخرون، تبتسمون، تعترضون، وتشجعون.

حسنًا، دعوني أخبركم عن أمر حدث من دون أي ترتيب، كانت هناك طاولة في أحد أركان المطعم، لاحظت أنه يشغلها دائمًا مجموعة من الرجال بأعمار متدرجة وبجنسيات مختلفة، يجتمعون نهار كل يوم أحد، بينهم رجلٌ يبدو رئيسهم، مفرط الطول حتى أن جميع بنطلوناته تبدو قصيرة عليه، اعتاد أن يأتي أبكر منهم، وينصت إلى أحاديثهم بانتباه، وكان يدوّن بعض التفاصيل.

هذه المجموعة كانت حقًّا مثيرة للريبة، طريقة جلوسهم تحت الضوء الباهت من لمبة سقف تتدلى فوقهم، يقرّبون رؤوسهم، ويتحدثون بصوت خفيض كمن يخططون لشيء غامض أو شيء خطير، وفور اقتراب أحدهم منهم، كانوا يصمتون فجأة، ويتطلع كل منهم في وجه الآخر.

أخبرت أرتين بشكوكي، كان رأيه أن ندعهم في حالهم، طالما طاولتهم في النهاية تدر الكثير من الأموال، ولم يسببوا أي مشاكل داخل المكان.

لكن الفضول أخذني تجاه هذه المجموعة التي يلتف أعضاؤها تحت وهج المصباح. لم يكن من السهل أن أتقدم إليهم، وأعرفهم بنفسي، وأقول لهم: (هل يمكنكم أن تطلعوني على خططكم، من الواضح أنها خطط خطيرة، وفي الحقيقة حياتي روتينية وكئيبة وتحتاج إلى بعض التشويق). مؤكد كانوا سيرفعون رؤوسهم المحدبة، ويتطلعون إليّ بعيون دهشة، وسوف يصيبهم الخرس ولن أراهم مرة أخرى.

لكنني فكّرت في خطة، وقررت تنفيذها. كان واحد منهم والذي شككت أنه رئيسهم يسبق دائمًا الجميع بالمجيء. في حوالى الثلاثين من العمر، أصهب، بدين، ملمع الشعر، ومن الواضح أنه كان يدهن شعره بمسحوق ما ليزيد من شقاره.

تقدمت إليه، وعرفته بنفسي:

- هل تسمح لي بالجلوس؟

- نعم، بكل سرور.

في الواقع أن ممتن لوجودكم هنا، من دواعي سروري أنكم اخترتم البجعة السوداء، ليكون ركيزة لاجتماعاتكم. إنها ثقة كبيرة للمكان وللعاملين فيه.

أصيب الرجل بالارتباك، وتناوب على وجهه كثير من التعبيرات:

- دعني أدعوك على مشروب، ماذا تُفضّل أن تشرب؟

وقبل أن يجيب:

- سأقدم لك كوكتيل يصنعه البارمان بحرفية كبيرة، ولا يقدم إلا هنا، وفي مطعم وبار مكسيم بباريس.

ثم أشرت للنادل:

- أخبر البارمان أن يحضر اثنين من بلودي ماري.

كان متفاجئًا، وبدا عليه أنني أتحدث إلى شخص آخر غيره، كان ينقصه أن يلتفت حوله ليبحث عن هذا الشخص الآخر.

مددت له يدي للتعارف:

- عزرا كوهين.

عندما مدّ يده لمصافحتي لاحظت أنها كانت دبقة من تعرقه إثر ارتباكه.

- يعقوب سركسيان

كان هناك اتفاق مسبق بيني وبين البارمان، أن يعد له كوكتيلًا يذهب بعقله من أول رشفة، حيث وقتها يصبح كل شيء قابلًا للبوح.

- وأنت ماذا تعمل يعقوب أفندي؟

- أعمل في البورصة.

- جميل، إنه عمل شيق وجذاب ومختلف عن تلك الأعمال الروتينية. لقد كنت أعمل في التدريس، وتركته، لم أجد نفسي أبدًا في هذه المهنة.

تجرّع المشروب دفعة واحدة تقليدًا لي، فقد أخذته على دفعة واحدة لأمنحه إيحاء أنه لا يشرب إلا كذلك.

أشرت إلى النادل بأن يحضر كوبًا آخر.

- ولكن مما يتكون؟

- هل تعرف في الخمور؟!

انكئب بكتفه وتحدث بثقة إلى حدّ ما. لا، لم يكن يعرف شيئًا، بل لم يكن يشرب أبدًا، لم يأخذ الكثير من الوقت، وجدته، وقد أفضى بكل ما عنده دفعة واحدة كما تجرع كوبه.

إنهم يجتمعون هنا ليشكلوا جمعية صهيونية خاصة، لها أهداف حقيقية يسعون إلى تحقيقها، أهداف مختلفة عن باقي الجمعيات الصهيونية الأخرى التي منذ أن بدأت لم تصنع شيئًا يُذكر.

شككت في حديثه، فهل الأمر يحتاج إلى كل ذلك.. كل ذلك الغموض والريبة؟!

حدثته من دون اكتراث:

- ولكن لماذا كل هذه الاحتياطات؟! فالجمعيات الصهيونية تعمل تحت السمع والبصر، حتى أنه وصل الأمر بإعلانات عنها في باب إعلانات الصحف.

- نريد أن يكون الأعضاء المنضمون لجمعية (إخوان صهيون) أعضاء من طراز خاص.

رددت خلفه:

- طراز خاص! ولكن ما الذي تعنيه بطراز خاص؟

- بمعنى أن انضمامهم يكون من أجل الصهيونية فقط، ولإيمانهم بمبادئها، وتقديم أموالهم وأرواحهم فداء لها، وليس من أجل أي أغراض أخرى؛ لذلك هي جماعة سرية حتى الآن لم يتم الإعلان عنها.

كنت أدهس عقب السيجارة في المطفأة، وأنا أسأله:

- ما الذي تقصده بالأغراض الأخرى التي يمكن لأحد أن ينضم إلى تنظيم صهيوني من أجلها؟

- الكثير من الأشياء، أنت مثل الجميع لا تعلم النوايا الحقيقية لهؤلاء الناس. يكفي أن التبرعات للجمعيات الصهيونية يدخل أغلبها في جيوب المشرفين عليها، هل وجدت أكثر من ذلك قذارة؟! هذه الأموال التي يتبرع بها اليهود من أجل بناء وطن لهم، يستولي عليها هؤلاء الذين يدعون الأمانة والإخلاص، وأيضًا أثرياء اليهود الذين يتبرعون للحركة سرًا، وفي المقابل يشيعون أنهم لا دخل لهم بالسياسة، وذلك حرصاً على مصالحهم. هؤلاء الانتهازيون الذين لا ملة لهم.

- لا أستغرب ذلك.

من الواضح أن الكوكتيل بقدر ما جعله يبوح بكل شيء دفعة واحدة، جعل مزاجه يتبدل من الرجل المهذب المسالم الذي بالكاد يمكنك أن تسمع صوته إلى آخر يتطاير الشرر من عينيه، يتحدث بصوت جهوري، ويرغي، ويزبد، ويضرب الطاولة بيده، ويتقاطر اللعاب من فمه كسيول ماطرة.

- نعم، هؤلاء الأوغاد يستحقون كل ما حدث وسيحدث لهم، يستحقون أن يشتتوا في كل بلدان العالم كجرذان جربانة، هؤلاء الجبناء.

- اهدأ يا يعقوب.

استعاد ابتسامته، وتمتم باعتذارات مبهمة:

- ثمة مراحل من الحياة يتحتم علينا فيها استخلاص الحصيلة.

وافقته الرأي هازًّا برأسي:

- يجب أن نحاول من جديد على أسس متينة، أتفهم ذلك؟ يجب أن نرجع للجذور.

- أجل.

- لا يمكن أبدًا أن يكون الواحد منا من اللامكان، البعض منا لا يملك وثيقة ولادة، ملف أحوال وطنية، لا نملك هوية!

انتظرت حتى ذهبت عاصفة غضبه، وطلبت منه أن أنضم إلى جمعية (إخوان صهيون)، وأخبرته أنني ينطبق عليّ مواصفات الطراز الخاص، فأنا أُؤمن بمبادئ الصهيونية، ومن أجلها من أجل دولتنا العظيمة لم ولن أبخل بمالي وجهدي.

- الأمر ليس بهذه السهولة، هناك اختبارات يجب أن تجتازها.

- حسنًا، أين ومتى؟

والآن هل تعتقدون أن هذا الرجل مخبول؟! ربما هو كذلك، ولكن كلامه فيه شيء كثير من الحقيقة، الحقيقة التي نعلمها، ولكننا نغض البصر عنها.

أعلم أنكم متشوقون لمعرفة الاختبار الذي أجريته، هذه الاختبارات التي تحدث عنها، وادعى أنها اختبارات خاصة جدًّا، ولكن ألا يكون بعض التشويق والإثارة جيدًا؟!

كنت أعتقد أنها اختبارات جادة ومميزة، وقررت أنه مهما كانت درجة صعوبتها، فسوف أتحدى نفسي لاجتيازها بنجاح، لأثبت لهم أنني من الطراز الخاص الذين يبحثون عنه، ولكني وجدت كلمة خاصة التي كان ينطقها الرجل بمنتهى الثقة شيئًا في غاية السذاجة والتخلف أيضًا. أسئلة من عينة: لماذا تريد أن تنضم لكيان صهيوني؟ وما هي غاية هذا الكيان؟ وما هي الخدمات التي تستطيع أن تقدمها له؟

بالطبع، اجتزت هذه الأسئلة التافهة بنجاح، وفي الأسبوع الذي يليه كنت أحد أعضاء الجمعية، واقترحت عليهم أن نقيم اجتماعاتنا في الدور المسحور حتى نعثر على مقر، وفي غضون أسابيع قليلة أصبحت عضوًا مهمًا، وكبرت الجمعية، وازداد عدد أعضائها، وانتقلنا إلى مقر خاص بها، وانتُخبت رئيسًا لها.

نعم، هكذا جرت الأمور، لماذا تستغربون؟

17

إلهنا رب واحد

كان عليّ أن أجعل من طراز خاص حقيقة وليس هراء؛ لذلك وجدت أن الأمر لا يمثل فقط أهمية بوعي ودراية بفكرة ومطمح الصهيونية، بل كان يجب على المنضمين أن يحملوا بداخلهم أيضًا نيران الحقد والكراهية؛ لذلك كنت أرفض انضمام هؤلاء الطيبين المسالمين، وجعلت فرصة الانضمام متاحة أكثر لمن يحمل هذه المشاعر "البغيضة"، استعملت هذه الكلمة خصيصًا حتى لا أثير مضايقتكم. ولعلكم تتساءلون الآن: وكيف استطعت أن تميز من يحملون هذه المشاعر؟! هل هو مكتوب على وجوههم أم هناك اختبار للدم ليبين ذلك؟!

الأمر بسيط يا سادة، لا تحمّلوا الأمور أكثر من نصابها، كل ما فعلته أنني غيّرت من نمط الأسئلة، ووضعنا أخرى نستطيع من خلالها أن نكتشف من فيهم تعرض للنبذ والتنمّر والاضطهاد. لأن هؤلاء هم من يحملون أسلحة معمرة بذخائر وافرة من الانتقام.

أغلب أعضاء الجمعية كانوا شبابًا تتراوح أعمارهم بين الثامنة عشرة والخامسة والثلاثين. من تجاوزوا ذلك العمر وصلوا إلى مرحلة يكون معها التغيير صعبًا، غاية طموحهم الاستقرار. صحيح أنهم يريدون إقامة وطن، وهو حلم يريدون تحقيقه، ولكن على سواعد غيرهم من بني جلدتهم، وإن لم يحدث فلا يهم، لا يهم أن يعيشوا، وحذاء العالم جاثم على رقابهم.

الفئة التي تغيظني حقًّا هؤلاء الكهلة الذين ذهب بهم العمر، ولم يبقَ منه إلا القليل، ويحاولون أن يحطموا آمالنا، يحاولون أن يحطموا عزيمة الشباب المتحمس بنصائح ساذجة بأن ما نفعله لا

يحق لنا، وبأنه سوف يُعرّض اليهود للكثير من المشاكل، هم الذين عاشوا عمرهم كله في خنوع واستسلام من أجل أن يحظوا بالسلام.

هذا الرجل الذي يدّعي نفسه فيلسوفًا، ويرفض فكرة الصهيونية، وهذا الحاخام الذي يتبنى أفكاره، ويروج لها، وهؤلاء العجائز المحنطون داخل أفكارهم، وهؤلاء العجزة من الشباب الذين يريدون وطنًا جديدًا، ولكنهم لن يشاركوا في بنائه، وهؤلاء الذين يمسكون العصا من المنتصف، كم عددهم؟ إنهم كثيرون، ويقلقون راحتك كبق الفراش.

أخبركم بشيء، أنا لم أستغرب وجودهم، فوجودهم أمر طبيعي. نعم، طبيعي. التوراة نفسها تصف بني إسرائيل بعدم الطاعة للأوامر الإلهية. لقد عبدوا العجل الذهبي، وفشلوا في الثقة بالله بما فيه الكفاية للدخول إلى أرض الميعاد بعد سماع تقرير المستكشفين الاثني عشر، وكانوا يشتكون باستمرار من وضعهم. هؤلاء القوم يتمثل فيهم لفظ بشري بمعنى الكلمة.

أسمع البعض منكم الآن يتساءل: ما الذي يقصده هذا الرجل ببشر؟ أَوَلسنا جميعًا بشرًا؟

سأخبركم ماذا يعني هذا؟! يعني أنهم ضعفاء، ويميلون للوقوع بسهولة فريسة للإغراء، ويفشلون كثيرًا في القيام بالصواب.

كان تنزيل التوراة على نبيهم تميزًا لهم، فلذلك كان يحتم عليهم أن يكونوا على الدوام "شعب الله المختار"، وأن يظلوا مخلصين للأوامر الإلهية، بما أن التوراة نزلت على بني إسرائيل، فإنهم ملزمون باتباعها بالتمام والكمال، يرتل اليهودي مرتين كل يوم شهادة التوحيد: "اسمعوا يا بني إسرائيل، إلهنا رب واحد". وتؤكد هذه الشهادة بالأمر التالي: "فأحبوا الرب إلهكم من كل قلوبكم ونفوسكم، وقوتكم (التثنية 6: 4-5)، ولكن هل يفعلون؟ أشك في ذلك.

جيلٌ من بني إسرائيل خرج من الصحراء يربطه وحي التوراة وشعور بهدف مشترك، وكان مستعدًا لدخول الأرض التي وعدها الله لإبراهيم وذريته، حدث ذلك منذ زمن بعيد، واليوم سنجعله يتكرر مرة أخرى، هناك هدف مشترك يجمع بين اليهود في العالم أجمع.

- لا.. لا، أرجوكم لا تفهموني خطأ.

هل تتخيلون أننا سندخل أرض إسرائيل بالحرب؟! هذا لن يحدث أبدًا، بل سندخلها بالعمل والجهد، سوف نصنع ما صنعه أجدادنا منذ قرون. أرجوكم لا تصدقوا سفر يشوع، الذي ذكر أن دخول الأرض بعد أربعين سنة في الصحراء كان غزوًا، وقد استولى فيه بنو إسرائيل على الأرض بقوة السلاح. لقد أثبتت التنقيبات الأثرية الحديثة نفي هذا الكلام، وذلك لعدم وجود أي آثار للدمار.

نعم، أعلم أنكم تتساءلون الآن: ولكن أخبرنا يا فصيح كيف دخلوا؟ يعتقد المؤرخون احتمال دخول بني إسرائيل إلى الأرض كان على شكل هجرات كبيرة، توصلت في النهاية إلى السيطرة على الأديان والثقافات المحلية في المنطقة، وأثارت في بعض الأحيان معارك أدت إلى المقاومة، لكنهم نجحوا بسبب قوة الإعداد ونجاح حضارة دينية، وذلك ما سوف نفعله مرة أخرى.

نعم، هذا تحديدًا ما سوف نفعله ونعمل على تحقيقه، سندخل أرض إسرائيل مثلما دخلها أجدادنا عن طريق هجرات متقطعة.

سنفعل ذلك ويملؤنا أمل، فقد بشرت نصوص من الكتاب المقدس بالزمن الذي سيقضي فيه الله على كل الجور في هذا العالم، وسيرد الله بني إسرائيل من كل شتاتهم إلى القدس، وإلى أرض إسرائيل، حيث سيحكمون بالعدل والسلام، ويباركون بمحبة الله إشعياء 11: 11 12.

18

أرض اللبن والعسل

اجتماع ذلك اليوم كان يشوبه بعض القلق والتوتر، فالوزير بنفسه يحضره ليطلع على مستجدات الأمور.

- في البداية أريد أن أوجه لكم الشكر والتحية على هذا الجهد الجهيد الذي تبذلونه في هذا العمل المهم. ومؤكد تم انتدابكم لثقتنا فيكم وفي كفاءتكم، أتابع باستمرار سير العمل مع الرئيس، فهو يطلعني أولًا بأول بأمر الوثائق المترجمة، وكما تعلمون هذه الوثائق كما تمثل أهمية لمصر فهي ثمثل أيضًا أهمية كبيرة للإسرائيليين الذين حاولوا بشتى الطرق غير المشروعة الحصول عليها، وللأسف قد نجحوا في ذلك.

نظر بعضهم إلى بعض في تساؤل.

- لا داعي للقلق كان ذلك منذ فترة طويلة.

وبنبرة هادئة كأم تحاول أن تهدهد طفلها ليغفو:

- أول من علم بأمر هذه الوثائق هو رحالة يهودي يُدعى (سيمون فون)، زار القاهرة عام 1752، وألقى نظرة عليها، لكنه لم يأخذ شيئًا منها، وقد كتب ذلك في مذكراته. بعدها بسنوات طويلة تمكن إبراهام ميكروفيتش، وهو عالم يهودي روسي من الحصول على هذه الوثائق حيث دخل حجرة الجينزا، واستخلص منها بضعة آلاف، ووضعها في المكتبة العامة في سان بطرسبرغ.

بعدها زار مصر عالم الآثار اليهودية الشهير سلومون شيختر، وقد جاء بتوصية من الحاخام اليهودي الأكبر في بريطانيا حيث كانت مصر وقتها تحت الحكم البريطاني.

جاء شيختر إلى مصر بعد وقوع مخطوطات مهمة في يده، كانت شقيقتان انجليزيتان عثرتا عليها. كانت لهما أسفار كثيرة في الشرق ولم تكن تلك زيارتهما الأولي إلى مصر. فقد أخذتا تتجولان في الشرق بحثا وراء المخطوطات القديمة. تعلمتا اللغة اللاتينية والعبرية في طفولتهما ثم تعلمتا العربية واطلعتا على ثقافة الشرق وولعتا بها. قدمت الشقيقتان إلى القاهرة لمساعدة الدكتور شيختر في الحصول على الوثائق المخبأة في الغرفة العليا بأحد المعابد القديمة.

كانت تعرفان شختر من خلال الندوات والحفلات الثقافية. وفي أحد الأيام وهو يتناول شاي الخامسة مساء في منزلهما، عرضت عليه واحدة منهما جزءا من أحد الأسفار العبرية القديمة من النص الأصلي لسفر حكمة يشوع بن سيراخ، اشترته من تاجر للمخطوطات القديمة بالقاهرة. فأصابته حالة من الجنون وقرر السفر إلى مصر فورا للحصول على هذه الوثائق المهمة، فقد كان يعلم أن هناك الملايين منها مدفون منذ قرون في الجينزا، ولن يدعها ليعبث بها اللصوص.

وصل شختر لمصر بهيئة مميزة، شعر مبعثر ولحية طويلة، ولم يبرح الغليون يده. التقي الحاخام الأكبر بن شيمون فور وصوله، وشرح له أهمية هذه الوثائق وكيف أن اكتشافها ستكون له اهمية كبيرة وأخبره أن هذه الرسائل معرضة للخطر فمؤكد هناك شخص له علاقة بالمعبد وبغرف الجينزا يسرق هذه الوثائق ويقوم ببيعها حيث حصلت عليها الشقيقتان من تاجر مخطوطات.

تم تكوين مجلس مكون من ستة أفراد لبحث وثائق الجينزا، من بينهم الحاخام ورجل الأعمال اليهودي موصيري باشا وشختر وثلاثة آخرون من أعضاء هيئة الطائفة اليهودية.

منح الحاخام تصريحا لشختر والشقيقتين بزيارة جينزا، معبد ابن عزرا، وهناك دلهم أحد المسئولين عن المعبد على غرفة الجينزا، صعدوا درجا خشبيا مرتفعا جدا للوصول إليها. وفي الأعلى اكتشفوا شيئا مذهلا، وثائق لاحصر لها يغطيها غبار كثيف، وبين هذا الركام الذي يعود لألف عام تأكدوا أن هناك الكثير من الكنوز.

أقنع شيختر الحاخام بمساعدتهم في نقل هذه الوثائق الهامة لجامعة كامبريدج لتواجه هناك مصيرا أفضل من دفنها في ذلك المكان في انتظار يتم دفنها نهائيا بمقابر اليهود.

وافق الحاخام وكتب تصريحا يسمح لهم بالخروج بالصناديق ولا يعترض طريقهم أحد. رتبوا كل شيء وتم استئجار عدد من الصبية لنقل الوثائق من غرفة الجينزا إلى صناديق. بعد يومين أصبحت الغرفة خالية تماما. كل شيء مرَّ بسهولة حتى اعترضتهم مشكلة لم تكن في الحسبان. منعت إدراة الجمارك خروج الوثائق لأنها مر عليها ألف عام وبذلك فهي آثار. ذهبوا للقنصل العام في مصر (اللورد كرومر) لمساعدتهم في تحريرها من هيئة الجمارك. وبعدها بيوم كان قد تم السماح بخروج الصناديق.

كانت خط سير الرحلة هو خروج الصناديق من القاهرة بعد أن تشحن في قطار الأسكندرية السريع، ومنها توضع على متن سفينة لتجد طريقها لكامبريدج. وقفوا ثلاثتهم في صباح ذلك اليوم على محطة القطار يرافقهم الحاخام الأكبر وموصيري باشا، يشاهدون الصناديق وهي تسافر داخل المقصورة التي حجزها لها اللورد كرومر.

استولي وقتها شخترعلى حوالى 140 ألف وثيقة، وأنشأ بجامعة كمبردج مركزًا مخصصًا لوثائق الجينزا أطلق عليه أسمه.

تحدث أحد الباحثين:

- ولكن لماذا لم توضع هذه المعابد تحت الحراسة.

بذات النبرة واصل الوزير الحديث:

-الأمر لم يكن يمثل أهمية وقتها، خاصة أنهم كانوا يقومون بدفن كل شيء كما لاحظتم. حتى خرجوا من مصر، وبدأت هذه الوثائق تُسلب وتُنهب وظهرت أهميتها. يهود مصر في مختلف أنحاء العالم يعتقدون أن هذه الأوراق جزء من تاريخهم وحدهم، ولا تهم أحدًا سواهم، فمثلًا عائلة موصيري أجرت حفائر لمقابر الجينزا عام 1910، واستخرجت عددًا كبيرًا من الوثائق المهمة، ووضعتها في الجامعة العبرية تحت اسم (مجموعة موصيري).

تجرع من كوب الماء الذي أمامه، وبنفس النبرة الخفيضة الهادئة، وهو يجول ببصره على وجوه الحاضرين:

- على أي حال لا نستطيع أن ننكر أن هذه المخطوطات أحدثت ثورة في فهم التاريخ اليهودي، وهي موزعة الآن في أهم مكتبات العالم، وتنفرد جامعة كامبريدج بالاحتفاظ بالجزء الأكبر منها.

عقّب الباحث نفسه، ولكن هذه المرة بنبرة أكثر هدوءًا:

- بالرغم من أن هذه المخطوطات والوثائق تمثل تاريخ اليهود، ولكنهم لا يملكون الحق في أخذها والاحتفاظ بها؛ لأن وجودها كان على أرض مصرية، وهي عن يهود مصر.

أجاب الوزير بنبرة الأسى:

- للأسف سُرقت مئات الآلاف من هذه الوثائق من هنا، وأُرسلت إلى جامعة كامبريدج، أطلقت عليها اسم "قبلة دراسات الجينزا"، وعندما طلبنا الحصول عليها رفضت الجامعة، وصرّحت بالتصوير فقط.

تحدث الباحث الذي يظهر أنه مؤرق بهمومه المالية كمن عثر على فكرة مدهشة سوف تعود عليه بالنفع المالي:

- إن إقامة معرض يضم هذه الوثائق المهمة سيعود بالنفع على الدخل القومي المصري.

وكأن فكرته لم تشغل حيزًا في بالها، فقد تحدثت الباحثة المهمومة دائمًا بما ستقوله لزوجها من أعذار:

- لقد اكتشفت أثناء عملي على هذه الوثائق أن هناك حكايات وقصصًا ومقاطع من نصوص شعرية وقصائد هي عربية في الأساس، ولكنهم ترجموها إلى العبرية، وزعم هؤلاء المؤلفون أنها من بنات أفكارهم.

قاطعها الباحث الذي أرسلت له إحدى الجميلات طلب صداقة أمس على الفيس بوك، لكنه يشك أنها شخصية وهمية، فلم يصادف منذ إنشائه لحسابه أن أرسلت له إحدى الجميلات طلب صداقة، فقرر أن يتحرى عن الأمر، فما قيمة أنه باحث يعمل في التحري عن وثائق تاريخية مهمة؟!

- فعلًا، لقد صادفت الكثير من الوثائق، منها واحدة تتضمن قصص من "ألف ليلة وليلة"، وتم نشرها وتداولها على أساس أنها من التاريخ اليهودي.

تحدثت الفتاة التي دائمًا تحلم أن تمدد جسدها على فراشها الوثير، وتحظى بغفوة:

- هناك أيضًا نوتات لألحان عربية أصيلة نسبوها إليهم.

ثم أخيرًا كان عليها أن تتحدث:

- الغريب أنني لاحظت أن هذه الوثائق تاريخها متفاوت، هناك وثائق منذ القرن الخامس عشر، ووثائق تعود للقرن التاسع عشر، والثابت فيها هو الاقتباس والتزييف والسرقة، كل القرون التي تفصل بين هذه الشخصيات لم تستطع أن تبدلهم أنهم هكذا منذ قديم الزمن.

هزّ الحاضرون رؤوسهم موافقة على كلامها.

نظر الوزير إلى رئيس الجلسة:

- يمكننا أن نبدأ الآن.

بدأ الحديث شابٌّ يبدو أنه متحمس جدًّا. لمعت عيناه عندما نظر إلى جهازه اللوحي، ونغّم صوته بنغمة، وهو يقول:

(وثيقة مرسلة مكتوبة باللغة العبرية، ومؤرخة بشهر (سفيان) أحد شهور السنة العبرية من عام 1920، وهي مرسلة من مدينة طبرية إلى مدينة إلى القاهرة، وهي عبارة عن شكوى من زوجة لزوجها تخبره فيها أن الأموال التي أرسلها إليها قليلة لا تكفي).

- وفي وثيقة أخرى أيضًا مرسلة من الوكالة اليهودية بالقاهرة مكتوبة باللغة العبرية، ومؤرخة عام 1923 إلى شخص يقيم في تل أبيب يدعى دريند قوقاز، والرسالة عبارة عن رد على شكوى أرسلها أحد المهاجرين إلى فلسطين يتهم فيها الوكالة الصهيونية أنها قامت بتضليله، وبأن الأوضاع هناك صعبة، وجاء في الرسالة (تذمرك ليس في محله، وحيث أنك حين كتبت مشيرًا إلى أننا نحن الصهاينة ضللناك وأغويناك بالهجرة إلى صهيون.. إن ما نفعله نحن الصهاينة لم يذهب سدى. لنا معلم عظيم اسمه التاريخ).

عقب الرئيس على حديثه:

- هذا دليل على حقيقة تدهور الحالة الاقتصادية في هذا التوقيت من الزمان الذي كانت تعيشه الأسر التي ذهبت للحياة في المستوطنات الإسرائيلية.

قاطعه الباحث بالحماسة نفسها، والذي أكد أن وراءه دافع ما أقوى وأهم، وهو يرفع يده بعدة وثائق، ويظهرها للحضور:

- لم تكن هي الوثيقة الوحيدة التي تعبّر عن ذلك، لقد عثرت على عدة وثائق أخرى تؤكد المضمون ذاته.

- كانت البطالة أيضًا متفشية ونسبة الفقر عالية جدًّا، وكانوا يعتمدون بشكل أساسي في معيشتهم على الأموال التي يتم الحصول عليها من صناديق الصدقة المنتشرة في البيوت اليهودية في جميع أنحاء العالم، والتي كانت تجمع وتُرسل إلى هناك. وهذا الأمر يعكس الأكاذيب التي كانت تروجها الصهيونية لحث اليهود في العالم للهجرة إلى وطنهم الجديد إسرائيل (أرض اللبن والعسل)، ومن انخدع وقرر الذهاب إلى هناك، لم يكن بإمكانه الرجوع مرة أخرى، ففي أغلب الأحوال هؤلاء المهاجرون استغنوا عن حياتهم في مصر والبلدان الأخرى بشكل جذري، فمن كان يملك ممتلكات باعها، ومن كان يعمل في أشغال تركها. لذلك لم يكن أمامهم خيار سوى الاستمرار هناك.

تحدث الباحث المؤرق دائمًا بهمومه المالية حيث كل أفكاره كانت تتبلور حول الأوضاع المالية:

- نعم، هناك الكثير من الوثائق تظهر اعتماد هذه المستوطنات بشكل أساسي على التبرعات، ومؤكد كانت توزع على أشخاص كثيرين وعلى جوانب أخرى، لذلك فنسبة الفرد من التبرع ستكون قليلة، ومع وجود البطالة فهذا يؤكد فقر العيش.

إحدى الباحثات التي كانت تضع نظارة بعدستين مقعرتين، خمسينية، صارمة المظهر، عصبية، شعرها الرمادي مقصوص قصيرًا، تحدثت بنبرة جلفة وهجومية في آنٍ. ترى ما أمرها، حاولت أن تخمن لها قدرًا، ولكن كلما حاولت أن تمسك بشيء كان يفر هاربًا. ولكنها سوف تعرف ذلك قريبًا.

- هناك وثيقة مهمة جدًا تعود إلى عام 1927، وهي مرسلة إلى الصندوق القومي لشراء الأراضي بالقاهرة (كيرت كايمت) وهي عقد تبرع بأرض من السيد جوزيف ماديسون، وهو صاحب شركة ماديسون للدخان، وقد تبرع بها لبناء منظمة صهيونية.

عقّب الرئيس:

- فكرة الصهيونية هي فكرة قديمة، ولكن انتشارها بدأ في النصف الأول من القرن العشرين، وذلك عند قيام المنظمات الصهيونية بشكل فعلي، وزاد من انتشارها تحمس عدد كبير من كبار المجتمع اليهودي بالقاهرة والإسكندرية لها، وقد دعموا هذه المنظمات بكلّ أنواع التبرعات النقدية والمعنوية، ووصلت في بعض الأحيان التبرعات المالية إلى نصف مليون جنيه، وهذا مبلغ كان كبيرًا جدًّا وقتها.

أمّا عن الدعم المعنوي الذي لا يقل أهمية عن الدعم المادي، فقد كانت فكرة الصهيونية بالنسبة إلى بعض اليهود فكرة مرفوضة ولا طائل منها، ولكن الدعوة لها من كبار الطائفة اليهودية بمصر والإسكندرية في المناسبات والاحتفالات الدينية والعامة والخاصة أدى لتغيير الآراء والاقتناع بالصهيونية.

حفزت هذه التبرعات وجهات النظر للرضوخ بأن الصهيونية هي المستقبل، هي الأمل في النجاة. فمثلًا قيمة الأرض التي تبرع بها المليونير اليهودي جوزيف ماديسون تساوي مائة ألف جنيه، وهو مبلغ كبير في ذلك الوقت، وقامت ماتيلدا موصيري وهي واحدة من أعيان المجتمع اليهودي تعتنق الفكر الصهيوني مع عدد من أثرياء اليهود بإعدادها وتجهيزها بمثابة مقر ومركز تدريب في نفس الوقت، وكل ذلك كان مشجعًا لليهود بتقبل الفكرة.

وكأنها أبت أن تكون للرئيس الكلمة الأخيرة، فهي مكتشفة الوثيقة المهمة، فتحدثت، وهي تجول بنظرها متفرسة في وجوه الحاضرين، ولسان حالها يقول: هل فهتم درس اليوم؟

- كان يكفي لجماهير اليهود الغفيرة أن يجدوا متبرعًا بأرض على مساحة واسعة تقدر قيمتها بهذا المبلغ الكبير، وتتكفل ببنائها واحدة من أهم الشخصيات اليهودية مع عدد كبير من أسماء لامعة من المجتمع اليهودي ليبدلوا من أفكارهم.

19
عليك أن تنتزع حقك

عندما رفعت عينيها عن مفاتيح البيانو رأته، كان يجلس في المقعد ذاته، في الوضعية ذاتها واضعًا ساقًا فوق أخرى، ومسندا رأسه على سبابته، وينصت إلى عزفها.

منذ التحقت بالعمل في الفندق، لم تجد من ينصت إلى عزفها بإمعان، لذلك مع الوقت أصبح بمثابة عمل روتيني تؤديه.

أن تشغل هذه الزاوية من البهو في نهاية الأسبوع ما بين التاسعة والحادية عشرة مساء هذا كل ما كانت تفعله، لكن أن يكون هناك من يهتم، من ينصت، فهذا يحفزّها أن تعزف بروحها؛ وذلك هو السبب في اختلاف مشاعرنا تجاه المقطوعة الموسيقية، يمكن أن يعزف العازف نفسه الألحان ذاتها، ولكننا نشعر بها مختلفة من حفلة إلى أخرى.

في فترة استراحة ما بين الساعتين، ذهبت لشرب فنجان من القهوة في مقهى ملحق بالفندق. لم تكن تفضل أن تجلس في البهو وسط الزبائن، فيجب على العازف أن يكون بمنأى عن الجمهور أيًّا كان نوع الجمهور، مستمعي الأوبرا أو بهو استقبال الفنادق.

- أحييك. عزفك رائع.

قالها، وهو يسحب المقعد ويجلس من دون استئذان. أغضبها تصرفه، وارتبكت. كانت تعرف تمامًا كيف تتعامل مع المتطفلين، ولكن في الواقع كانت المرة الأولى التي يتطفل أحد عليها بهذا الشكل المبالغ فيه.

بنبرة عصبية:

- أعتقد أنه ليس من حقك أن تدعو نفسك للجلوس دون استئذان.

- هناك مقولة أؤمن بها (عليك أن تنتزع حقك بدلًا من أن تطلبه، فما من أحد سوف يمنحك شيئًا).

قالها بهدوء شديد وبلغة عربية فصحى. دققت في ملامحه. حنطي البشرة، حاجبان كثيفان، عينان سوداوان واسعتان، شعر أسود ناعم تنسدل خصلات على عينيه في بعض الأوقات، ويزيحها بأطراف أصابعه. ملامحه توحي بأنه من دول شرق آسيا، هندي، باكستاني. طريقة حديثه بالفصحى بلسان غريب، وهذه الثقة المفرطة في النفس أثارت فضولها وزادت ارتباكها.

أجابته بنبرة تشوبها السخرية:

- أي حق الذي تتحدث عنه؟ هل تمزح؟

- اهدئي عزيزتي، الأمر لا يستحق كل ذلك. غالبًا ما نصادف قدرنا في الطرق التي نتخذها مهربًا.

- تنتزع حقك، وقدر، ومهرب. من الواضح أنك تعاني خطبًا ما في قواك العقلية.. يا الله! آخر ما كان ينقصني المجانين.

ابتسم، وأشار للنادل:

- هناك مقولة لقائد الأوركسترا الوطنية الفرنسية ليونارد بيرشتاين (عاشق الموسيقى الحقيقي حينما يسمع فتاة تغني في الحمام يضع أذنه على ثقب الباب، وليس عينه).

أشار للنادل، ثم طلب:

- إسبريسو دوبل من فضلك.

تحيرت، مظهره يدل على أناقة فائقة، بذله ماركة برادا، ساعة سويسرية، ولكنه يتصرف على نقيض هذه الأناقة.

- اسمحي لي أن أشكرك على ما فعلته بي.

هزت رأسها بما يعني (لا أفهم):

- لقد غيّر عزفك مسار حياتي.

كانت عيناه تلمعان، وهو يحدثها:

- حقًّا.. وكيف ذلك؟

- يمكنني أن أقول: لقد أعاد لي ثقتي بنفسي بعد أن كنت قد فقدتها.

- لا أعتقد أنك من هؤلاء الذين يفقدون الثقة بأنفسهم.

- لماذا تقولين ذلك؟

- مظهرك.

بنبرة الأسى العميق:

- تعرضت مؤخرًا لصفعة قوية من شخص عزيز جعلتني أفقد الثقة بنفسي، وبالمحيطين بي، وبالكون من حولي.

انتظر حتى وضع النادل الإسبريسو وذهب، فأكمل بذات النبرة:

- حتى سمعتك تعزفين، ورأيتك تبكين، في الواقع لم أتخيل أن بإمكان العازف أن يبكي من شدة تأثره، وقتها لا أعرف ما الذي حدث، صحت بيني وبين نفسي (يا الله! هل حقًّا ما زال يوجد في العالم من يبكي تأثرًا بالموسيقى أو قراءة رواية أو مشاهدة فيلم؟! أيوجد بيننا حقًّا هؤلاء مرهفو الحس؟!) عزيزتي، وجودكم يمنحنا القدرة على استعادة الثقة بالعالم، ويجعلنا نؤمن بأن كل شيء ما زال بخير.

كان يتكئ على مخارج الأحرف، ويحرص على التفرقة في نطق السين والثاء والذال والزاء، وكأنه يقوم بتشكيلها. الطريقة التي يتحدث بها تمنح المرء إيحاء أنه ينصت إلى محاضر في إحدى الندوات، حرصه على اختيار ألفاظه، تعابير وجهه عندما يتحدث، وقدرته المذهلة على

التأثير، وهي المعنية بهذا الكلام، كل ذلك جعلها تنسى طريقته الصفيقة في مشاركتها الطاولة، وتشعر ببعض من الراحة والألفة.

نظر إلى ساعته.

- النصف ساعة انقضت سريعًا. سأنتظرك هنا.

استغربت أنها نسيت معه الوقت. وهي تعزف كانت مشغولة البال، أكثر من مرة أخطأت، وكان من الجيد وقتها أنه ليس هناك أحد ينتبه إلى عزفها. كانت تفكر في هذا الرجل الذي أخبرها أنه جالس في انتظارها، تملكها فضول لمعرفة حكايته، ولكنها عاندت رغبتها.

عندما رن منبهها في الصباح، أغلقته واستسلمت لغفوة، استيقظت منها على صوت رحمة الخافت، وهي تناديها:

- سيدتي، لقد تجاوز الوقت موعد استيقاظك.

قامت فزعة، ركضت من فوق الفراش، وفي أقل من عشر دقائق كانت في سيارتها. لم يسعها وقتها لتناول فنجان قهوتها الصباحية، واليوم عندها اجتماع مطول للجنة. مرت على مقهى ستاربكس الواقع في الكلوب هاوس بالمجمع، لم تكن بحاجة إلى فنجان واحد من القهوة، هي في حاجة إلى مقهى ستاربكس بالكامل.

في اللحظة التي كانت تهم بالخروج من الباب كان في طريقه للدخول.

- يا لها من صدفة! من الجميل أن أبدأ صباحي برؤيتك، تبدين مشرقة.

- شكرًا. عليّ الذهاب إلى اللقاء.

كلمات قصيرة مقتضبة. تركته وذهبت.

وهي في طريقها تساءلت: هل تبدو مشرقة حقًّا أم أنه يجاملها؟ تشعر أن زر ضوئها قد أُغلق منذ رحيل زوجها، وأصبحت في عتمة تامة.

20
أحلامكم سراب

لم أحب الخوض أبدًا في المشاكل والنقاشات الدينية، ولكن جرجس شخص مستفز يأتي إلى المقهى في السادسة من كل يوم خميس، ويطلبني خصيصًا، لنلعب الطاولة. كان محترفًا، وكنت أحب أن ألعب معه وأهزمه، حتى تخفض نعرته الكذابة.

كان يصيح عندما يدخل المقهى: أين هو؟ هل ترك المكان عندما علم أني سوف أطيح به أرضًا؟ وبالرغم من أنني في كثير من الأحيان لم يكن لي رغبة في اللعب، إلا أن صياحه وحديثه يستفزني، فأخرج من مكتبي لمواجهته، وأثناء اللعب كان يحب أن يثرثر في أي شيء وكل شيء.

كان له واحد من تلك الأصوات ذات النبرة الباردة، ووجه متجعد كوجه كهل، بالرغم من أنه في مقتبل الأربعين. خلع قبعته، وأخذ يحدق في المكعبات، وهو يرصها.

صاحبت كلماته وقع رمي النرد على الخشب:

- ولكن ما أمر هذا الكيان الصهيوني الذي يتحدثون عنه كثيرًا هذه الأيام، ويروجون للانضمام إليه؟ إنهم يدعون لأشياء غريبة التبرع لزرع شجر في فلسطين، أشياء ساذجة من هذا القبيل.

ذلك الفم الملتوي الذي يمنحه وجه حيوان برمائي، كنت أريد أن أرشقه بأي شيء في يدي، ولكني حاولت أن أهدِّئ من روعي.

- ولماذا تجدها ساذجة؟!

- كيف يدعون لبناء وطن في فلسطين، وهي مأهولة بشعبها وأهلها؟ أَوَليست هذه سذاجة؟

كتمت رغبتي بأن ألكمه في وجهه، ولكن بالرغم من ذلك وضعت على وجهي قناعًا باردًا، وتذكرت أن إقناع الآخرين بهدوء بفكرة أن هذه الأرض هي أرضنا أهم مقومات بناء وطننا، لو اقتنع هو بالفكرة، فمؤكد سوف يقنع بها شخصًا آخر، وهذا الآخر يقنع بها آخر، وهكذا.

- أسس داود مدينة القدس كعاصمة المملكة حوالى سنة 1000 قبل الميلاد. كانت المدينة معروفة كمكان مقدس، وذلك قبل زمن إبراهيم؛ لأن فيها جدولًا مقدسًا ومعبدًا لإله يعرف بالعليون "الله العلي"، وكانت تعد عاصمة مثالية لمملكة داود الموحدة لأنها تقع خارج المناطق القبلية، وبالتالي فهي محايدة سياسيًّا، وفي موقع مركزي، وكانت تُعرف من قبل بالقداسة. شيد فيها داود قصرًا ملكيًا، إلا أن الله منعه أن يكون هو الباني للهيكل نظرًا لمكانته الحربية، وأعطى هذا الامتياز لابنه سليمان الذي شيد الهيكل الكبير في القدس، وتمثل هذه الفترة العصر الذهبي للمملكة لأن الفنون والأدب والاقتصاد ازدهرت كلها خلالها.

ترك اللعب، وأخذ ينصت إليّ باهتمام شديد، وهذا حمّسني لمواصلة حديثي:

- شيّد سليمان مدنًا جميلة وقوية، كما بنى حصونا في مناطق عديدة من الأرض، وكانت إسرائيل موحدة تحت نظام ديني وحكومة مركزية قوية، وكما هو الحال في البلدان الحديثة كان هناك توتر دائم ومنافسة بين الحكومة المركزية والمصالح الإقليمية.

نجح داوود وسليمان في مراقبة وإبعاد قوى التمزيق، لكن (رحبعام) ابن سليمان فشل في إبقاء المملكة موحدة، وفي النهاية تمردت القبائل الشمالية العشر، وكوّنت مملكتها المستقلة بعاصمتها في السامرة، ويعتبر هذا الحدث من أهم ما حدث في تاريخ المملكة، فهو يشكّل فترة التقسيم وذلك عندما انقسم الشعب الإسرائيلي لمدة مئتي سنة إلى إسرائيل مملكة الشمال، ويهودا مملكة الجنوب.

لم تمر فترة طويلة حتى دُمرت مملكة الشمال، وشُتتت القبائل في كل أنحاء الإمبراطورية الآشورية، ولم تستطع تلك القبائل المحافظة على هويتها الدينية والثقافية، وكانت النتيجة إبادة مملكة إسرائيل الشمالية، وتُعرف هذه القبائل "بالقبائل العشر المفقودة" التي لم يعد لها وجود.

أما قبيلتا يهودا وبنيامين اللتان بقيتا في المملكة الجنوبية لمدة مئة وخمسين سنة أخرى، فقد كانتا تعرفان مجتمعتين باسم اليهود؛ لأن القبيلة الكبيرة يهودا كانت هي المسيطرة إلى حد بعيد، وقد عمل هؤلاء اليهود في خلال هذه الفترة على غرس الديانة اليهودية وقيمها وأخلاقها في أعماق قلوب الناس. غزت بابل يهودا سنة 586 قبل الميلاد، ودمرت الهيكل، وسبت عددًا كبيرًا من سكانها إلى العاصمة البابلية، واستطاع اليهود أن يحافظوا على هويتهم الدينية والثقافية حتى وهم أقلية صغيرة في أرض أجنبية.

يسجل المزمور والسابع والثلاثون بعد المئة شعور اليهود المسبيين في بابل:

(على ضفاف أنهار بابل جلسنا، وبكينا عندما تذكرنا أورشليم

هناك علقنا أعوادنا على أشجار الصفصاف، هناك طلب منا

الذين سبونا أن نشدو بترنيمة، والذين عبَدونا أن نطربهم قائلين:

"أنشدوا لنا من ترانيم صهيون كيف نشدو بترنيمة الرب في

أرض غريبة؟ إن نسيتك يا أورشليم، فلتنسَ يميني مهارتها،

ليلتصق لساني بحنكي إن لم أذكرك ولم أفضلك على ذروة).

بعدها احتلت الإمبراطورية الرومانية يهودا، وكان القرن الذي سبق تدمير الهيكل الثاني عام 70 ميلادي أحد القرون الأكثر توترًا. أصبح حكام روما وولاتها أكثر قساوة وظلمًا حتى ثار اليهود سنة 66 تحت زعامة المتحمسين الذين يؤمنون بأن الله سيمدهم بعونه في حربهم ضد كفار الرومان، ويأتي "بآخر الزمان" المتوقع. لكن اليهود هُزموا، ومحا الإمبراطور الروماني مدينة القدس بأكملها سنة (135)، وغيّر الرومان اسم يهودا إلى اسم "فلسطين" المأخوذ من اسم الشعب القديم البائد المعروف بالفلسطينيين.

تبعثر اليهود في جميع أنحاء العالم في الشرق الأوسط، وفي الجزيرة العربية، وفي اليونان وإيطاليا وفرنسا وإسبانيا وألمانيا وبريطانيا.

انتظرت أن يعلق، أن يقول شيئًا، ولكنه لم يفعل.

- وبعد كل ذلك التاريخ أليس من حقنا العودة لنبني ونعمر وطننا؟!

أجاب باستهزاء، وكأن كل ما حكيته لا يسترعي قيد أنملة من اهتمامه:

- ولكن ما قلته هو تاريخ قديم غاية في القدم. ألا تعي حقًّا أن هناك الكثير من الأشياء تبدلت منذ ذلك التاريخ المتواري في الزمن؟ كما أنك تقول غيّر الرومان اسم يهودا إلى اسم فلسطين المأخوذ من اسم الشعب القديم، إذًا في الأساس هذه الأرض هي أرضهم وهم شعبها.

- الشعب البائد؟!

- كيف يكون الشعب بائدًا وهو يسكن هذه الأرض؟! الآن أنا لا أفهمك حقًّا! لو أننا جميعنا فكرنا بهذه الطريقة فالأقباط هم أساس شعب مصر، فلماذا لم نفكر أن نفعل مثلكم؟!

- أعتذر لو قلت لك ربما لأنكم أجبن من أن تفعلوا ذلك، أعتقد أن ذلك. حقكم، هذه أرضكم اغتصبها منكم العرب بالقوة.

- من الواضح أنك في حاجة لقراءة التاريخ وفهمه، العرب عندما فتحوا مصر خلصوا أقباطها من حكم الرومان القاسي، وأعتقد أنه ذكاء منّا ألّا نفعل ذلك، وليس جبنًا.

اعتمر قبعته مجددًا، وبدا مثل ضفدع يظهر رأسه ممددًا بلا حراك من تحت زنبقة ماء:

- اعذرني عزيزي، أني أخبرتك أن أحلامكم سراب، كلها سراب، وكل ما حكيته لي الآن خالٍ من أي واقع.

أخذ يقلب نظره يمينًا ويسارًا متشنجًا، ثم غادر، ولم يحدث أن رأيته مجددًا، وكان من الأفضل أن يفعل ذلك.

21
جمعية إخوان صهيون

وأنتم يا رفاق، هل رأيكم مثل رأي جرجس؟ هل تعتقدون مثله أنه تاريخ قديم توارى في دهاليز الزمن، وأن هناك الكثير من الأشياء تبدلت، ولا يحق لنا استعادة ما فقدناه أم تشاركونني الرأي؟! على أي حال احتفظوا بآرائكم لأنفسكم، لا لشيء، لا تفهموني خطأ، لا أقصد أن رأيكم لا يهمني، ولكن في الأول وفي الأخير نحن لن نلتقي، ولن نستطيع حتى المناقشة، ولن أستطيع إقناعكم، ولن تستطيعوا أنتم إقناعي، فأنتم في عالم وأنا في عالم آخر. أنا أحيا اللحظة، أعيشها، أدوّنها، بينما أنتم في زمن آخر يُسمى المستقبل، لم يحن دوركم بعد. يجب أن تكتمل دورة الزمن لأصبح وقتها أنا في الماضي، وأنتم في الحاضر.

حسنًا، دعونا نعود مرة أخرى إلى جمعية إخوان صهيون في الاجتماعات الخاصة بها. كنت أردد ما قلته لجرجس على الأعضاء الجدد، لأحمسهم أكثر، فهذه الأرض أرضهم، وعليهم استردادها. وكنت أعزز كلامي بسموم من الأفكار، أننا منبوذون، نعامل باحتقار، مواطنون من الدرجة الثالثة؛ ولأنهم مختلفون عن جرجس كليًا، فهم يقتنعون بكل ما أقوله لهم، وفي نهاية حديثي يقولون: آمين.

كنت أصيح فيهم قائلًا:

- لا تصدقوا أن هذا وطننا، لا تنخدعوا بدعوات رجال الدين للانتماء للأرض والتوحد مع المصريين. كلها دعوات كاذبة، الغرض منها التملق للملك وللحكومة؛ وذلك من أجل الحفاظ على مصالح أثرياء اليهود. إنما نحن ليست لنا أية قيمة. من يسكنون حارة اليهود ليس لهم ثمن، ليس لهم وزن. كنت أستمتع، وأنا أغرز في داخلهم بذور الغبن والكراهية، وكانوا يتشربون كل ما أقوله

بسهولة ويسر عدا فئة كانت مترددة بين ما يمليه عليهم أهلهم الخاضعون بأن كل شيء بخير، وبين ما ألقنه لهم. مهمتي مع هذه الفئة كانت أكثر صعوبة، فكان يجب أولا أن أزحزح هذا الاطمئنان، وذلك بإشعال فتيل الشك، وأجعلهم يشككون في كل ما يحيط بهم، وكنت أنجح في ذلك، كنت أنجح إلى حدّ أنهم كانوا يستطيعون تحطيم الثوابت الراسخة في عقول أهلهم، وفي الكثير من الأحيان كانوا هؤلاء ينضمون إلينا.

في غضون شهور قليلة فاق عددنا الألف، كنت أشرف بنفسي على المجموعات، وأوزع المتدربين على الأقسام المختلفة حسب ما أجد فيهم. أهم مجموعة بالنسبة إلينا كانت مجموعة (جمع الأموال)، وكان عملها هو الأصعب؛ لذلك كان عليّ أن أختار الأذكياء منهم الذين يستطيعون أن يجعلوا اليهودي يضع يده في جيبه، ويخرج المال، وهذا لم يكن بالأمر السهل طبعًا، ومؤكد أننا جميعنا نعلم ذلك. كنت أقسّمهم إلى فئات: من يذهب لجمع الأموال من المتاجر والدكاكين، ومن يذهب إلى الأهالي في المنازل، وهناك من يذهبون إلى المدارس والمشافي والشركات اليهودية.

المجموعة الأخرى كان لها دور مهم وفعّال أيضًا، يقوم أعضاؤها بإعطاء دروس تحث على استثارة الوعي، بتحفيز قضية الهوية لدى اليهود، كنت أختار من الأعضاء من يملك القدرة على الإقناع، ويجيد التحدث بلباقة، لإقناع مستمعينهم بالعودة إلى أرض الميعاد حيث ينتظرهم وطنهم ليبنوه ويعمروه.

ومع ازدياد عدد المتدربين الذين يطلبون الانضمام إلى الجمعية من مختلف محافظات مصر، قمنا بشراء قطعة أرض كبيرة على أطراف المدينة، وأقمنا فيها ورشًا متعددة، وألحقنا بها سكنًا خاصًا للمتدربين.

أنشأنا فيها مراكز للتدريب على الصيد والزراعة والأعمال الحرفية كالنجارة والسباكة والبناء، وفتحنا فصولًا لتعليم اللغة العبرية وآدابها يشرف عليها من يجيدون قواعدها. كان من المهم بالنسبة إلينا أن ننسلخ من الثقافة العربية التي فرضت علينا، أن نخلع عنا هذا الرداء الذي التصق بأجسادنا لقرون طويلة من دون أن يكون أبدًا على مقاسنا.

أما بالنسبة إلى النسوة اللواتي انضممن إلينا، وقد زاد عددهن بشكل لم نكن نتوقعه، فكان علينا أن نستفيد منهن، فقمنا بإنشاء مراكز خاصّة لهن. جعلنا المخضرمات والمحترفات منهن

يشرفن على تعليم الفتيات الصغيرات الخياطة، والغزل، والنسج، وفنون الطهي، وإدارة شؤون المنزل إدارة صحيحة لخلق جيل راقٍ ومميز، وكنا نجعلهن يعززن في عقول المتدربات مفاهيم عن الانتماء، والوطنية، والولاء. فعند إيمانهن بهذه الأفكار سيمنحنها إلى أطفالهن، وكل ذلك من أجل أجيال جديدة منتمية للوطن.

إن كان الرجال بسواعدهم القوية سيبنون، فالنساء بالتأكيد هن من سيعمرن. ونتيجة لهذا التوسع كانت حاجتنا إلى المال تزيد يومًا بعد آخر، فالأعضاء تركوا أعمالهم، وتفرغوا للتدريب، وكان يجب علينا منحهم المال لتشجيعهم من ناحية، ومن ناحية أخرى لسداد تكاليف معيشتهم. وهكذا كانت صناديق التبرعات تمتلئ بالأموال، وسرعان ما تفرغ لتمتلئ مجددًا، ولكن ما كانت تُملأ به لم يعد كافيًّا أبدًا.

22
النذير والفتح

في البداية كان مسموحًا لنا بممارسة نشاطنا، ثم بدأت الأمور تسوء، ولكننا منذ البداية كنا حريصين على أن تعمل جمعيتنا في السر بعيدًا عن المتلصِّصين. نمنحهم فقط ما يريدون أن يعرفوه، ونحتفظ بالأهم والأخطر لأنفسنا. نظهر لهم أننا مثل النوادي الصهيونية التي تنظم نشاطات علنية كتعليم اللغة العبرية، والموسيقى العبرية، والأغاني القديمة، وجماعة للكشافة، وفرق رياضية يهودية مختلفة.

انشطة مكشوفة، رياضة، قراءة، موسيقي أمور عادية لا تدعو للشك، ولا تحتاج منا الحيطة لإخفائها. فبالنسبة إليهم نحن نعزز أواصر يهوديتنا.

فتحنا باب طلب الهجرة، وطبعنا استمارات أطلقنا عليها (هيا لنبني ونعمر) يملؤها من يرغب في الرحيل. الكثيرون يريدون السفر، لكننا كنا محكومين بعدد معين، فكان علينا مراجعة هذه الاستمارات جيدًا ودراستها، وفي المقام الأول يقع اختيارنا على الشباب الطموحين الأقوياء الذين يستطيعون العطاء والصمود، كما نختار أيضًا عددًا من كبار السن ممن يملكون خبرة في مجالات معينة.

أثار هذا الموضوع قلق بعض أهالي الأعضاء، فوصلني تلغراف من ليون كاسترو، وهو ممثل الوكالة اليهودية بفلسطين في القاهرة، يطلب فيه رؤيتي فورًا. استقبلني في مكتبه بابتسامة ليس لها معنى محدد، واحدة من تلك الابتسامات التي توضع على الوجه لإثارة بهجة ما، وفي الغالب لا تثير أي شيء.

قام من مقعده، أخذ يتجول في أرجاء المكتب، كان ممشوق القوام، متأنقًا في بذلة كحلية اللون من الصوف الإنجليزي، اقترب مني، وربت على كتفي قائلًا:

- أحييك على جهودك الممتازة وتفانيك في خدمة الصهيونية.

كان وجهه أحمر، وعيناه تحدقان إليّ.

- عفوًا، هذا واجبي.

ذهب إلى النافذة يتطلع منها إلى الحديقة الخلفية للمبنى، يحدثني، وهو مخلف لي ظهره:

- مؤكد أنك تعلم أن الأمور الآن يكتنفها كثير من العواقب. اختلف الأمر عما كان عليه؛ لذلك يجب أن نكون حذرين، ولا داعي للتهوّر، من الواضح أن تزايد عدد المهاجرين أثار قلق الأسر اليهودية، وخاصة أن بينهم أعدادًا كبيرة من الفتيات.

لقد وصلتني رسالة من رينيه قطاوي، رسالة حادة اللهجة، تنتقد بشدة عملية التهجير. أهالي الشباب قاموا بتقديم شكوى إلى الحاخام، ولأن الأمور متوترة بيننا، فقد ذهب إلى رجل الأعمال الشهير رينيه قطاوي ليطلب منه أن يتدخل في هذا الأمر، وطبعًا لعلمه بأنه واحد من أكثر المتبرعين للوكالة.

كنت في فورة غضبي، أخذت أحدق إلى طرف حذائي، وذلك حتى لا أتفوّه بغليظ القول.

- ولكن، ما الذي تقصده بـ "لا داعي للتهور؟!". نحن لا نغصب أحدًا بالانضمام إلينا أو بالهجرة إلى إسرائيل. إنهم يفعلون ذلك بكامل رغبتهم، بالإضافة إلى أننا نختار المميزين منهم فقط للهجرة، طلبات الهجرة لا حد لها، فما بالك لو وافقنا عليها كلها. لا أستطيع أن أفهم هؤلاء اليهود، ما الذي يريدونه تحديدًا؟! من الواضح أنهم استحلوا الإهانة والعيش في شتات وذل.

لم يكن هناك ما يقوله لي، من الواضح أنه كانت هناك ضغوط كبيرة عليه.

تركته، وغادرت. كنت أقطع الطرقات والشوارع، ويتملكني شعور بالغيظ نادمًا على هدر العمر في سبيل هؤلاء الأنذال.

مؤكد أنكم تتساءلون الآن: كيف أطلق على بني جلدتي صفة "أنذال" ألست واحدًا منهم!؟ وكل ما صنعته كان من أجل أن يكون لنا وطن واحد يجمعنا، ويلملم شتاتنا! نعم، هذا صحيح، لكن لا ينفي أن هناك منا أنذالًا، وإلا فبماذا تفسرون بعد كل ما نصنعه من أجلهم أن يرفعوا شكوى ضدنا؟!

على أي حال، كانت هذه المرحلة هي الأصعب، حيث بدأت الأمور تزداد تعقيدًا من جميع النواحي. في عام 1939 فتحت بعض الصحف النار على اليهود والصهيونية. بدأ عدد من الصحفيين الكبار في شن حملات ضدهما، خاصة الجرائد التي كان يصدرها حزب الإخوان المسلمين، وحزب مصر الفتاة الذي يرأسه شخص يدعى أحمد حسين؛ كان جريئًا، لا يخشى شيئًا، ويكره كل ما يمت لليهود بصلة، أخذ يكتب مقالات تحرض علينا، وكشف فيها الكثير من أسرار المخطط الصهيوني الذي كان الكثير من المصريين يجهلون ماهيته حتى ذلك الحين، بالنسبة إليهم كانت الصهيونية لتعزيز أواصر اليهودية وليس أكثر، ومن جهة أخرى أخذ حزب الإخوان المسلمين في محاربة الصهيونية، وتخصصت صحيفتا (النذير والفتح) التابعتان له في مهاجمة الطائفة اليهودية كلها، ووصل الأمر إلى أنهم طالبوا الشخصيات اليهودية التي لها شأن في التجارة والأعمال أن يعلنوا على الملأ أنهم ضد الصهيونية.

هذه المقالات أدت لاندلاع نيران ضد اليهود والصهيونية في كل مكان، ومنها دعوة الصحف لعدم الشراء من اليهود، ومقاطعة بضائعهم وتجارتهم.

وأمام هذا الضغط أوقف الكثيرون من أثرياء اليهود وفقرائهم أيضًا التبرعات التي كانوا يدفعونها لقيام دولة إسرائيل، هم الأنانيون في المقام الأول. هل تستغربون بعد ذلك بأني أنعتهم بالأنذال؟! فإذا لم تكن هذه هي النذالة بعينها، فماذا باستطاعتنا أن نسميها؟ لقد أوقفوا التبرعات التي سيحصلون بها على وطن لنا، وذلك لمصالحهم الخاصة.

الأدهى من ذلك أن يهود مصر من (القرائيين) تلك الطائفة التائهة التي ليس لها ملامح، ولا تستطيع أن تحدد لها مواقف واضحة، قدمت عريضة تعادي فيها وترفض الجمعيات الصهيونية، وتطالب جميع اليهود بمختلف طوائفهم بعدم التبرع لهذه الجمعيات، والكارثة أن هذه العريضة حصلت على توقيعات كثيرة جدًا، إذًا يا سادة، ليس المصريون هم من يعادوننا، بل اليهود أنفسهم!

تأثرت الحركة بهذه الأحداث، وأدت إلى نشوب حرب حقيقية في أموال التبرعات، وكان الأسوأ ما حدث في خريف 1940 عندما فتحت الحكومة المصرية النار على الإيطاليين المقيمين في مصر، وبدأت في التحري عنهم، والبحث وراءهم، ومراقبة البعض منهم، وجمع التقارير عن حياتهم، تقارير من النوع الذي يشمل كل شيء، ماذا يعملون، وبماذا يخططون، وبماذا يفكرون!؟ والأهم من ذلك كله مدى ولائهم لنظام الحكم!

وأمام هذا التضييق الخانق عليهم، ومع توالي الاستدعاءات للتحقيق معهم في أمور ساذجة، وفي الكثير من الأوقات كانت ملفقة، شعروا أن هناك شيئًا ما يدبر لهم، وداهمهم شعور بالخطر على أنفسهم وأعمالهم، فقرر عدد كبير منهم العودة إلى بلادهم أو السفر إلى بلاد أخرى، ومع هذه المشاعر المربكة التي يكتنفها غموض من مستقبل مبهم قلت نسبة تبرعاتهم بشكل كبير، وتسبب لنا ذلك بخسارة كبيرة، فيهود الجالية الإيطالية كانوا عماد جمعيتنا والجمعيات الصهيونية الأخرى، فهم يشكلون أكثر نسبة من المتبرعين، ويضخون كثيرًا من الأموال، كونهم أكثر ثراء، واشد حماسًا لفكرة الصهيونية.

23

أصفهان نصف العالم

- سيدتي، هل تقبلين دعوتي لك على العشاء؟

- غريب أنت حقًّا! أنا لا أعرف حتى اسمك.

- اسمي أديب، ويمكنك أن تقولي إنني من كل الأمكنة، ولكنني ولدت في أصفهان، وأعمل باحثًا في العلاقات العربية الفارسية.

- فهمت الآن لماذا تتحدث بالفصحى؟

- هل يضايقك هذا؟ على أي حال يمكننا أن نتحدث بالإنجليزية، بالفرنسية، بالأسبانية، التركية، والهندية، أية لغة تجيدين؟

- وهل تجيد أنت كل تلك اللغات؟

- نعم.

- غريبة لماذا على أحدهم أن يجيد كل هذه اللغات؟

- طبيعة عملي باحثًا في العلاقات الدولية تجبرني على ذلك، كما أخبرتك فأنا عشت في كل مكان في العالم.

هزت رأسها دون أن تضيف شيئًا.

- ولكن لم تمنحيني شرف معرفة اسمك؟

- مانوليا.

انتظرت منه أن يعلق أن يقول شيئًا، حتى أن تظهر على وجهه أمارات الدهشة مثلما يحدث دائمًا عندما تخبر أحدًا باسمها، ولكن لم يعلق، فحدّثت نفسها: ومن أين لهذا الإيراني بمعرفة أنه اسم غريب وغير شائع في بلدها؟

- أخبريني إذًا، لماذا تختارين مقطوعات حزينة؟ هل ترين الدنيا بمثل هذا السواد؟

من دون أن ترفع نظرها إليه:

- ربما هي أكثر سوادًا مما أتصور، توفي زوجي منذ أشهر قليلة.

- إنه لخبر محزن حقًّا، خالص التعازي.

نظرت إلى ساعة يدها:

- إنها التاسعة عليّ الذهاب.

- سأنتظرك.

طوال فترة عزفها كانت (سأنتظرك) ترن في أذنها، لم تفكر في دعوته إلى العشاء، كانت تفكر لماذا عليه أن ينتظرها؟!

لم تكن أبدًا في أحسن حالاتها، خفت بريقها، وصارت شاحبة وكأنها جسد بلا روح.

- أتعلمين أنه بين الفن والحب، وبين المضطهِدين والمضطهَدين ثمة تفاعل دائمًا.

ألقى عليها هذه العبارة التي استغربتها، وهما متقابلان على طاولة تشغل إحدى زوايا المطعم الآسيوي بالدور العاشر في الفندق.

- تقصد من بالمضطهَدين؟

- نحن. اضطهدتنا الحياة، انظري إلى نفسك، لقد أصبحت أرملة، وأنت ما زلت امرأة شابة وجميلة، خطف منك الموت الرجل الذي أحببته، وخطّطتِ لتعيشي معه العمر كله.

- وماذا عنك في الواقع لا أشعر أنك مضطهد؟

- عندما تتعرفين عليّ أكثر ستتأكدين من ذلك!

صمت لحظة وأضاف:

- مانوليا.. إنه اسم لزهرة جميلة تشبهك.

- هل لك باع في الزهور أيضًا؟

- في البداية عندما أخبرتني باسمك، فكّرت بأنه ربما كان اسم الدلال الذي يطلقه عليك الأهل والأصدقاء، ثم استبعدت هذه الفكرة، لأنك لست من هذا النوع من النساء الذي يخبر الغرباء باسم دلاله.

أشعل سيجارة وأضاف:

ليس لي باع في الزهور، ولكني أعلم أن هناك شجرة اسمها (مانوليا ستيلايتا) بالعربية تعني نجمة المانوليا، لأن زهرتها تشبه النجمة، تزهر في الربيع، وهي ذات رائحة فواحة وجميلة، لدرجة أن يستخرج منها العطر. أوراقها لامعة، ويحظر لمسها، لأن لونها يتبدل إلى الأسود في موضع اللمس.

- بعد كل هذه المعلومات وليس لك باع في الزهور.

- مصادفة، لأن هذه الزهرة هي زهرة أمي المفضلة.

قالها بشيء من التأثر:

- غريبة.

- ما الغريب في ذلك؟!

- لأنها أيضًا كانت زهرة أمي المفضلة، لذلك أطلقت هذا الاسم عليّ، لكن هذه المرة الأولى أعلم أن لونها يتبدل إلى الأسود موضع اللمس.

ابتسم:

- هذه هي الحقيقة.

قدّم النادل قائمة الطعام وعرفهما بنفسه، وهو يقوم بإنارة الشمعة:

- سأكون في خدمتكما الليلة. هل تحتاجان إلى مساعدة؟ يمكنني أن أشرح لكما أنواع الطعام.

اعتذر له بلياقة:

- شكرًا، لو احتجنا مساعدة، فسوف نطلبك بكل تأكيد.

ألقت نظرة سريعة إلى قائمة الطعام، ثم تركتها، كانت أصناف الطعام غريبة بالنسبة إليها.

- دعيني أختر لك طبقًا إيرانيًا لذيذًا.

رفع يده للنادل:

- سنأخذ طبقين (ماهيجا)، وخبز شنيبت.

- وأنت ماذا تعملين؟

- أعمل في الإدارة المركزية للآثار اليهودية.

- حقًّا! وهل مصر تهتم بالآثار اليهودية لإنشاء إدارة مركزية لها؟

- نعم، قانون حماية الآثار لا يفرق بين آثار إسلامية وقبطية ويهودية. أتمنى ألّا تكون من هؤلاء الذين يطالبون بهدم الآثار اليهودية.

- ألا ترين أنها تستحق أن تهدم بعد ما فعله الإسرائيليون مع الفلسطينيين؟!

- ها قد قلتها (الإسرائيليون)! ما أتحدث عنه هو الآثار اليهودية التي أقامها يهود مصر قبل قيام دولة إسرائيل.

- أليس اليهود هم الذين أنشؤوا دولة إسرائيل؟

- تقصد اغتصاب أرض غيرهم.

- أتعلمين لماذا يميز العلم الإسرائيلي من الأعلى والأسفل خطان أزرقان متوازيان؟

- لا.

- هذان الخطان يشيران إلى حلم الدولة الكبرى الممتد بين نهري النيل في مصر والفرات في العراق، وحتى هذه اللحظة ترفض إسرائيل وبشكل قاطع ترسيم حدودها، وأن تضع أية خريطة واضحة ورسمية لموقعها الجغرافي مع الدول المجاورة؛ لأن ذلك يتنافى مع حلمها الكبير.

- دعهم يحلمون.

- ولكنهم يحققون ما يحلمون به، كان جمع شتات اليهود على أرض واحدة لا يعدو كونه حلمًا منذ مئة عام، والآن أصبح حقيقة. أجريت أبحاثًا مطولة عن اليهود ودورهم في المجتمعات الإسلامية التي عاشوا فيها، ووجدت كيف كانوا يخططون منذ الأزل لإقامة دولتهم.

- فهمت الآن سبب تحمسك في الحديث عن هذا الأمر. مصادفة غريبة حقًّا.

- إنها ليست مصادفة، ليس هناك شيء يبدأ هكذا على ذلك النحو في تاريخ معين، وفي مكان معين، بل يبدأ الأمر في أماكن متعددة، وفي أوقات وعقول مختلفة.

لم تفهم ما الذي يعنيه تحديدًا، ولكنها لم تسأله، اكتفت بالابتسام.

جاء النادل بالأطباق التي كانت تفوح منها رائحة شهية.

- ما الذي تفعلينه في حياتك بخلاف العمل وعزف الموسيقى.

- أهتم بابنتي.

- وماذا أيضًا؟

- وماذا أيضًا؟ هل تمزح أحتاج أن يكون اليوم 48 ساعة حتى أستطيع القيام بهذه الالتزامات.

- نملك دائمًا الوقت لفعل الأشياء التي نحبها ونريد القيام بها.

- تقصد نخلق الوقت.

- نعم.

- لست شغوفة بشيء لأخلق الوقت له.

انتظر حتى تذوقت طعامها، ثم أخذ يحكي لها مكونات الطبق وطريقة صنعه بدقة، كما لو أنه هو من طبخه أو ساعد الطباخ في ذلك.

- إنها وجبة أصفهانية شهيرة.

- أصفهان، حدثني عنها لطالما تمنيت زيارتها هي وشيراز، هذه المدن التي لها أسماء ساحرة.

رطن بلغة لم تفهمها:

- هذا مثل فارسي معناه (أصفهان نصف العالم)، إنها مدينة ساحرة مهما أخبرتك عنها، لن أوفيها حقها، يجب أن تزوريها.

مع أنه لم يتحدث كثيرًا عن نفسه، إلا أنه يحكي عن بلده بتلقائية ككتاب مفتوح. يحكي عن أصقاع بعيدة عنها. يتحدث عن جبال، عن هضاب تقطعها أنهار ووديان، تخترقها شلالات. يحكي لها عن لون أشجار قرمزي، عن زنبق، عن ياسمين ممتد عبر البصر.

- سيفوتك الكثير لو لم تزوريها.

- كنا نخطط أن وزوجي للقيام برحلة حول العالم، وضعنا فيها قائمة بالبلاد والمدن التي سوف نزورها، أعتقد أن إيران كانت واحدة منها، ولكن الموت أفسد مخططنا.

- كيف كانت علاقتكما؟

فاجأها السؤال: (كيف كانت علاقتكما؟ أخذت تردده في عقلها كيف كانت؟ هل كانا سعيدين، وعلى قدر كبير من التفاهم؟).

تأخر ردها، فهزّ رأسه بما يفيد ماذا؟

- كانت علاقة قوية.

اكتفت بهذا الردّ، لأنه الأنسب، مرا خلال فترة زواجهما بظروف وأحداث وتقلبات كثيرة، ولولا قوة علاقتهما وإيمانهما بالرابط الذي ربط بينهما، كانا انفصلا منذ الشهر الثاني من زواجهما، كان عصبيًا ونزق المزاج، وهي أيضًا سريعة الغضب.

- نشأ وليد في أسرة، على الرجل فيها تحمل مسؤولية الحياة من الجوانب كافّة، وفي ذلك كان راحة لي، لأنه كان عليه تلبية كلّ احتياجاتنا، وتحمل المسؤولية كاملة، ولكن في نظير ذلك كان يؤمن بمفهوم تفوق (الرجولة) وإعلائها، وربما كان ذلك دائمًا هو محور مشاكلنا، كثيرًا ما كان يردد (أنا الرجل - أنا من يُسمع كلامه ويُنفذ - أنا من أقرر)، وذلك كان يولد بداخلي كثيرًا من الغيظ، هذه النقطة بالذات كانت محور مشاكلنا.

ابتلعت الماء، ثم أضافت:

- على أي حال أفتقده كثيرًا، وأفتقد هذه الأيام بحلوها ومرها.

- نعم، يمكنني أن أتفهم شعور الفقد، لقد جربته.

- هل توفيت زوجتك؟!

- هجرتني من أخلصت في حبها.

ردت باستخفاف:

- عذرًا، الفقد بالموت شيء، والهجران والفراق شيء مختلف تمامًا.

- على العكس إن الأكثر ألمًا أنك تجدين من تحبينه يبتعد عنك بمحض رغبته، ويمارس حياته بكامل تفاصيلها، وكأنك لم تمثلي له شيئًا على الإطلاق، على الأقل لو مات فهناك عذر لغيابه وابتعاده.

تأثرت ملامح وجهه، وهو يتحدث.

تساءلت كيف بإمكان امرأة أن تهجر رجلًا مثله يحبها كثيرًا ويملك هذا القدر من الوسامة والعلم والثقافة؟!

- ولماذا فعلت ذلك؟

- لا أدري!

لاحظ علامات الدهشة على وجهها:

- حقًّا، لا أدري!

- ألم تسألها، تناقشها، تعاتبها؟!

- أخبرتني أنها تحتاج أن نبتعد لبعض الوقت. وقتها كانت علاقتنا في أوجها، ولكني لم أسألها، أعرف أن النساء متقلبات المزاج، لذلك لم أشأ أن أضايقها. كنت أعتقد أن بعض الوقت هذا لن يتعدى عدة أيام بالكثير، ولكن عندما طالت المدة، اتصلت بها لأفهم ما الذي يحدث، فصدمتني بأنها لا تريد الاستمرار في العلاقة. لم أسألها لماذا أو أناقشها، أغلقت الهاتف وانتهى الأمر عند ذلك.

- هل كانت تحبك؟

- كانت تقولها، وكنت أصدقها، ولكن بعد ما حدث شككت في ذلك. على أي حال قررت أن أزيح أفكاري السلبية والشكوك والتكهنات. ما انتهى قد انتهى، الالتفات للوراء يورثنا نوبات التحسر، كما التعلق بالمستقبل يفضي بنا إلى العيش في عالم من الأوهام، لذلك أهم شيء هي اللحظة الراهنة.

- (لكن الحياة تفرق بين المحبين.. الأغنية التي غنّتها لي

هي أغنية تشبهنا... لقد عشنا معا كلانا

أنتِ التي أحببتني... وأنا الذي أحببتك

لكن الحياة تفرق الذين يحبون... بكل لطف بدون أي ضجيج

ويمحو البحر عن الرمال... خطوات العشاق الذين مضوا كلٌّ في سبيله).

بصوت خافت أقل نبرة عن المعتاد، وهي شاردة في المدى البعيد كانت تلقي على مسامعه هذه الأبيات الشعرية وبعد أن انتهت:

- إنه مقطع من قصيدة للشاعر الفرنسي جاك بريفير.
- هذه المرة الأولى التي أسمع عنه.
- إنه شاعر فرنسي، أعماله لها طابع خاص.
- هل تحبين الأدب الفرنسي؟
- جدًّا.
- لقد قرأت البحث عن الزمن المفقود عندما كان عمري عشر سنوات و...

أخذهما الحديث ولم تشعر بالوقت معه، ثم فجأة كانقطاع كهرباء في حفل راقص، شعور بالذنب مسها، ذنب خيانة ذكرى زوجها، تبدلت ملامحها وأوحى له صوتها، كأنها تلقت خبر صادم وهي تخبره:

- عذرًا، عليّ الذهاب.

في طريق العودة، كانت تفكر لماذا تشعر بالذنب؟! كل ما فعلته الثرثرة وتناول الطعام أم هو ذلك الشعور بالسعادة الخاطفة الذي انتابها. هل نستطيع أن نلوم أنفسنا على الشعور بالسعادة؟ وهل يجب أن نعيش في حزن مستدام. هذه الأفكار اللحوحة ظلت تطاردها.

حاولت أن تستمع إلى بعض من الموسيقى، كان تمام منتصف الليل موعد برنامج (موسيقى الليل) الذي يبث يوميًا منذ أكثر من عشرين عامًا لم يخلف يومًا موعده، ارتبط هذا البرنامج معها بلياليها المؤرقة. مقدمة موسيقية للحن مفعم بعذوبة، ثم صوت المذيع الهادئ يتناوب معه مذيع آخر يملك نفس نبرة الصوت: (تستمعون الآن إلى برنامج موسيقى الليل) بين المقطوعة والأخرى يلقي مذيع معلومات.. اقتباسات.. أبيات شعرية..

بنبرة هادئة وبخلفية لموسيقى خافتة (يقول العلم إنه لا وجود للحب من النظرة الأولى، إنها مجرد ظاهرة بيولوجية، تتلقى أدمغتنا معلومات تتعلق برفيق الطاولة، صوته، لون عينيه، إيحاءاته.. إيماءاته، ثم بعدها يحلل الدماغ هذه المعلومات ويعالجها كما يفعل الحاسوب تمامًا، بعدها يتم إفراز هرمونات وناقلات عصبية؛ وهذا هو مبعث شعورنا بالانتشاء.

يرتبط بعدها هذا الشعور مع نفس الشخص، لذلك نحب هذه الحالة التي يضعنا فيها، نشتاق دائمًا لرؤيته وسماع صوته لنجلب لأنفسنا شعور الانتشاء ذاته، وهذا هو تحديدًا السبب الذي يجعلنا نتعلق بشخص دون آخر)

توالت بعدها المقطوعات الموسيقية على البيانو لمدة نصف ساعة، كانت كافية لتهدئة روعها، ثم بعدها صوت المذيع كترنيمة تهدهدها (أعزائي المستمعين كنتم تستمعون إلى موسيقى الليل.. إلى اللقاء في الغد...).

في تلك اللحظة صار استطاعتها أن تغلق الراديو وتنام.

24
العرافة والعطور الساحرة

تناولت فطورها سريعًا؛ قهوة ممزوجة بالحليب مع قطعة من التوست مدهونة بالمربى

(مرحبًا بكم في صباح الخير يا قاهرة، إنها الثامنة، أثمة كسالى ما زالوا في الفراش حتى هذه الساعة؟ لا أصدق ذلك، ولا سيما أن الشمس أشرقت مجددًا على المدينة، ابقوا معنا على هذه المحطة محطة من يستيقظون باكرًا).

أنقذتها المكالمة التي تلقتها من مواصلة الاستماع لهذا المذيع الثرثار، فأغلقت الراديو لتجيب. كانت صديقتها نيرمين تدعوها إلى حفل في دار الأوبرا لعازفها المفضل عمر خيرت.

- اشترى عمرو تذكرتين لنا، ولكنه ارتبط بعمل مهم، فكما تعلمين ظروف عمله لا يستطيع التحكم فيها، لذلك فكرت بك على الفور لعلمي بمدى ولعك به.

- ولكن ألا يعتبر حضور حفل في هذه الظروف التي أمر بها شيئًا غير لائق؟!

أي تساؤل غبي هذا؟! فما الذي تفعله إذًا في أمسيات الجمعة والسبت في بهو الفندق؟! مؤكد، ليس هناك مجال للخلط بينهما، فما تفعله هو عمل، عمل فقط، وليس أكثر من ذلك. هي تعزف بآلية موظف يؤدي عمله في السجل العقاري أو مصلحة الأحوال المدنية.

أخرجها صوت صديقتها من تفكيرها:

- أعتقد أنه مر وقت كافٍ. يجب عليك أن تخرجي من هذه الشرنقة، تسافرين، تلتقين بأشخاص، تؤسسين لنفسك حياة جديدة.

لم تستغرب من حديث صديقتها، فقد كانت من هؤلاء الذين لا يضيعون وقتهم أبدًا.

كانت ستبشرها بأنها قد بدأت تخرج من الشرنقة، والتقت برجل ليلة أمس، ولكن شيئًا ما ربط لسانها. هل لأنه كان مجرد موعد عابر أم لشعورها بالذنب من خيانتها لذكرى زوجها وقبولها دعوة عشاء من رجل لا تعرف عنه شيئًا سوى أنه يتحدث الفصحى وبعينين سوداوين جذابتين وابتسامة مغرية.

أفاقت من أفكارها على ضحكة صديقتها على حديث لم تسمع منه حرفًا واحدًا، لأنها كانت ساهية في عالمها:

- حسنًا، اتفقنا في الثامنة غدًا مساء.

للمرة الأولى منذ حادث الوفاة، تتوقف أمام خزانة ثيابها لتختار ما سوف ترتديه. فمنذ رحيله وهي ترتدي أول ما تطاله يدها. كسرت قتامة اللون الأسود للفستان بإيشارب حريري بلون السماء لفته حول رقبتها ومع القليل من أدوات التجميل منحت وجهها بعضًا من الحيوية التي افتقدتها.

ودعت ابنتها بقبلة، وهي تهم بفتح الباب رن الجرس، كانت هند عمة ابنتها، المرأة الأكثر تسلطًا وتدخلًا في حياة الآخرين.

- من الواضح أنك في طريقك للخروج.

قالتها، وهي تتأملها من رأسها إلى أخمص قدمها:

- نعم.

- كنت قريبة من هنا، ففكرت بالمرور للاطمئنان عنكما.. كيف أنتما؟

- بخير.

- واضح. أليس من الغريب أنك تلفين حول عنقك إيشاربًا بألوان زاهية.

- الحداد في القلب، وليس في ما نرتديه.

- ولكن ما في قلوبنا ينعكس على هيئتنا.

نظرت إلى ساعتها:

- عذرًا، عليّ الذهاب. يمكنك قضاء الأمسية مع ابنة أخيك، فهي في شوق لعمتها، التي لم ترها منذ رحيل أبيها إلا مرة واحدة.

أخرستها كلماتها، مدت لها طرف أصابعها لوداعها وغادرت.

كانت آخر شخص تريد رؤيته، وهي في طريقها لسماع عازفها المفضل، اسمها وحده كافٍ لتعكير مزاجها. لكن غيظًا فيها لن تجعلها تنجح بكلماتها السامة في تعكير أمسيتها. شغلت أسطوانة (العرافة والعطور الساحرة) هي بطاقة تعارفها على الموسيقار عمر خيرت، وهي نفسها التي جعلتها تقرر عزف البيانو.

كانت لا تزال طفلة بجديلتين عندما استمعت إليها للمرة الأولى، والدها كان محبًّا للموسيقى بجميع أنواعها، وفي مساء ذلك اليوم اختار شريط كاسيت من ضمن عدة أشرطة كان اشتراها من متجر بيع الأشرطة الموسيقية، وقام بتشغيله أثناء تناولهم العشاء لتنساب الموسيقى عذبة وهادئة في أرجاء البيت. تسمرت الملعقة في يدها، وهامت مع ألحانه، وجلست بجانب جهاز الكاسيت، ما إن يفرغ الشريط حتى تعيد تشغيله مرة أخرى، ثم ذهبت إلى أبيها لتخبره أنها تريد أن تتعلم عزف البيانو.

إنها نفس الحالة التي هي فيها الآن، وفي كل مرة تستمع فيها إلى موسيقاه، لم يتغير شيء بالرغم من مرور كل هذه السنوات. انسجامها مع الموسيقى في السيارة جعلها لا تنتبه لرنين هاتفها إلا في اللحظة الأخيرة التي يئس فيها المتصل وأغلق الخط، كان رقم نيرمين، فلم تجد داعيًا لمعاودة الاتصال بها، هي تصف سيارتها، ودقائق وتكون معها.

أقبلت عليها صديقتها وضمتها في حضن عميق، ثم رجعت خطوتين إلى الخلف، وأخذت تتأملها بعيون معجبة.

- تبدين رائعة، بدأتِ تستعيدين هيئتك مجددًا.

ثم تحولت ملامحها من الدهشة للأسف الشديد، وهي تقول:

- لقد حاولت الاتصال بك عدة مرات لأخبرك أن عمرًا.

هنا ظهر عمرو من خلفها، اقترب من زوجته مطوقًا خصرها.

- كيف حالك مانوليا؟ أتمنى أن تكوني تجاوزت محنتك.

وقتها فهمت كل شيء.

- أعتذر لك بشدة، لقد نجح عمرو في تأجيل موعده في اللحظة الأخيرة، وفاجأني هنا واتصلت بك عدة مرات و...

لمست على يدها لتعافيها من هذا الحرج.

- عزيزتي، لا داعي لكل ذلك، لم يحدث شيء، أنا سعيدة أنه سيشاركك الحفل.

هنا نطق عمرو شارحًا:

- لقد حاولت بشتى الطرق أن أحصل لك على تذكرة، ربما أحدهم اعتذر، ولكن كما تعلمين تذاكر حفلات عمر خيرت مباعة قبلها بعدة أشهر، ومن لا يستطيع الحضور يقدمها بدوره لقريبه أو صديقه.

- لا تشغلا بالكما فلم يحدث شيء، لا داعي لكل ذلك، فقط استمتعا.

نظرا إليها، ثم نظرا إلى بعضهما وابتسما، وكأن حملًا ثقيلًا قد انزاح. والآن عليهما الذهاب والاستماع لعازفها المفضل بينما كان عليها هي أن تغادر.

أخذت تتبعهما بنظرها، وهما يبتعدان، يلف ذراعه حول خصرها بينما تحدثه وتضحك. لوهلة تمنت أن تكون برفقة زوجها، زوجها الذي توفي فجأة. زوجها الذي خطفه منها القدر لتبقى وحيدة وبائسة، وقتها فقط تيقنت من صدق كلام أديب الذي سخرت منه عندما أخبرها أن القدر قد اضطهدها.

للمرة الأولى تشعر بهذه المشاعر، مشاعر غريبة عليها. لم يسبق لها أن نظرت إلى حبيبين أو زوجين، وتمنت أن تكون مكانهما، لم تشعر يومًا بأنها في حاجة إلى ذلك أو الحرمان منه. تعرفت إلى زوجها وهي طالبة جامعية، وتمت خطبتها وهي في الصف الثالث الجامعي، وتزوجت فور تخرجها. ومن يومها وهو يشاركها كل شيء كان معها في ذهابها ومجيئها، لم تشعر أبدًا بالوحدة.

وقتها فقط شعرت بمدى معاناة النساء الوحيدات في هذا العالم، شعرت بمدى احتياجاتهن لمن يشاركهن حياتهن ويكون رفيقًا لأيامهن.

وهي تعبر الطريق لنهر النيل للتريض على ضفافه، تساءلت كيف ذهب من بالها أن شيئًا تعسًا سوف يحدث؟! كان يكفي أن ترى وجه هذه المرأة وهي في طريقها للذهاب.

25
مدينة الأرامل البيضاء

نسمة هواء باردة، وضعت الشال على كتفها، وجلست تتأمل العابرين. منهم من يخطو مهرولًا باتجاه قدره وكأن شيئًا شديد الأهمية ينتظره على الجانب الآخر من الحياة، ومنهم يمضي شاردًا وزاهدًا في العالم من حوله. تمنت لو تستطيع أن تخبرهم بأن الحياة عابرة وخادعة، لا يؤتمن لها، فاحذروا أن تلفكم معها في دوامتها.

رنّ هاتفها برقم غير مسجل، تعرفت إلى صاحبه بمجرد أن نطق بـ (مساء الخير).

لم يمنحها الفرصة، واصل قائلًا:

- طمئنيني عليك، علمت أنك اعتذرت الليلة، فهل هناك شيء ما؟

لم تجب على أي من الأسئلة التي ظل يلاحقها بها:

- من أين حصلت على رقمي؟

- حسنًا، إن كان هذا ما يعنيك، أخذته من إدارة الفندق.

استغربت كيف بإمكان إدارة الفندق أن تمنح رقمها لأي شخص.

- لقد أعطوه لي لأني نزيل معروف عندهم، وأخبرتهم أني أريد الاطمئنان عليك، وأن هناك صداقة تجمعنا.

- وماذا أيضًا؟ هل هناك شيء آخر لم تخبرهم به؟

- أعتذر إن كنت سببت لك الضيق.

انتبهت أنها حدثته بلهجة مهاجمة:

- أبدًا، أنا التي يجب أن تعتذر على هذه الطريقة التي حدثتك بها، ولكن أمسيتي كان سيئة بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

- هل يمكنني أن أسألك ما الذي حدث؟

أخبرته بكل شيء كمن يريد أن يتخلص من حمل ثقيل أو يشاركه مع أحد.

- والآن أنت تجلسين في مواجهة نهر النيل؟

- نعم.

- حسنًا، يمكنك أن تستمتعي بوقتك، فأنت في أجمل مكان.. إلى اللقاء.

قالها وأغلق الخط. ظل الهاتف معلقًا على أذنها، استغربت من طريقة إنهائه للمكالمة.

- آخر شيء ينقصني هو هؤلاء المجانين.

وضعت سماعات الهاتف في أذنها وأدارت مقطوعة (خلي بالك من عقلك) لعمر خيرت، كانت أكثر شيء يلائم حالتها.

أغمضت عينيها، واستسلمت لأنامل الموسيقار الذهبية وهي تعبرها. تبدأ المقطوعة هادئة، ثم تعلو وتصخب، وسرعان ما تستعيد الهدوء مجددًا.

شعرت بأحد يجلس بجوارها، وفاحت رائحة عطر رجولي، عطر تعرفه تمامًا، في ذات الثانية التي كانت تخلع فيها السماعة من أذنها كانت تفتح عينيها وتدير رأسها لتجده بجوارها. ظهرت على ملامحها علامات الهلع وصاحت:

- أنت! كيف؟

- اهدئي. كل ما هنالك أني كنت قريبًا من هنا.

- وكيف عرفت أنني هنا؟

- منك أنت، قلت إنك خرجت من الأوبرا وعبرت الشارع، وجلست على مقعد في مواجهة نهر النيل.

- ولكن لماذا تلاحقني؟

- أنا لا ألاحقك، كل ما في الأمر أني وجدت في صوتك مرارة وحزنا، فكرت أن أجيء لأهون عليك. كنت ألتقي صديقًا في فندق انتركونتننتال على بعد خطوات منك. إذا ضايقك وجودي، يمكنني أن أذهب.

كانت قد هدأت بعض الشيء:

- لا، يمكنك الجلوس، اعذرني لم أستوعب أني أراك أمامي.

بقيت صامتة تتأمل مياه النهر، وهي تذهب في اتجاه مصيرها بينما تعبرها البواخر والمراكب بعضها يشغل الموسيقى الصاخبة، والراكبون يغنون ويرقصون. إنهم سعداء وهي تعيسة، هي وحيدة. في زمن سابق كانت تستقل هذه البواخر التي تقيم حفلات للغداء والعشاء بمصاحبة برنامج استعراضي، وكانت ترقص وتغني. نعم، وقتها كانت سعيدة، بينما كانت هناك ثمة امرأة تعيسة تشغل هذا المقعد، هذه هي الحياة لا تبقى على حال، وعلينا أن نعلم ذلك جيدًا.

تحدث، وهي شاردة في اتجاه النهر من دون أن تنظر إليه.

- ربما عليّ أن آخذ ابنتي، ونذهب للعيش في مدينة الأرامل البيضاء، أعتقد أنها المكان الأنسب لي.

ردد خلفها، وهو يحك ذقنه في تفكير:

- مدينة الأرامل البيضاء!

- منذ عدة سنوات كنت قرأت عنها بالصدفة، هي مدينة صغيرة تقع في جنوب نيودلهي تذهب إليها الأرامل للعيش هناك. هذه البلاد تعتبر الأرامل مشؤومات، ملعونات، لأنهن لن يستطعن الحفاظ على أرواح أزواجهن، أيضًا يُمنعن من حضور الأعراس والمناسبات، ويُرغمن على ارتداء

ملابس الحداد البيضاء، ويحظر عليهن الزواج مرة ثانية. الكثير من هؤلاء النسوة لا تتحملن تنمر المجتمع عليهن، فيذهبن للعيش في ملاجئ خصصت لهن.

بعد برهة أضافت بصوت تملؤه الحسرة:

- نعم، هكذا هو الأمر عندما لا يعود هناك زوج ولا يعود هناك شيء!

- ولكنك تملكين كل شيء. أنت شابة وجميلة وعلى قدر من الثقافة والأناقة. الحياة أمامك، ما المانع أن تكرري التجربة؟

- الأمر ليس بهذه البساطة التي تتحدث بها، كيف يمكنني أن أعيش مع رجل آخر؟! أشاركه الفراش، أتحمم بينما هو يغسل أسنانه، أطلب منه أن يفتح لي سحاب فستاني، أُجهز الطعام وهو يعد السلطة، كيف باستطاعتي أن أتعامل مع رجل آخر بشكل عفوي ومباشر وصريح.

وهي تهز يديها بما يعني: لا.

- إنه ضرب من الخيال.

- وهذه الأمور نفسها عندما كانت تحدث معه هل كانت تُعتبر ضربًا من الخيال؟!

- عندما تعرفت إليه كنت في العشرين من عمري، كيف يمكنني أن أتصرف بعفوية فتاة في العشرين؟ والأهم كيف لذكراه ألّا تتسلل إليّ وأنا مع أحد غيره؟!

هزّت رأسها بعنف:

- الأمر صعب.

- عندما تقعين في الحب لن يكون الأمر وقتها صعبًا.

- هناك تقليد يُدعى (الساتي) في الديانة الهندوسية، هذا التقليد كان يحكم على الأرامل بأن يضحين بأنفسهن على المحرقة الجنائزية لأزواجهن، وكانت معظم الأرامل يتفعلن ذلك برضا تام دون غصب من أحد، في اعتقادهن أن لا حياة لهن بعد ذلك.

لمحت على وجهه علامات الاستنفار.

- على أي حال أنا لست في أفضل حالاتي على الإطلاق بسبب الوثائق التي أقوم بترجمتها؟

- أية وثائق!

- وثائق الجينزا.

ردد خلفها:

- الجينزا!

- إنها وثائق كانت مدفونة في المقابر اليهودية، يتم دفنها في موكب احتفالي كبير في يوم يسمى يوم الجينزا

- ولماذا كانوا يفعلون ذلك؟

- من المتعارف عليه في الديانة اليهودية أن كل ورقة تحتوي على اسم الله، أو أجزاء من التوراة يجب أن تدفن، ولا يتم إهمالها بإلقائها في القمامة مثلًا. واعتاد اليهود أن يبدؤوا كتاباتهم بعبارة باسم الرب أو بأجزاء من التوراة؛ لذلك كانوا يقومون بدفنها، ولكن هناك الكثير من الوثائق غير دينية، ولا تحمل أي أجزاء من التوراة، وبالرغم من ذلك قاموا بدفنها.

- وماذا تحوي هذه الوثائق؟

- وثائق متنوعة: أحوال مدنية وأسرية وخطابات غرامية، حسابات وموارد مالية، إيجارات بيوت ومحلات، سجلات قضائية وإيصالات، وعقود زواج وطلاق ورهن ومقايضة ومشاركة، ووصايا وهبات وعتق وفتاوى فقهية ووصفات علاجية وسحر وتعاويذ وشعوذة، وأدب وشعر وموسيقى.

ظهرت على وجهه ملامح الاستغراب:

- مهلا.. مهلا.. ولماذا كان عليهم فعل ذلك؟

- ربما للتأكيد على وجودهم.

- وهل هذه الوثائق ستحقق لهم وجودًا؟

- بالرغم من أنهم دفنوها بنية إتلافها، ولكن عثورنا عليها كشف الكثير من الحقائق، فهي تمتد من العصر الفاطمي وتنتهي قبل حرب 1948، إنه تاريخ طويل يلقي الضوء على أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في مصر والشرق في العصور الوسطى، وأهمية هذه الأوراق أن معاملاتهم في جميع البلاد التي كانوا يعيشون فيها تنتهي إلى مقر الحاخام الأكبر في مصر، فكانت مركزهم التجاري الرئيسي آنذاك.

رنّ هاتفها، فاعتذرت لترد، كانت رحمة تخبرها أن درجة حرارة ابنتها مرتفعة جدًا وتهذي بكلمات غير مفهومة، ولا تدري ماذا تفعل؟!

ظهرت على وجهها علامات الهلع، وهي تقول:

- منذ متى؟ سأحضر فورًا.

- هل هناك شيء؟

- ابنتي مصابة بالحمى عليّ الذهاب، إلى اللقاء.

ركضت تعبر الطريق نحو سيارتها دون أن تصغي إليه، وهو يخبرها أنه بإمكانه إيصالها للمنزل حتى لا تقود في هذه الحالة.

وجدت ابنتها في حال مزرية، لون بشرتها أحمر قانٍ من شدة الحرارة، تجاوزت حرارتها 40، اتصلت بالمركز الطبي وطلبت طبيبًا، وفي انتظاره كانت تضع لها كمادات ماء بارد في محاولة لتخفيض درجة الحرارة.

رجع بها الزمن إلى الوراء، وتذكرت حينما هاجمت الحمى البغيضة ابنتها عندما كان عمرها أربع سنوات، أخبرت الطبيب أن درجة حرارتها تجاوزت 42، فطلب منها أن تملأ البانيو بالماء البارد، وتضيف له قطعًا من الثلج، وتغمرها فيه حتى يصل.

خشيت أن تفعل، فكيف تضع ابنتها في ماء مثلج؟! تكفل زوجها بفعل ما خشيت منه، وفي غضون دقائق قليلة، انخفضت درجة حرارتها، لذا عليها أن تقر أنه كان رجل المهام الصعبة، فكان

يقوم بما لا تستطيع القيام به. اليوم فهمت كيف يمكن للمرء أن يعيش عمره خوفًا من الانزلاق من هذه اليد، اليد التي تبقيك آمنًا.

أخبرها الطبيب أن ابنتها مصابة بأنفلونزا حادة وكتب لها وصفة طبية، وشدد على ضرورة مكوثها في الفراش لمدة ثلاثة أيام.

بقيت بجوارها حتى انخفضت حرارتها، وخف ألمها، ثم استسلمت للنعاس.

ارتدت ملابس النوم، ووقفت أمام المرآة تزيل مساحيق التجميل (كم هي تعيسة تلك الأمسية! وكأن القدر قد استكثر أن يمنحني جرعة من السعادة).

رنين خافت لهاتفها، لم تستطع أن تحدد مكانه. فتشت في حقيبة يدها، لم تجده. أزاحت غطاء الفراش والوسائد فربما اندس تحتهما، ولكنها لم تجده. تتبعت صوت الرنين فقادها إلى خزانة الثياب، كان داخل جيب معطفها المعلق هناك.

انقطع الاتصال قبل أن تجيب، تفحصت المكالمات التي لم ترد عليها، فوجدت عددها كبيرًا، كانت أمها وصديقتها وإدارة الفندق، وكان هو.

كانت ستتصل بأمها لتطمئنها عليها عندما ظهر رقمه، جاءها صوته محملًا بقلق ولهفة:

- لماذا لا تجيبين على هاتفك؟ هل كل شيء بخير؟

منذ متى لم يهتم أحد لأمرها؟! منذ متى لم يطلب أحد منها بصوت يشوبه القلق أن تطمئنه؟!

- أخبرني الطبيب أنها مصابة بالأنفلونزا، ويجب أن تلازم الفراش ثلاثة أيام على الأقل.
- أتمنى لها الشفاء. هل أنت بحاجة إلى شيء؟ مؤكد سوف تأخذين إجازة لتبقي معها.
- بالرغم من أن الإجازات ممنوعة، ولكني سأحاول أن أحصل على يوم.
- وأي قانون هذا الذي يمنع الإجازات؟
- الأمر لا يتعلق بقانون، ولكن المشروع الذي نعمل عليه يجب أن ننهيه في موعد محدد.

- ولكني أعتقد أن صحة ابنتك أهم من تلك الوثائق البالية.

- هي بالية فعلًا، ولكنها تكشف عن أسرار مذهلة، على أي حال أشكرك لاهتمامك.

قالتها، وهي تتثاءب.

- حسنًا، أحلام سعيدة.

القت باللوم على نفسها كيف بهذه السهولة تحكي له عن عملها ومن المفترض الحفاظ على السرية الكاملة تجاه كل شيء فيه ولكن بررت ذلك بأنه لن يمثل أي خطورة، هذه المعلومات لن تهمه في شيء.

كان النعاس يداهمها، ولكنه تبخر بعد سماع صوته، كانت منجذبة إليه بخيوط سحرية، صوته، ملامحه، حضوره الطاغي، اهتمامه المفرط. أمسكت رأسها بيدها، وأخذت تهزه بقوة كما لو أنها تريد أن تسقطه منها. كيف مسارات تفكيرها نحوه تأخذ هذا الاتجاه؟ قامت من الفراش للتخلص من هذا الصراع، وذهبت إلى الشرفة (يجب أن أتخلص منه، ولكن كيف وهو يتبعني مثل ظلي؟).

كان الحل الأمثل للخلاص من هذا الكيان المسيطر أن تنأى بنفسها عنه بغض النظر عما إذا كان هذا ما تريده أم لا. اتخذت قرارها بعدم الرد عليه، وهناك أسبوع يفصلها عن موعد عزفها في الفندق، وهو وقت كافٍ لينساها، واحتمال كبير أن يكون قد غادر البلاد.

26
توخي الحذر

لعلكم تتساءلون الآن: وماذا فعلنا إزاء هذه المشكلة؟ سعيد حقًّا بأن ما أقصه عليكم نال اهتمامكم.

كان علينا وقتها أن ندبر أمرنا بشتى الطرق، خرج الشباب الذين يرتدون زي الجمعية يجوبون الشوارع يطرقون أبواب اليهود، ويطلبون تبرعاتهم في مقابل طبق موضوع عليه قطن مبلل وحبوب قمح نابتة، كالقمح الذي بدأت زراعته في كيبوتز بفلسطين، ولكن في أفضل الظروف لم تكن الأموال التي نجمعها بهذه الطريقة ستفي بالغرض.

طلبنا من الحاخام الأكبر أن يزيد حصة الجمعية من الأموال التي يمنحها لنا من صناديق نذور المعابد أو من التبرعات التي كانت ترسل إليه من مختلف أرجاء العالم. وافق على رفع حصتنا، ولكن بنسبة قليلة لم تكن أبدًا ستجدي نفعًا، متعلّلًا أن هذه الأموال تذهب في أشياء أهم من جمعيتنا، عندما سألته:

- وهل هناك أهم من إقامة وطن؟! ضحك في سخرية:

- نعم، ليس هناك أهم من ذلك، ولكن ألا ترى أن الأوضاع متأزمة الآن خصوصًا بعد ظهور التيار ين الإسلامي والعربي اللذين يكرهان الصهيونية بشدة؟ لا نريد أن نفعل شيئًا يهدد الاستقرار الذي نعيش فيه هنا. لا تنسَ أن يهود مصر يتمتعون بالكثير من المزايا، يكفي أننا مسيطرون على الاقتصاد في مصر والشرق، لذلك يجب أن نكون حذرين جدًا في خطواتنا.

ما الذي توجب عليّ وقتها أن أفعله؟! تمنيت أن ألكمه على وجهه، لم أحاول أن أناقشه، أي مناقشة معه لن تكون مجدية، وستوسع دائرة الخلاف بيننا، وفي هذه الأوضاع لم يكن الأمر أبدًا لصالحنا.

كنا نتمشى يومها في باحة معبد ابن ميمون في أحد أيام يناير المشمسة، كان طويل القامة، يرتدي عباءته السوداء، ويمسك في يده مسبحة طويلة، لم يكن ينظر إليّ وهو يحدثني، كان نظره شاخصًا إلى الأفق.

- هل تعتقد أن هذه أولى المحاولات التي قامت لقيام دولة لنا؟! تكررت هذه المحاولة مرات كثيرة، ولكن في كل مرة تفشل، وكأن هذه الأرض مرصودة أو منحوسة.

بدأها شخص يدعى (جورج آدامز) ولد في أميركا عام 1813، ومثل كثير من المسيحيين البروتستانت في بدايات القرن التاسع عشر، تملكت جورج آدامز رغبة التوجه إلى فلسطين وتوطين اليهود بها بهدف إعداد العالم لاستقبال المسيح الذي سيحكم العالم ألف عام، ويعم الخير والرخاء وفق المعتقدات البروتستانتية.

ذهب إلى فلسطين، وأخذ معه مدير مكتب بريد المدينة (أبراهام ماكنزي) لتقييم مدى تقبله ومعايشته لفكرة الاستيطان، وكان تقريرهما متخمًا بالاستحسان، دوّن فيه أن أرض فلسطين ممتازة ومناخها مثل طقس ولاية كاليفورنيا، وبمساعدة الاختراعات الأمريكية الحديثة فهذا البلد يمكنه استقبال آلاف المستوطنين وجماعات من السياح سنويًّا.

حمّست هذه المعلومات انضمام 156 أميركيًا من فئات مختلفة: فنانون وصيادين ومزارعين وتجار، تجمعوا مع زوجاتهم وأولادهم، وركبوا السفينة «نيللي تشابين» المتجهة إلى فلسطين، استغرقت الرحلة 42 يومًا. قابلتهم كثير من المشاكل، منها قرار الحكومة العثمانية بعدم السماح بتأسيس أية قواعد أو مستوطنات بروتستانتية جديدة، بعد هجوم تعرضت له إحدى المستوطنات، لذلك اضطر المرافقون لآدامز إلى إقامة مخيم على الشاطئ بين أكوام من النفايات وجثث ضحايا وباء الكوليرا الذي انتشر في البلاد قبل مجيئهم.

رغم هذه المشاكل خطط آدامز لإنشاء مدينة على النمط الأميركي، بها كنائس وفنادق ومدارس وجامعة. منحه نائب القنصل الأميركي هيرمان لوفنتال عشرة فدادين من الأرض الصالحة

للزراعة، وفي أيام قليلة كان 17 منزلًا سابق التجهيز مستوردة من ولاية ماين بشمال شرق الولايات المتحدة أعيد تركيبها، زرعت الأراضي، وشيّد مبنى للاجتماعات، هاجمت العصابات المحصول، وعندما حل الشتاء، كانت المجاعة، وبعد أقل من ستة أشهر كان 17 أميركيًّا قد لقوا حتفهم ضحايا للدوسنتاريا، أخذ عدد الوفيات يزداد يومًا بعد آخر، وهكذا كُتبت نهاية أليمة لإحدى تجارب الأميركيين البروتستانت لتأسيس مستعمرة مخصصة لعودة اليهود إلى فلسطين.

علّق القنصل البريطاني في يافا نويل تمبل مور على ذلك: (فشل المستوطنة الأميركية في يافا، هو تكرار لمصير تجارب سابقة مشابهة، ولا يبدو أن هناك أملًا في نجاح مثل هذه التجارب)، وأعتقد أن مقولة القنصل حقيقة إلي ابعد ما يكون.

ثم ربت على كتفي، وبنبرة ما بين اليأس والمواساة:

- لذلك عزيزي، لا يبدو أن هناك أملًا في مثل هذه التجارب.

واضح ما الذي يقصده بهذه القصة؟ بالرغم من اختلاف الزمن والملابسات والدافع والعقيدة، فهذا البائس لم يجد شيئًا يكبح به حماسي غير هذه القصة المهترئة.

أجبته بصوت يملؤه الحماس، وكأن ما حاول أن يخبرني به لم يردع ذرة من اصراري:

- هذه واقعة من زمن مضى، لقد بدأنا في إنشاء دولتنا وقد أصبحت واقعًا، ومن الواضح أنك تعيش بمنأى عنه، أريد أن أخبرك أننا لن نسمح لشيء أو أحد أن يوقف مسيرتنا، ومن الواضح أيضًا أنك لا تنتبه إلى أوضاع اليهود اليوم في مصر كيف هي؟! فأنت تتحدث عن يهود الطبقة العليا، هؤلاء المسيطرين على الاقتصاد المصري، هؤلاء الأثرياء الذين لهم مصالح، ويعقدون صفقات مع الإنجليز والقصر والباشاوات، ولكن ماذا عمّن يعيشون في حارة اليهود الفقراء المعدمين؟ وإذا كان أمرهم لا يعنيك فماذا عن التهديدات التي يتلقاها يهود العالم من حكومة الرايخ؟! لم تصل إليك بعد أو أنها وصلت ولا يهمك أمرها طالما أن أثرياء اليهود في مصر ينعمون بالراحة والأمان؟!

- أنا لم أمانع في سبيل تحقيق ذلك، ولكن كل ما أطلبه هو توخي الحذر.

قالها، وهو يمد لي يده بالسلام بما يفيد انتهاء المقابلة.

خرجت من المعبد تتردد في أذني (توخي الحذر)، وأخذت أضحك وأضحك.

27
اجمع القرش إلى القرش

قبل بدء الاجتماع، كان هناك صخب على المائدة البيضاوية، أحاديث جانبية ثنائية وثلاثية وأحيانًا جماعية. عندما يتحدث أحدهم عن نتيجة مباراة الأمس بين فريقي الأهلي والزمالك، أو برشلونة وليفربول، أو عن موجة الغلاء وفرض ضرائب جديدة، تتعالى التعليقات، يتحدثون كلهم في صوت واحد يثرثرون ويضحكون، ثم كالعادة يدخل الرئيس بخطواته العسكرية الحازمة فيأخذون أماكنهم، وثوانٍ قليلة يعم الصمت.

- هناك وثيقة مهمة مكتوبة باللغتين العربية والعبرية مؤرخة عام 1938 وهي عبارة عن عريضة موقعة من عدد كبير من الأسماء اليهودية:

(نستنكر نحن طائفة القرائيين هذه الأفعال الإجرامية والإرهابية التي يقوم بها الصهاينة في فلسطين بمساعدة الإنجليز، ونحن ننقم على مكاتب الدعاية الصهيونية وتصرفاتها التي تستعمل المال لصمت الصحف عن إبداء آراء اليهود المعتدلين، ونحن نقر أننا نريد أن نعيش في سلام وأمان مع العرب والمسلمين في شتى البلدان، ونناشد إخواننا يهود مصر والعالم أن يكفوا عن مساعدة الصهيونية حتى تحل القضية الفلسطينية، ونعود كما كنا إخوة متحابين) الوثيقة موقعة بأكثر من مئة اسم.

نظر الرئيس إلى الباحث بنظرة توحي بمعني: ما هو تعليقك عن ذلك؟ فأجابه عن سؤاله الذي لم يسأله:

- لقد توسعت الحركة الصهيونية في ذلك الوقت بشكل كبير، وبدأت تقوم بعمليات ضد الفلسطينيين، وبالرغم من أن الصهيونية وقتها لم تكن تحمل عداءً كبيرًا، وكانت وكالاتها في مصر تعمل تحت سمع وبصر الحكومة وبشكل قانوني، إلا أن هناك أحزابًا مصرية كانت تعارض فكرة الصهيونية بشكل عام، وترفضها، وحاولت أن تظهر ما هي مقبلة عليه ونواياها الخبيثة، مثل حزب الإخوان المسلمين وحزب مصر الفتاة؛ ولأنهما كانا ضد السلطة فلم تكن أقاويلهما تثير اهتمام الكثيرين، ولكنها لفتت نظر عدد كبير من كبار رجال السياسة والصحافة والثقافة في مصر.

فمثلًا صحيفة (مصر الفتاة) وهي تابعة لحزب مصر الفتاة، كان يترأسها شخص يُدعى أحمد حسين الذي بدأ في شن حملة قوية تجاه ما يحدث من الصهاينة لعرب فلسطين، وقد نشر عريضة استنكار، وطلب في أحد مقالاته عقد اجتماع بين أعضاء الأحزاب المختلفة مع أعضاء من الجالية اليهودية وتجارها الأثرياء والمعروفين في الصاغة والدرب الأحمر للتوصل إلى حل معهم.

وبالفعل عقد الاجتماع على وجه السرعة، ولكنه لم يحقق إفادة تذكر. تجار اليهود لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئًا سوى أن يقدموا الاعتذار عن الارتكابات الصهيونية. وبالطبع، هذا الأسف لم يقنع الصحفي الغيور على وطنيته وعروبته، واصل مهاجمته لليهود، وبدأ هجومه يأخذ شكلًا آخر، بدأ يكتب سلسلة مقالات عن سيطرة اليهود على معظم أشكال التجارة الغزل والنسيج، الطباعة والورق، سوق البنوك والمصارف، ودور السينما، والمصالح الحكومية، وأظهر كيف استطاعوا أن يتحكموا في الصحافة، وذلك عن طريق شركة الإعلانات الشرقية وهي شركة ممولة برأس مال يهودي والتي كانت ترفض منح إعلانات للصحف المصرية التي تعادي الصهيونية.

أنهى الباحث حديثه، فهزّ الرئيس رأسه بما يفيد أجدت، ثم عقب:

- كان أحمد حسين رجلًا ثوريًّا يحمل أفكارًا وطنية تدعم الهوية المصرية، كانت أهم أفكاره التي حولها لمشروع فعلي وحقيقي (مشروع القرش)، وكان ذلك عام 1931 وحث فيه كل مواطن مصري على التبرع بقرش محاولة لإنقاذ الاقتصاد المصري الذي كان يمر بمشاكل اقتصادية بسبب آثار انخفاض سعر القطن في الأسواق، ومؤكد أنّ المشروع كان له أكثر من زاوية، ولكن في المقام الأول كانت الأهمية لنشر الروح الوطنية، خصوصًا أن المشروع تزامن مع معركة شهيرة في مصر هي معركة الطربوش.

تعالى صوت تمتمة الباحثين، كانت المرة الأولى التي يسمعون شيئًا يُدعى معركة الطربوش؛ ما أتاح للرئيس فرصة ممارسته الدور الذي يجب أن يتقمصه؛ هو المدرس وهم مجموعة من التلاميذ:

- كيف وأنتم الباحثون والباحثات لا تعلمون شيئًا عن معركة الطربوش؟! من الواضح أنه يجب عليكم الاطلاع بشكل أفضل. ليس لأننا أنهينا دراستنا، هذا معناه أن نتوقف عن البحث والاطلاع.

ثم بدأ سرد معلوماته بطريقة استعراضية. حاولت أن تكتم ضحكتها، ولكنها لم تستطع فسعلت، ولكن هذا لم يمنع الرئيس من أن يرمقها بنظرة حادة.

- كانت مصر تستورد الطرابيش حتى أنشأ محمد علي مصنعًا لصناعتها، ولكنه توقف بعد أن تحالفت الدول الأجنبية ضد مشروعه، ولكن هذه المعركة كانت رمزًا للتمسك بالهوية الوطنية المصرية والإسلامية في مقابل الهويات المتعددة في ذلك الوقت وخاصة الهوية الأوروبية، حيث كان أنصار هذا الاتجاه يرون أن القبعة هي بديل الطربوش، وفي المقابل كان أنصار الطربوش يلعنون القبعة ومن يرتديها، فكانت معركة كبيرة امتد جدالها إلى الشارع المصري، وفي هذه الفترة ظهر مشروع أحمد حسين المسمى بـ "القرش"، وكان لا يزال طالبًا في الفرقة الثانية بكلية الحقوق، وكان يعتبر أنه من العار على المصريين أن يستوردوا زيهم القومي من الخارج.

شارك آلاف المتطوعين في كلّ أنحاء مصر في "مشروع القرش"، حتى إن فرق الموسيقا العسكرية كانت تشارك في حملات المشروع وتخرج إلى الشوارع تعزف لحماس الجمهور، ودعم الشاعر الكبير أحمد شوقي المشروع بتأليف قصيدة لاقت نجاحًا كبيرًا:

علم الآباء واهتف قائلًا

أيها الشعب تعاون واقتصد

اجمع القرش إلى القرش يكن

لك من جمعهما مال لبد

اطلب القطن وزاول غيره

واتخذ سوقًا إذا السوق كسد

كان طلبة الجامعة يذهبون إلى مدنهم وقراهم لجمع التبرعات، وبلغت حصيلة المشروع في العام الأول نحو (17) ألف جنيه، وفي العام التالي نحو (13) ألف جنيه، وهو مبلغ ضخم بمقاييس ذلك الزمن، وكان شعار اللجنة التنفيذية للمشروع "تعاون وتضامن في سبيل الاستقلال الاقتصادي". نجح المشروع، وأنشئ مصنع في العباسية في 15 فبراير 1933 في شارع أُطلق عليه بعد ذلك مصنع الطرابيش، وتم ذلك بالتعاقد مع شركة هاريتمان الألمانية.

في أواخر 1933 بدأ الطربوش المصري يُطرح في الأسواق، غير أن بعض أعضاء حزب الوفد اتهموا أحمد حسين بالسرقة، وقاموا بمظاهرات تنادي بسقوطه. انتشرت هذه الأقاويل، واحتشد الكثير من الجماهير تطلب سجنه: "يسقط حرامي القرش"، واتهموه باختلاس أموال المشروع، وكانت حملة تشهير قاسية ضده، فاضطرته إلى الاستقالة من سكرتارية جمعية القرش، وإعلانه قيام جمعية مصر الفتاة.

عمّ الصمت، فأضاف:

- هيا أخبروني: ما الذي في جعبتكم؟

تعالت أصوات متعددة اختار منها صوتًا:

- هناك وثيقة مرسلة من تل أبيب من شخص يُدعى يعقوب أرسلان إلى مدير مؤسسة (الكيرن كايمت) لشراء الأراضي، يخبره فيها أنه استطاع العثور على عشرة فدادين، ولكن صاحبها يطلب فيها سعرًا مبالغًا فيه قياسًا بأسعار السوق؛ وذلك نظرًا لموقعها المميز، وفي نهاية الرسالة يؤكد عليه أن يرد عليه في أقصى سرعة ليخبره إذا كان يتمم إجراءات البيع أم لا، علما بأنها فرصة لن تعوض.

أضافت إحدى الباحثات:

- في الواقع عثرت على عدد من الوثائق تمثل عقود بيع وشراء لأراضٍ فلسطينية تمت بين مواطنين يهود من مصر وبين أفراد أو شركات من فلسطين، ولاحظت أن معظم هذه الوثائق تم تأريخها ما بين عام 1920 إلى 1935.

أضاف الباحث المتحمس دائمًا:

- الأمر ليس عقود بيع وشراء فقط، هناك إعلانات نُشرت في الجرائد اليهودية، وواضح من طريقة عرضهم أنهم يحاولون ترغيب اليهود في الشراء بشتى الطرق، فيقدمون لهم الإغراءات.

فتح عدة وثائق أمامه، ثم بدأ في القراءة:

- مثلًا هناك إعلان في جريدة الشمس اليهودية تاريخ النشر كان 15 أبريل عام 1935 (وكالة الأراضي والأملاك الفلسطينية سيكون وكيلها في مصر البرت كياسو لبيع الأراضي والأملاك والمحلات التجارية في فلسطين)، وهناك إعلان آخر في نفس الجريدة نشر بتاريخ 29 مارس 1935 (للبيع قطعة أرض تصلح للاستثمار الزراعي والصناعي بالقرب من حيفا، وكيلها في مصر حاييم زاديكون الكائن مكتبه بشارع فؤاد الأول رقم 28 عمارة أفينو أمام المحكمة المختلطة، وكتب بين قوسين (الإعلان يخص اليهود فقط).

هزّ الرئيس رأسه بما يفيد الأسف:

- موضوع تملك اليهود أراضٍ في فلسطين كان البذرة الشيطانية التي أثمرت كل هذا الخراب. عملية شراء الأراضي الفلسطينية كانت عملية واسعة وكبيرة، من أجلها جند الكيان الصهيوني إمكانيات عالمية ورؤوس أموال ضخمة من جيوب أثرياء يهود العالم كله.

كما تعلمون سيطر اليهود على الاقتصاد العالمي في ذلك الوقت من خلال عملهم في مجال البورصات والمصارف. هذه الشبكة امتدت أيضًا ليهود الشرق من الأثرياء الذين يعملون في مجال المصارف والبورصات، جمعت بينهم علاقات تجارية، وكانت الكثير من الصفقات التي تعقد تخصّص أجزاء كبيرة من أرباحها لصالح بناء الوطن الصهيوني، وكان أثرياء يهود مصر هم النواة لهذه الشبكة في الشرق؛ لأنهم كانوا من أثرى يهود العالم في هذا التوقيت، ومسيطرين بنسبة كبيرة على الاقتصاد المصري. لذلك عندما وضعوا خططهم لشراء الأراضي الفلسطينية، كانت مصر هي المقر لوكالات البيع والشراء في الشرق، وهذه الشركات يملكها مستثمرون من أنحاء العالم كافّة.

قبل كل شيء بدأ الاتجاه للاستثمار في شراء الأراضي الزراعية، فكان يتعين عليهم زراعة الأرض وقتها، أعلن السويسري هنري دينيان مؤسس الصليب الأحمر في ستينيات القرن التاسع عشر عن فكرة مشروع ضخم بتكوين شركة لتنمية الزراعة والصناعة والتجارة والاشغال العمومية في فلسطين؛ وذلك سيسهل عملية الاستيلاء على الأراضي وتمكين توطين اليهود هناك.

طلبت الباحثة ذات السحنة العابسة التحدث:

- وهذا يفسر عثوري على الكثير من الوثائق بين منظمة الصليب الأحمر ومنظمات صهيونية يهودية، عبارة عن إيصالات لتبرعات بملابس وأدوات مدرسية، في الحقيقة استغربت لأن من المعروف أن مؤسسة الصليب الأحمر هي منظمة إنجيلية الهدف منها توحيد المسيحيين تحت القيم الخيرية.

- نعم، هي قامت على هذا الأساس، ولكن بعدها طرحت أفكارًا مختلفة، فضمت إليها جمعية (التحالف الإسرائيلي العالمي)، وهي تهدف إلى العمل في كل مكان على تحرير اليهود، وتساعد على رقيهم الأدبي بتقديم دعم فعال لهم.

رد أحد الباحثين بنبرة سخرية:

- رقيهم الأدبي!

- نعم، رقيهم الأدبي، والرفع من الحالة المعيشية لهم.

أضاف بنفس النبرة المتهكّمة:

- ولكن ما الذي يجعل منظمة مسيحية تهتم لأمر اليهود؟

- لسبب بسيط جدًّا، هذه المنظمة الخيرية قائمة في المقام الأول على الإعانات. أثرياء الطوائف اليهودية الأوربية يتبرعون لها، وخاصة بعدما علموا أهميتها وثقة العالم فيها؛ لذلك لجأوا إليها لمساعدتهم بمعنى سندعمك بالتبرعات وفي المقابل عليك مساعدتنا.

في عام 1922 أنشأت اللجنة المركزية لفلسطين مكتبًا لإقامة جمعية تسمي (مدن الحدائق)، وذلك تطبيقًا لقرار المؤتمر الصهيوني بحيث تكون فرعًا من فروع الاستعمار الزراعي لفلسطين تحت اسم (كيريات جوزيف)، وتم تسجيلها في المحكمة المختلطة بالقاهرة، وتم فتح حساب لها في البنك الأهلي، وكان هدف الجمعية المزعوم هو إعادة بناء فلسطين مع تقديم ربح للمساهمين، وتكونت اللجنة المركزية الصهيونية من حوالى 100 شخص من أشهر وأثرى يهود مصر.

وبدأت الجمعية عملها بحماس كبير، فأرسلت مندوبين إلى فلسطين بالقرب من تل أبيب للبحث عن الأراضي وشرائها، ثم بعدها تأسست جمعيات كثيرة تخصصت في شراء الأراضي الفلسطينية، أهمها (مينوميه - يوريه ميزرايم)، وأكبرهم كانت جمعية (آسيا) التي تأسست في الإسكندرية برأس مال قدره خمسون ألف جنيه.

هل تعلمون ماذا يعني 50 ألف جنيه مصري بقيمة عصرنا هذا؟ بدون شك كان مبلغًا كبيرًا جدًّا وقتها. وعلق دكتور بليبول وهو أحد كبار الصهاينة، ويملك الكثير من الاستثمارات في عدد كبير من الأراضي في حوار له مع جريدة الشمس عن ذلك (لو أنشئت جمعيات أخرى مماثلة لجمعيتنا تقوم بإرسال 2600 ليرة إلى فلسطين لشراء الأراضي لأصبحت فلسطين أرضًا إسرائيلية، وهذا ما سوف نعمل عليه).

هكذا بدأ المحتل يحفر أساس وجوده داخل أرض فلسطين. فمع نهاية الثلاثينيات، توغل وتوسع وبدأ في تنفيذ مخططه الاستعماري، واصبح حلم بناء وطن قومي والرجوع إلى أرض الميعاد، قاب قوسين أو أدنى من الحقيقة.

علق أحد الباحثين بصوت يعبر عن ضيق:

- ولكن أي عقل كان لهم ليبيعوا لهم أرضهم؟

- في ذلك التوقيت كان من الصعب استيعاب فكرة قيام دولة إسرائيل في فلسطين الواقعة في قبضة الحكم العثماني الإسلامي، لذلك كان عدد كبير منهم يبيع أرضه دون أن يفهم ما الذي سوف يحدث بعد ذلك، ولا نستطيع أن ننكر أن هناك بعض الملاك قد باعوا أرضهم لغرض التربح، ولكن كم نسبتهم وسط كل ذلك؟! لهذا السبب في عام 1935 أصدر مؤتمر علماء فلسطين فتوى تحرم بيع الأراضي، واعتبر من باع أرضه مغضوبًا عليه لا تُصلى عليه صلاة الجنازة ولا يُدفن في أراضي المسلمين.

رد الباحث بسخرية:

- ولكن بعد أن فات الأوان.

- نعم، بعد فوات الأوان، وحتى وقتنا هذا العرب جميعهم ما زالوا يدفعون ثمن ذلك.

قال الباحث المتحمس:

- هناك مثل يقول: لا تبكوا على اللبن المسكوب.

رد عليه المؤرق بمشاكله المالية:

- أكبر دليل على عدم صدق هذه المقولة ما حدث في فلسطين، بل يجب أن نبكي ونبكي، وربما علينا أن نقضي بقية عمرنا في البكاء.

كان صوته يشوبه الأسى، أبدًا لم يكن الأمر متعلقًا بأراضٍ تم بيعها منذ زمن فات، الأمر كان متعلقًا بحياته هو البائسة التي سُرقت منه.

شردت بأفكارها بعيدًا، شردت في حياتها، ثم بعد وهلة وجيزة من الصمت:

- أتمنى لو كان في الحياة زر إعادة الماضي لنمحو كل المصائب التي حدثت لنا، ونعاود الحياة كأن شيئًا لم يحدث.

ضحك الموجودون، دارت بنظرها حولهم:

- لماذا تضحكون؟ ألا تتمنون هذا حقًا؟

أجابها الرئيس، وهو يجمع أوراقه:

- يضحكون لاستحالة ما تتمنين!

- ربما ما أتمناه اليوم يعد أمنية مستحيلة، ولكن من يعلم فيما بعد ما الذي يمكن أن يحدث؟ من الجائز أن العلم الحديث يخترع ذلك.

رمقها بنظرة غريبة، ومؤكد كان يريد أن يخبرها: (واضح أنك امرأة مجنونة)، هذا ما استشعرته من نظرته، ولكن ليس من نظرته هو فقط، أغلب الموجودين رمقوها بذات النظرة. جمعت أشياءها وذهبت.

بركوبهم الحافلة يعود كل منهم إلى عالمه مرة أخرى بعد ساعات طويلة قضوها بين قرون طويلة مضت، ينقبون ويفتشون في حيوات أناس كانوا هنا يومًا.

هذا الرجل المؤرق بمشاكله المالية، وهذا الشاب الذي يحيا حياته متقوقعًا داخل الانترنت بإمكانه أن يحب ويكره، يسافر ويذهب ويأتي داخل هذا الفضاء، وهذه المرأة التي تعيش على هاجس الأعذار التي سوف تقدمها لزوجها لتفلت من لومه لها؛ لأنه لم تصنع له ما يشتهيه من طعام، والمرأة التي تملك ملامح شابة وشعرًا أشيب، والشاب المتحمس دائمًا.

كان جالسًا بجوارها، تجاوز الستين بقليل، يرتدي معطفه الكحلي البالي الخالي من أية أناقة. وجه منتفخ قليلًا، عينان مستديرتان فاتحتان، شعر رمادي بفارق من الجنب. عندما جلست بجواره لم يظهر عليه أنه تنبه لوجودها، لكنه في لحظة ما أدار رأسه صوبها.

- أتعلمين أن هذا الجهاز لو تم اختراعه فالكثير من الأشياء كانت تبدلت؟ كنت سأعود بالأيام للخلف لأحقق حلمي بأن أعمل كابتن طائرة، وربما كنت الآن محلقًا في الجو على متن طائرة إيرباص، ومعي عدد من السياح أسافر بهم إلى جزر البهاماس.

أدارت رأسها تجاهه، ولكنه كان يتحدث وهو ساهم بنظره إلى الأمام، فلم يحدث أن التقت نظراتهما، كان كمن يتأمل أحلامه البعيدة.

راح ينقب في كيس بلاستيك يحمله معه، وأخرج زجاجه مياه تجرع منها مرتين، ثم أخرج شطيرة وأخذ يقضم منها.

سألته بصوت خفيض كنبرة صوته:

- ولكن ألا يجذبك عملك؟!

- لا، لا شيء في هذه الحياة برمتها يجذبني، أشعر أني ثور حقل أدور ليل نهار في طاحونة، ومن أجل ماذا؟ الحصول على قوت اليوم لا أكثر وتلبية طلبات البيت والأولاد التي لا تنتهي.

فجأة توقف عن الحديث، أنهى شطيرته وتجرع مجددًا من الزجاجة، ثم وضع الكيس مرة أخرى أسفل مقعده، ودخل في غفوة، انحنى رأسه فوق صدره وتدلت ذراعه.

كان من الواضح أنه انهار من الحياة، انهار من التعب والإرهاق، انهار من أحلامه التي لم تتحقق أبدًا. إنها حياة بغيضة ومجحفة تلك التي يعيشها هذا الرجل.

نظرت من النافذة، كانت شمس العصر تلمع بوهج يلطفه ضباب، وكان صوت تنفسه الرتيب يكسر حدة الصمت.

28
لقد حدث شيء في هذا المعتقل

كانت فكرة الصهيونية قائمة على (البناء والإعمار)، ولن يكون هناك بناء أو تعمير دون امتلاك الأرض. ألستم معي في ذلك؟ سأواصل الكلام اليوم بعد انقطاع عدة أيام، لقد حدث شيء في هذا المعتقل، هذا الشيء أثر بشكل أو بآخر. نعم، أنا الرجل الممتلئ بالحقد والكراهية، الرجل الذي بلا قلب، يمكنني أن أتأثر.

أعلم أن الفضول يقتلكم الآن لتعرفوا ما هو هذا الشيء، لكني لن أخبركم الآن، حتى لا تتشتت أفكاركم، ربما في وقت آخر.

الآن نعود مرة أخرى لأحكي لكم كيف حصل اليهود على الأراضي الفلسطينية.

- في اعتقادي أن القدر كان حليفنا عندما وفر لنا سبل الحصول على الأراضي الفلسطينية بمنتهى السهولة واليسر. بدأت الجمعيات الصهيونية تصب تفكيرها في جميع الطرق المشروعة وغير المشروعة في عمليات شراء الأراضي. كنا نعلم أن أمر امتلاكها لن يكون بالشكل الهين، وخاصة بعد انتشار فكرة الصهيونية وعودة اليهود إلى فلسطين.

بالطبع، كان الأمر أكثر سهولة في العقدين الأول والثاني من القرن العشرين. الكثير من العوامل كانت متاحة وفي مصلحتنا، وطبعًا كان أهمها فساد بعض رجال الحكومة العثمانية والمنح التي قدمتها السلطات البريطانية لنا، وتقدر بحوالى 300 ألف دونم من الأراضي، كما لعب اليهودي (هربرت صموئيل) 1920-1925 المندوب السامي البريطاني في فلسطين دورًا كبيرًا في ذلك الأمر، فقد منحنا 175 ألف دونم من أخصب الأراضي على الساحل بين حيفا وقيسارية.

في البداية كان الأمر خاليًا من أية شبهة أو تعقيد، حتى أن الجرائد اليهودية والمصرية كانت تنشر باستمرار إعلانات عن بيع وشراء الأراضي، وقامت شركة (ابل هامار) وهي أهم شركات البناء والتعمير في مصر والسودان لصاحبها (فرانك أموزيك) بحملة إعلانية ضخمة في جميع الجرائد المصرية بتوجهاتها المختلفة، وكانت ملصقات إعلانات الشركة توضع بكل مكان في النواصي والشوارع والحدائق ومداخل البنايات.

استخدمت شركته طريقة ذكية لحث اليهود على شراء أراضٍ فلسطينية، فكانت تتحمل مع المشتري نسبة من تكلفة البناء، أو تقوم بإعطائهم شهادة استثمار بنكية، أو تهديهم رحلات إلى فلسطين لحضور مباريات فريق المكابي وهي فرقة رياضية يهودية.

وسرعان ما بدأت تسير على نهجه المؤسسات العقارية الأخرى وتتبع طريقته في الإغراء، فشركة تنمية أراضي فلسطين كانت واحدة من أول الشركات المعترف بها لشراء عقارات هناك، بدأت هي الأخرى في حملاتها الإعلانية وتقديم الهدايا والمنح. كما بدأ المليونير اليهودي الكولونيل كيش الذي يمتلك أراضي بمساحات شاسعة في تل أبيب في استثمار أراضيه في بساتين لزرع الليمون والبرتقال ومختلف أنواع الموالح، وكان يقدم تسهيلات كبيرة للمشترين بأقساط تستمر لمدة خمس سنوات بدون أية فائدة.

استمرت هذه الأمور بشكل جيد حتى منتصف الثلاثينيات، بعدها أصبح مخططنا واضحًا للعيان بشكل كبير، وعلم الفلسطينيون والعرب حقيقة ذلك، وأصبح من الصعب على اليهود، سواء كانوا أفرادًا أو مؤسسات، شراء أراضٍ؟ صحيح كنا قد تملكنا مساحات كبيرة، ولكننا كنا نريد المزيد.

كنا نريد أن نسلبهم كل شيء، وكانت الأرض هي كل شيء. لذلك لجأنا لأفكار وخطط مختلفة، كإيهامهم مثلًا أن البيع سيكون في صالح الدولة الفلسطينية لإقامة مشاريع زراعية وصناعية أو لنشاطات خيرية كمستشفيات وملاجئ للأيتام، وأحيانًا نقوم بخداعهم ونخبرهم أن المشتري شخص عربي ومسلم بعد أن نزور بطاقة هوية المشتري، وكان هذا الأمر ينجح كثيرًا.

نعم، هكذا كانت تدار الأمور، ألم أخبركم أننا كنا نستعمل كلّ الطرق المشروعة وغير المشروعة؟ بإمكانكم الآن أن تدعونا لصوصًا، نصابين، خونة، يمكنكم أن تستعملوا ما يحلو لكم من

تهم، فهذا لن يبدل الأمر شيئًا.

في الوقت نفسه كان هناك شيء أساسي وهام، لم يكن بإمكاننا أن نغفل عنه، لأنه أساس أي وطن (الأمن)، ولم يكن يتحقق إلا بجيش وطني قوي. مع بداية تزايد أعداد اليهود التي تتوافد على إسرائيل لم تعد منظمة (هاشومير) المعنية بحفظ الأمن والأمان تفي بالغرض، وخاصة بعد قيام الثورة العربية في فلسطين واكتشاف أن الحماية البريطانية لا يُعوّل عليها في حفظ أرواح وممتلكات اليهود.

كنا بحاجة لتأسيس جهاز أمني مركزي، فأنشئت الهاغاناه كبديل للـ "هاشومير" في يونيو 1920، دبت الحماسة في أوصال الشبان اليهود، فانضموا بالآلاف، فقامت باستيراد السلاح وإنشاء الورش لتصنيع القنابل اليدوية والمعدات العسكرية الخفيفة، وتحولت إلى جيش نظامي، وبذلك كانت المنظمات الصهيونية في حاجة لأموال كثيرة لتمويل جيشها، ولم يعد التبرع من أجل غرس شجرة، أصبح التبرع من أجل حمل بندقية وصناعة قنبلة.

كان علينا وقتها أن نبحث عن مصدر للتبرعات، فيهود الدول العربية والأوربية لم يكن بإمكانهم منحنا أكثر من ذلك، اتجه تفكيرنا ليهود تركيا وإيران، كان يجب عليهم أيضًا أن يساهموا في إنشاء وطن لهم. بعد محادثات ناجحة معهم انهالت علينا مبالغ كبيرة خاصة من إيران، كانت تذهب كلها لتمويل الجيش الإسرائيلي.

29

ستار يُرفع عن لوحة رويدًا.. رويدًا

- أعتقد أن هذه الوثيقة مهمة جدًّا؛ لأنها توضح الدور الذي لعبه يهود إيران في إنشاء الدولة الصهيونية.

نغّم الباحث صوته، وعدل من وضعية الميكرفون أمامه:

(نقر نحن الموقعين أدناه بحضور السادة الموقرين ممثلي الطائفة المقدسة ليهود إيران في كل مكان بأننا اتفقنا في المدينة المقدسة أورشليم لتبني وتعمر على عمل صندوق للصدقات الواجبة، وقد طلبنا من السيد يهودا بن السيد نورئيل - حفظه الله وأدامه - بأن يذهب إلى مصر وبلدان أخرى لجمع التبرعات مع التشدبد على أهمية التبرع من كلّ فئات اليهود الفقراء منهم والأثرياء، وكل يجود بما تسمح به ظروفه).

ملخص الوثيقة أن مسؤولي طائفة يهود إيران اجتمعوا، وقرروا إنشاء صندوق لجمع التبرعات، ليس من اليهود القادرين فقط، ولكن من غير القادرين أيضًا. وأطلقوا على هذا الصندوق (صندوق الصدقات الواجبة)، لم يتحدد أين ستذهب هذه الأموال، ولكن بالنظر إلى تاريخ الدعوة وحرب 1948، سنفهم أن الأموال ذهبت بالتأكيد لتمويل الجيش.

هزّ الرئيس رأسه موافقًا عن رأي الباحث، ثم عقب:

- تُعتبر الجالية اليهودية الإيرانية من أقدم الجاليات اليهودية في العالم، تم تأسيسها قرابة القرن الخامس قبل الميلاد ويعيش في إيران اليوم نحو 45 ألف يهودي، وهم بذلك يشكلون أكبر

تجمع يهودي في الشرق الأوسط خارج إسرائيل، وبالرغم من أن إيران لا تنشر إحصائيات رسمية بالتوزيع العرقي لسكانها بسبب سياساتها القائمة على تفضيل العرق الفارسي، لكن قدر عدد اليهود في إيران بـ "45" ألف يهودي، ويطلق عليهم «الطيالسة» نسبة إلى رداءٍ يلبسونه يسمى الطيلسان، وقد جاء ذكرهم في الحديث النبوي الشريف "يتبع الدجال من يهود أصفهان سبعون ألفًا عليهم الطيالسة"، ويتوزع يهود إيران في طهران وهمدان وأصفهان. وقد سجل التاريخ موجتي هجرة كبيرتين ليهود إيران، الأولى التي أعقبت إعلان قيام دولة "إسرائيل" عام 1948، والثانية التي أعقبت الثورة الإسلامية في إيران عام 1979. والأرقام توضح أن ما يقدر بنحو ربع مليون يهودي من أصل إيراني يعيشون في إسرائيل.

وكأن القدر يعاندها، ففي الوقت الذي كانت تحاول أن تخرجه من أفكارها وتتجاهل اتصالاته ورسائله، جاء ذكر أصفهان، وتذكرت عينيه اللتين لمعتا، وهو يحكي لها عنها.

لامت نفسها على هذا التصرف الذي لا يليق بامرأة ناضجة، من المفترض أنها تستطيع التحكم في مشاعرها، وأهم من ذلك يجب أن تملك شجاعة المواجهة. ربما في زمن سابق كان الهروب هو أفضل وسائلها في الحماية.

خفق قلبها للمرة الأولى، وهي في الصف الثالث الثانوي لشاب وسيم كان يكبرها بعدة سنوات. دائمًا كان محاطًا بالحسناوات ومغامراته الغرامية مع فتيات النادي تتردد على ألسنة صديقاتها. كان دائمًا محط إعجابهن وفتى أحلامهن، يتنافسن عليه ويحاولن أن يلفتن نظره بشتى الطرق؛ ماكياج صارخ، ملابس تظهر مفاتنهن، دعوات مفتوحة له لإقامة علاقات. كان بإمكانهن أن يتخلين عن كل أي شيء في سبيل الحظوة بصحبته.

كانت مختلفة عن باقي الفتيات، أحبته في صمت. تكتفي بابتسامة وإيماءة من الرأس عندما تقابله مصادفة في المقهى في حمام السباحة أو ملعب التنس. لم يكن من الصعب كشف الإعجاب في نظراته لها، نظرات الإعجاب موجات سهل أن يلتقطها رادار المرأة، لم تصرح لأي من صديقاتها بإعجابه بها خشية ألّا يصدقنها وكيف له أن يعجب بها ويترك الجميلات اللواتي يتهافتن عليه؟! ثم هل سيصدقن أنها تتجاهل إعجابه؟

كان جمالها من النوع الهادئ، لونها ذهبي كما لو أنها اكتسبته من الاستلقاء على الرمال لساعات طويلة بعد دهن جسدها بالزيوت، شعرها بلون الشوكولا بالحليب، عينان واسعتان بلون حبة البندق تظللهما رموش كثيفة.

ملامح رقيقة متناسقة، كأنها رسمت بريشة فنان لا يبتغي أن يبهر نظر المشاهد بعمله من النظرة الأولى، بل يطمح في أكثر من ذلك، يطمح من المشاهد أن يتذوق عمله، وأن يكشف أسراره، ويفك شيفرته على مهل.

يطمح في كل مرة يقف المشاهد أمام لوحته أن يكتشف فيها شيئًا جديدًا، وكأنه يراها للمرة الأولى، وكانت هي مع كل لقاء تكشف لك جزءًا من جمالها وجاذبيتها، وكأنها ترفع ستارا عن لوحة رويدًا.. رويدًا.

عبر لها عن إعجابه بها في يوم من شهر أغسطس شديد الحرارة، بينما تمدد جسدها على شيزلونج أمام حمام السباحة، اقترب منها وبيده كوب من عصير البرتقال قدمه لها، وبعد حديث قصير عن طقس اليوم وقيظه أخبرها بإعجابه. ابتسمت، ارتبكت، تلعثم لسانها، كانت إجابتها فقط بـ (حقًّا). هو لم يفهم ما الذي تقصده بهذه الكلمة، هل هي تساؤل واستفسار أم تعجب واستغراب؟ تركته يتأمل في أوهامه وذهبت.

تهربت منه بالطريقة نفسها، توقفت عن الذهاب للنادي، وفي المرات التي كانت تضطرها الظروف للذهاب تتفادى المرور من الأماكن التي يتواجد فيها، ظنت بذلك أنها سوف تنساه سريعًا، هي التي لم تخبر كثيرًا من أمور الحياة، لم تعِ وقتها أن الممنوع مرغوب، ولذلك تألمت كثيرًا في محاولة نسيانه.

ها هي ـ وبعد كل هذه السنوات ـ تعيد الطريقة ذاتها مجددًا، ولكن في الماضي كانت تملك عذرها، فتاة صغيرة لا خبرة لها، الآن من الغباء أن تفعل ذلك. لماذا لا تواجهه؟ لماذا لا تقول له بصراحة: أرجوك كف عن الاتصال بي؟ لكن لأنها لم تملك الشجاعة لفعل ذلك، وجدت أن الهروب هو أفضل وسائل التحرر من شخص ما أو شيء ما.

30

لكن إذا خدشنا السطح، فستظهر الحقيقة

استطاعت كاميرا المراقبة الملحقة بالبوابة الإلكترونية بالمجمع الذي تسكن فيه أن تلتقط صورة للسيارة، وتسجل توقيت دخولها، ولكنها لم تفلح أن تلتقط التعاسة البادية عليها. كانت روحها معتمة كمغارة تسكنها الخفافيش، وانعكس ذلك على هيئتها وخاصة لون بشرتها، فمنذ صغرها يتحول لون بشرتها من الذهبي إلى طبقات ثقيلة من التراب المعتم، ويبهت بريق عينيها ويخفت، وكانت هيئتها نفسها عندما دخلت إلى البيت لتخبرها المربية أن هناك ضيفًا ما في انتظارها بالصالون. لاحظت باقة ورد من زهور المانوليا موضوعة على طاولة دائرية تتوسط المدخل الرخامي للفيلا، اقتربت منها، استنشقت عبيرها، فشعرت ببعض الهدوء.

وقع أقدام اقتربت حتى توقفت وراءها عند حافة جسدها تمامًا. لم تكن بحاجة للنظر إلى الوراء، كان عطره المميز كبطاقة تعارف يعلن عن وجوده. تسمرت مكانها كفريسة ظنت أخيرًا أنها نجت من صيادها، وعندما أقنعت نفسها بأن كل شيء بخير وجدت نفسها على بعد مرمى من الوقوع في فخه.

- اشتقت إليك.

أدارت رأسها لتنظر إليه بدهشة.

- حقًّا اشتقت إليّ.

ارتبكت، بماذا يمكنها أن تجيبه؟ بماذا يمكننا أن نجيب شخصًا غريبًا عنا بقدر ما هو قريب منا الآن على عبارة مثل: اشتقت إليك؟ والأجدر ماذا تعنيه تحديدًا كلمة شوق هنا؟ هل يقصد الشوق المتعارف عليه بين الأحبة أم شوق الأصدقاء؟ ولكن أليس في النهاية كله شوق؟ وهو الذي درس اللغة العربية الفصحى، ومؤكد أنه يعي تمامًا أن الشوق معناه (نزوع النفس إلى شيء أو تعلقها به).

الشوق: إنه الحنين والصبابة والتوق.

- (اشتقت إليك، فعلمني ألّا اشتاق) إنه مقطع من أغنية جميلة لمطرب مصري اسمه عبد الحليم حافظ.

- وهل تعتقدين أن هناك أحدًا في إيران لا يعرف سيدة الغناء العربي أم كلثوم أو العندليب الأسمر عبد الحليم حافظ؟ يا سيدتي هما من أهم الأسباب التي جعلت عددًا من الإيرانيين يتعلمون اللغة العربية. أرأيتِ كيف هو الفن مؤثر!

- ولكن..

قاطعها، وهو يقلدها في طريقة الحديث:

- من أين حصلت على عنواني؟ نعم، أعلم تمامًا أن هذا هو كل ما يعنيك. الأمر بسيط، مؤكد أنك لن تكوني في مقهى ستار باكس الواقع في كلوب هاوس هذا المجمع بتوقيت مبكر، إلا إذا كنت تسكنين فيه.

سألت رجل الأمن عن رقم مسكنك، ودلني عليه.

ثم فجأة وكأنه انتبه إلى شيء وبنبرة الاستنكار ذاتها سألها:

- ولكن هل سنتحدث وقوفًا؟ ألن تدعويني للجلوس؟

قادته للصالون المشرعة نوافذه الزجاجية على الحديقة.

- عندما لم تجيبي على اتصالاتي، ارتبط ذلك في ذهني بمرض ابنتك، وفكرت أن المرض اشتد عليها، وهذا الذي منعك من الرد على المكالمات، لذلك شعرت بالقلق وقررت المجيء.

استقبلتني المربية وأخبرتني أن كل شيء بخير، وابنتك تماثلت للشفاء حتى أنها ذهبت إلى المدرسة، وفي الواقع استغربت جدًّا من تصرفك، وأتمنّى أن أجد لديك تفسيرًا مقبولًا.

باستخفاف أجابته:

- ولماذا تعتقد أن عليّ أن أقدم تفسيرات، أعتقد أني لست ملزمة بذلك؟

توهجت عيناه ببريق، وتبدلت نبرة صوته:

- حتمًا أنت ملزمة؛ لأن هذا رد فعل طفولي وساذج، لا يجب أن يصدر عن امرأة تملك خبرتك في الحياة، لو أنك فعلت ذلك حتى أفهم منه أنك لا تريدين الاستمرار في علاقتنا، كان الأجدر بك أن تخبريني، وكنت سأتفهم الأمر.

صمتت ولم تجب، لونها بهت أكثر.

- هل يمكنني أن أسألك لماذا؟

- هل يمكنني أن أؤجل الإجابة على هذا السؤال إلى وقت آخر؟ كما ترى وصلت للتو بعد يوم عمل طويل ومرهق، ولم أتناول غدائي حتى أو أطمئن على ابنتي.

من الواضح أنك تطردينني بطريقة لائقة.

قالها، وهو يبتسم ويستعد للوقوف:

- حسنًا، سأرحل الآن وأعدك أني لن أقوم بالاتصال بك مرة أخرى. ومجيئي هنا اليوم كان بدافع الاطمئنان عليك، اعتذر لو كنت سببت لك أية مضايقة.

لم ينتظر ردها، اتخذ طريقه نحو الباب، وهو يهم بالخروج توقف أمام طاولة رخامية، عليها عدد من الصور تتوسطها صورة لها مع زوجها، يطوقها بذراعه ويبتسمان. تناول الصورة وتأملها قائلا:

- كلنا نبدو سعداء في الصور، لكن إذا خدشنا السطح، فستظهر الحقيقة.

ثم وضع الصورة ونظر إليها، وأضاف بلكنة فيها سخرية رافعًا أحد حاجبيه:

- أليس كذلك؟

وقف يطلب سيارة من أحد التطبيقات على هاتفه، وكانت هي تتأمل الصورة، ويدور في رأسها تساؤله وكانت (أليس كذلك؟) تتكرر ببطء.

- السيارة وصلت.. إلى اللقاء.

كانت السيارة تنتظره في مدخل البيت. لاحظت، وهو في طريقه لركوبها أن هناك شيئًا ما في مشيته. كان دائمًا يسير ببطء، ولكنها لم تعلم أن ذلك نتيجة عطب ما في إحدى ساقيه، كان يتكئ على ساقه اليمنى، ويبدو أن هناك ساقًا أطول من الأخرى. شعرت بالشفقة تجاهه، صحيح أن هذه العاهة لم تنقص من وسامته، ولكن لم تدعها تكتمل.

(أليس كذلك؟!) كان صداها يتردد، وهي تقف تحت المياه، وهي أمام المرآة تجفف شعرها، وهي ترتدي ملابسها، ثم صاحت (نعم، كذلك).

تمشط شعرها بعنف، وتخدش في خيالها السطح الخارجي للصورة، ليتبدل معه كل شيء، تلكما الشفتان اللتان تتفتحان على ابتسامة رقيقة تصيح وتسب، والملامح التي تعبر عن الحب والمودة تتحول إلى غضب مقيت، العين التي يملؤها الحب أصبحت حمراء تتقد كجمرة، اليد التي تطوقها بحنان كانت في بعض الأوقات قاسية، مؤلمة، وكانت بغيضة.

وقفت أمام النافذة، كان غصن شجرة الدلب يهتز بعنف، تتذكر توسلاتها إليه ليخفض من صوته حتى لا يسمعهما الجيران. كان يعلم أن أكثر شيء يستفزها هو إلقاء اللوم عليها وإهانتها بصوت عالٍ. صوت طالما وصل للجيران، وكثيرًا ما كانت تسمع منهم عبارات السخرية عند الكوافير أو في النادي والسوبرماركت.

(هل سمعتم هذا الصراخ الذي كان يملأ المجمع أمسِ؟ إنه رجل يهين زوجته).

(هل عندك فكرة في أية فيلا كانت هذه المشاجرة الزوجية؟ أعتقد أنها قريبة منكم، فالصوت كان من تجاهكم).

(لا أعرف كيف بإمكان أحدهم أن يستمر بالحياة مع شخص يهينه بمثل هذا الشكل؟).

كانت تعلم أنهن يقصدنها، ويفعلن ذلك ربما من باب السخرية أو الشفقة أو التشفي، فمن منا يعلم ما هي نية الآخر تجاهه؟!

مشاعر متضاربة أصابتها. غضب ومرارة وكراهية، لامت نفسها بعنف على هذه المشاعر، فزوجها مات، والموتى دائمًا مبجّلون ودائمًا مكرمون. لا يحق لنا أن نتذكر مساوئهم، لا يحق لنا أن نلومهم أو نعاتبهم، وهي منذ رحيله لا تفعل ذلك.

حاولت ألّا تسمح للذكريات السيئة أن تطفو على سطح الذاكرة، ربطتها بحجر لتدفن في العمق، ولكن سؤال ذلك الرجل بدد كل شيء. وها هي الذكريات تراها أمامها تعبر كمشاهد من فيلم سينمائي. لم يكن منها إلا أن أغلقت الشاشة، وهي تعزي نفسها قائلة: (هذا طبيعي ويحدث حتى بين أكثر الأزواج رومانسية، فالحياة ليست دائمًا وردية).

شعرت بحاجة ملحة أن تدخن، كانت تحتفظ دائمًا بعلبة سجائر، تخبئها بعيدًا عن متناول يدها، تضعها في جيب معطف قديم، أو تدسها بين ملابسها الداخلية في أحد الأدراج.

كانت تكره هذه العادة وتوقفت عنها منذ عدة سنوات، ولكن في بعض الأوقات التي تشبه هذه اللحظة تهرع إليها.

خرجت إلى الحديقة تنفث السيجارة وتنفث غضبها معها، الهواء البارد يعبث بشعرها المبلل، رجفة تسري في جسدها، أخرجت هاتفها من جيبها:

- أما زلتَ يهمك أن تعرف إجابتي؟

أجابها بنبرة كسولة:

- أكثر من أي وقت آخر.
- غدا في الثامنة بالريفيرا، سأنتظرك.

31
تميمة للمحبة

عندما حان دورها للتحدث عن الوثائق التي بحوزتها، وجدت نفسها دون أن تدري قد وضعت الوثيقة المرسلة من (موسي بن ميمون) التي عثرت عليها تحت الأوراق، وبدأت في قراءة وثيقة أخرى. شيء خفي دون تفسير محدد جعلها تفعل ذلك.

يافا لتُبنى وتُعمّر من جديد يوم الخميس 8 نيسان 692-1937.

(إلى حضرة نسيبي العزيز والمحترم السنيور حفظه الله وأحياه، وربة بيته الغالية (بيدة) حفظها الله:

أعرفك أنني قد دخلت المستشفى إثر وعكة صحية قبل عيد البوريم. ولكني اليوم قد تماثلت للشفاء. الحياة هنا جميلة وممتعة، أمك سمحة تهديك وافر السلام والتحية، وأختك راشيل تهديك وافر السلام والتحية. أرجو أن يشب الأولاد متمسكين بالدين ليعيدوا لنا وطننا القومي، وأنتظر قدومك لنعيش معًا).

وفي وثيقة أخرى مؤرخة 1934 مرسلة من أب يعيش في مستوطنة (بتاح تكفاه)، دعا الأب فيها ابنه بالسفر للعيش معه وترك مصر. وهناك عدة وثائق أخرى تحمل نفس المضمون؛ دعوات للسفر والعيش في إسرائيل والمساعدة في بناء الوطن.

باعتقادي أن الأمر منذ 1935 تبدل عن ذي قبل، فالوثائق التي كانت ترسل جميعها قبل هذا التاريخ كانت عبارة عن الشكاوى من الحياة وفقرها، وتظهر أن السفر للحياة في أرض اللبن

والعسل مجرد وهم. مضمون الرسائل اختلف تمامًا عن السابق، وهذا مؤكد يرجع لانتشار فكرة الصهيونية والإيمان بها والبدء الفعلي في تنفيذ مخططهم؛ ما جعلهم يملكون أملًا وحماسًا، وذلك بمساعدة التبرعات التي بدأت تنهال من جميع أنحاء العالم، وأشارت الوثائق إلى مبالغ التبرعات التي تعد كبيرة جدًّا بمعدل هذا الزمان، والتي كان يهود مصر وحدهم يتبرعون بها.

- برافو، هذه ملاحظة ذكية. فكل الوثائق المرسلة والتي تخص هذا الأمر جاءت مخالفة تمامًا لما سبقها. وهذا دليل على أن الأمر لم يعد مجرد فكرة يعملون عليها بل أصبح حقيقة وواقعًا. وهناك ملاحظة أيضًا أريد إضافتها، فهذه الوثائق تثبت أن هناك ترابطًا بين اليهود الذين سافروا للعيش في مستوطنات، وبين ذويهم ممن لم يسافروا إلى هناك، وكما لاحظنا في أغلب الرسائل هناك دعوة من الذين ذهبوا للأهل والأصدقاء والأقارب بالسفر والعيش معهم، وهذا يعد مظهرًا مختلفًا، فهو أكثر إقناعًا وثقة لانتشار الدعوة للهجرة التي بدأت تنتشر وتتأكد عاما بعد آخر في ثلاثينيات القرن الماضي، حتى كانت الأربعينيات وقيام الحرب العالمية الثانية وما تعرض له اليهود على يد هتلر؛ ما جعلهم يؤمنون بجدية المساعدة في بناء وطن والهجرة للعيش فيه.

بعد جلسة طويلة ناقشوا فيها عددًا من الوثائق، كان أغربها تميمة للمحبة صنعتها امرأة يهودية عند شيخ، مدون في الحجاب آيات المحبة في القرآن الكريم، وثيقة أخرى عبارة عن توصية أملاها يهودي مصري، وهو على فراش الموت بحضور شهود من الحاخامخانة، وذلك ليتأكدوا من سلامة قواه العقلية التي تمنح له الحق في كتابة وصية، كتب الرجل في وصيته (أخذت سكر من شيخ يُدعى (أبو نصر)، وذلك بقيمة 6 دنانير، والسكر في الدكان ردوه إليه، وأطلب تكفيني بكفن مجمل، وهو أن تقطع لي نصفية بغدادي، وجبة عتابة جديدة، وعمامة، ودرج جديد، وإن تبقى شيء بعد ما أتوفّي عليّ، فإنه لخالتي)، ووثيقة كانت أشد غرابة؛ خطاب أرسله زعيم يهود اليمن مع تاجر يهودي مصري، يسأل فيها فقهاء اليهود في مصر عن مدى مشروعية الأواني الخزفية الشفافة المستوردة من الصين، وهي من الشفافية بأن يظهر باطنها من ظاهرها، ويرى ظاهرها من باطنها.

الوثائق مؤرخة في قرون بعيدة ومتفرقة ما بين القرن الثاني عشر والسادس عشر، وتوضح قوة العلاقة التي ربطت بين المسلمين واليهود. التميمة التي صنعتها امرأة يهودية لتزيد من محبة زوجها صنعها لها شيخ، ودون فيها آيات من القرآن الكريم، الوصية التي وضعها البقال اليهودي تفيد على المعاملات التجارية بين اليهود والمسلمين، فالرجل أخذ سكرًا من تاجر مصري يُدعى

الشيخ "أبو نصر"، ولم يمهله القدر ببيعه والتربح منه، فأوصى برده له، أمّا وثيقة زعيم يهود اليمن فهي تدل على سطوة وأهمية احبار يهود مصر.

وكعادتها في الحافلة تتطلع من النافذة في انتظار أن تكتمل ويتحرك السائق، شعرت بحمل ثقيل يلقي بنفسه على المقعد المجاور لها، كانت المرأة الخمسينية بالرغم من نحافة جسدها وضآلته، ولكنه يبدو أنه ثقل الروح، تمتمت بالتحية، وبقيت متوارية قليلًا إلى الخلف، كما لو أنها لا تريد أن تثير الانتباه إلى نفسها، قامت بالاتصال برقم ما، وبصوت خفيض تحدثت:

(مركز الإشعاع، أنا نجوي منصور بخصوص جلسة العلاج، سوف أتأخر عن موعدي نصف ساعة، ثم صمتت برهة. حسنًا، سأحاول.. الطريق مزدحم، الألم شديد، أرجوك..).

من الواضح أن أحدهم كان يلقي عليها باللائمة بسبب تأخرها، ثم أغلقت الخط، وأسندت رأسها على رأس المقعد، وأغمضت عينيها.

(المرض - الألم - العلاج..). هذه الكلمات اتخذت مسارها من فم السيدة إلى أذنها تخرج ثقيلة مجسدة ألمها، أحزانها، مخاوفها. كيف كانت كلمة (الألم شديد) تحمل معها كل هذه الآهات الطويلة؟ شعرت أنها تريد أن تربت على يدها وتطمئنها (كل شيء سيكون على ما يرام، تأكدي).

32
تذكرة كالعمر لا تُقطع مرتين

الليلة جافاني النوم، كيف يمكنني أن أنعس، والشخص الذي يسكن في العنبر الملاصق لي والمنتمي لجماعة الإخوان المسلمين يتلو القرآن قبيل الفجر بصوت عالٍ، بعدها يقوم للتوضّؤ منتعلًا قبقابه الخشبي الذي يطقطق به على الأرضية بوقع رتيب. أمّا الحبر الذي يشاركني العنبر، فاعتاد ألّا يتوقف عن التضرع إلى الله ليخرجه من هذا المكان، ومن أجل ذلك يظل يقرأ نصوصًا من سفر إشعياء مرة وراء مرة بوتيرة رتيبة تكاد تفقدني عقلي. تعبرني كلمة من هنا، وكلمة من هناك، أتوقف أمام كل معنى لأجد أن ما يحث عليه القرآن هو نفسه ما تحث عليه التوراة؛ الصدق، الأمانة، الاحتشام. إذًا لماذا كل هذا العناد والكراهية والحقد؟!

لا تستغربوا أن ذلك رأيي، كل منا يحمل بداخله جانبًا أسود وجانبًا أبيض، في أغلب الأوقات يطغى الأسود ويصبغ الروح، ولكن في أوقات قليلة.. قليلة جدًّا يظهر الأبيض كوميض من البرق الخاطف، يومض برهة ويختفي، وأثناء مرور هذا الوميض في سماء روحك يمكنك أن ترى كل شيء بوضوح. نعم، هذه هي الحقيقة، ثانية واحدة يمكنها أن تظهر كل شيء لتكتشف مدى سوادك، وبعدها كل شيء يعود لسابق عهده، أبدًا لم يحدث شيء، إنه ضميرك الذي استيقظ فجأة، ثم عاد إلى نعاسه مجددًا.

سأخبركم اليوم عن الخطوة الأهم والأصعب في تشكيل التنظيم، وهي عملية نقل المتدربين إلى فلسطين ليبدؤوا العمل في البناء والتعمير. كانت الأعداد كبيرة، ومن الصعب نقلها جميعها، وذلك وفقًا لما جاء (الكتاب الأبيض) الذي أصدره مالكوم ماكدونالد وزير المستعمرات البريطانية بألّا تزيد نسبة الهجرة اليهودية إلى فلسطين على خمسة وسبعين ألف مهاجر خلال الخمسة أعوام

الأولى، وذلك بمعدل خمسة عشر ألف يهودي كل عام، وحتى يصل عدد اليهود في فلسطين إلى ما يعادل ثلث سكان البلاد تقريبًا.

وإذا قسمنا هذا العدد على يهود العالم، فسنجد أنه سيكون محدودًا جدًّا. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى بدأت الحكومة في الشك في هجرة اليهود، وربطت ذلك بالتوجه الصهيوني، فأصبحت ترفض أمر هجرتهم إلى فلسطين إلا لمن يقدم أسبابًا قوية ومقنعة. لذلك كان علينا عقد الحيل والمؤامرات لتهريب اليهود إلى هناك. الأمر لم يكن سهلا، كان صعبًا وخطيرًا؛ لذلك وكلنا هذا الأمر لمنظمة (العليا)، وهي منظمة صهيونية استخبارية نجحت في فعل ذلك بعدة حيل عن طريق البر والبحر.

الهجرة عن طريق البحر، ينقسم فيها المهاجرون لمجموعات قليلة العدد، يتخفون في هيئة بحارة، ويستقلون قوارب صغيرة من مدينة بورسعيد لتنقلهم إلى يافا، بمساعدة الصيادين المصريين الذين نعقد معهم اتفاقًا مسبقًا. من المؤكد أن شراء الذمم بالأموال ليس هناك أسهل منه، كما أن الأمر لم يمثل أهمية بالنسبة إليهم. المهاجرون يهود، وعدم وجودهم في بلادهم سيكون أفضل، والقانون الذي يمنع هجرتهم فرضه الاحتلال الإنجليزي، وكسره سيكون بمثابة تحدّ وتفوق عليهم.

هذا عن طريق البحر، أمّا عن طريق الصحراء، فلم نكن نحتاج شيئًا، لم نكن نحتاج أن نعقد صفقات مع أحد أو نرشي أحدًا. كانت أسهل أنواع الهجرات، وفي نفس الوقت كانت أكثرها خطورة، لأن المهاجرين كانوا في أحيان كثيرة يضيعون في الصحراء. كانت الأعداد أكبر بكثير مقارنة بطرق الهروب الأخرى، هل قلت (هروب) اسمحوا لي سأحذف هذه الكلمة، أبدًا لم يكن هروبًا. في الواقع هو هجرة. نعم، هجرة اليهودي باتجاه وطنه، الذهاب للوطن ليس هروبًا أَوَليس كذلك أيها الأعزاء؟!

هؤلاء المهاجرون كانوا يختفون في هيئة رعاة غنم، وبعد خروجهم من مدينة القنطرة غربًا يشترون قطعانًا من الماشية من التجار؛ وذلك ليمثلوا دورهم بإتقان، ويتجولون في الصحراء كرعاة غنم لمدة تصل إلى عشرة أيام أو أكثر حتى يصلوا إلى مدينة رحفوت.

الطريقة الأهم والأخطر كانت التي تتم عبر رحلات القطار (القنطرة - تل أبيب)، حمولة هذا القطار لم تكن من البشر فقط، كان هناك أجولة من السماد ومن البذور، صناديق من الكتب، أمتار

من الأقمشة.

كل ذلك يُشحن في مقطورة خاصة على خط القنطرة - تل أبيب، وبالنسبة إلينا كان ذلك مناسبًا.. مناسبًا جدًّا.

ينطلق القطار من مدينة القنطرة غربًا إلى مدينة تل أبيب في رحلتين من كل أسبوع، رحلة صباحية ورحلة ليلية. تنطلق الرحلة الليلية عند منتصف الليل، وبالنسبة لنا كانت هي الرحلة الأفضل، هيئة التفتيش وقتها تكون مجهدة ويغالبها النعاس، فلا تنتبه للمختبئين في صناديق الكتب، وأجولة من الخيش التي نضع على واجهاتها البصل والبطاطس والكرنب وأحيانًا الفحم، كنا نفعل ذلك حتى في حال أصر العساكر على فتح الأجولة لمعرفة محتواها وهذا كان من النادر أن يحدث في هذه الرحلات الليلية.

بعد المرور من التفتيش تفتح الأجولة، يخرج منها المختبئون عابقين بروائح البصل والكرنب وملطّخين بالفحم، وتأخذهم نوبات طويلة من الضحك، تتعالى قهقهاتهم، تصيبهم عدوى الضحك، يضحكون بهيستريا، ومن ثم ينقلب الضحك بكاء.

الأمر ليس متعلقًا بروائحهم أو بمنظرهم ولا باستغفالهم رجال وحدات التفتيش وخداعهم، في حقيقة الأمر كانوا سعداء لأنهم أخيرًا وجدوا طريقهم للحرية.

قطار (القنطرة - تل أبيب) لم يكن مجرد اسم لمحطة ركوب أو محطة وصول، كان اسمه يتداول يوميًّا في أحاديث اليهود، في جلساتهم، في مناقشتهم، وفي نكاتهم.

من يحمل أملًا بالحرية كان يقول (أتمنى أن أقطع تذكرة القنطرة - تل أبيب). تهدد به الأمهات أولادهنّ المشاغبين (سأقطع لك تذكرة القنطرة - تل أبيب)، وعندما تضجر الزوجات من أزواجهن تصحن فيهم (لماذا لا تقطع تذكرة لقطار القنطرة - تل أبيب؟!)، حتى العشاق عندما يهددون بعضهم بعضًا بالهجر يقولون (سوف أقطع تذكرة القنطرة - تل أبيب).

لم يكن خط قطار عاديًّا، كان أملًا، حرية، كان حياة. تذكرته كالعمر، كالميلاد، كالموت لا تُقطع مرتين.

33
يعيش هتلر - يسقط هتلر

قامت الحرب العالمية الثانية، وأصبح اضطهاد اليهود في جميع أنحاء العالم يتصاعد يومًا بعد آخر، كانوا يقتحمون منازلهم، ويأخذونهم في رحلات طويلة بالقطارات إلى معسكرات النازية بعد أن يلبسوهم المنامات المقلمة. الذين حالفهم الحظ واستطاعوا الفرار كانوا يحكون عن معاناتهم مع (الغستابو) الشرطة السرية لملاحقة اليهود.

جهاز من أحقر أجهزة الشرطة التي أفرزها العالم، ولد لدى اليهود الذين استطاعوا النجاة منهم خوفًا وذعرًا لا فكاك منهما، مجرد استرجاع هذه الذكريات وقصها مجددًا كان يثير فيهم شعورًا بالذعر، يمكنك بسهولة أن تلاحظه في الصوت المبحوح، في العيون الزائغة، وفي الأيدي المرتجفة.

لم يعد النازيون فقط من يرتدون السترات الجلدية والقمصان البنية، فقد استطاعوا غزو عقول العالم أجمع، حتى البلاد التي لم تكن تقع تحت سيطرتهم المباشرة، وبالطبع مصر الواقعة في صدام مع الاحتلال البريطاني كانت أرضًا خصبة للنازية التي أخذت تقوم بطرق كثيرة ومتعددة في الدعاية والاستقطاب لها بين الأحزاب والجيش والإخوان المسلمين.

وجد المصريون في هتلر منقذهم من الاحتلال البريطاني. هتلر الذي كان يقود اليهود من مختلف أنحاء العالم إلى حتفهم. في المقاهي، في الشوارع، في المدارس والجامعات، وفي البيوت، الجميع ينتظر هتلر، الجميع يرفع يده للسموات ويطلب من الإله أن ينتصر جيش الرايخ متجاهلين ما

يحدث لنا نحن يهود العالم على يد ذلك السفاح. أصبح الجو معتمًا يسوده التوتر بين اليهود والمصريين، كان كل منا يبحث عن منقذه.

كان روميل في صحراء العلمين على بعد كيلومترات قليلة من الإسكندرية، وكلما اقترب القائد الألماني من الدخول إلى مصر، كانت هتافات جماهير المصريين في البيوت والطرقات والمدن تعلو أكثر وأكثر، تعلو مع كل خطوة، مع كل اقتراب، كان خلاصهم وطوق نجاتهم من الاحتلال البريطاني. نعم، روميل النازي الذي كان يتخلص من اليهود بالحرق! الأمر لم يكن يتطلب الكثير من التفكير لنستوعب أن المصريين لم يهتموا بما سوف يؤول إليه مصيرنا.

كان بإمكان المرء وقتها عندما يسير في طريق أن يسمع هتافات المصريين (يعيش هتلر)، بينما في طريق آخر كانت مجموعة يهودية تندد بما يفعله، وتتعالى هتافاتها (يسقط هتلر). نعم، يا سادة، هكذا كانت تجري الأمور، كنا نعيش بين هتافات لنصر هتلر، وهتافات لسقوطه.

وهؤلاء الذين كانوا يرفضون فكرة عدم الخروج من مصر وبناء وطن لهم، ترى ما شعورهم، وروميل كان على بعد خطوات قليلة من الإسكندرية؟ ما الذي كان يدور في خلدهم وقتها؟ إلى أي الطرق يمكن أن تصل بهم أفكارهم؟ هل ينحازون لوطنهم على حساب عرقهم أم ينحازون لعرقهم على حساب وطنيتهم؟!

قام النادي الألماني في القاهرة بنشر كتاب يصم فيه اليهود بالإجرام، ويصفهم بأنهم جنس يستحق الحرق، وما يحدث لهم على يد هتلر هو ما يستحقونه. تجمعت مجموعة من شباب المدرسة اليهودية أمام القنصلية الألمانية، ووقفوا يشتمون ويسبون القنصل الألماني في دخوله وخروجه، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل تبرع أحد المحامين اليهود المنضمين للجمعية برفع قضية على النادي الألماني، وكان لهذه القضية أثر كبير على المجتمع المصري والدولي، وأثارت جدلًا عالميًا، وأرسل هتلر محاميًا من ألمانيا للدفاع عن النادي الألماني الذي قام بنشر الكتاب، ويوم النطق بالحكم اجتمعت أعداد غفيرة من اليهود، وأخذت تصيح (يسقط هتلر - يسقط هتلر)، رفع الحاخام يده يطلب من الجمهور شيئًا من الهدوء، ثم بصوت هادئ ورخيم بدأ في قراءة قرار المحكمة المختلطة (إن الكتاب كان يشير إلى اليهود الألمان فقط وليس اليهود المصريين، ولذلك تم رفض طلب رفع الدعوى) أثار ذلك غضب اليهود الذين تجمعوا على باب المحكمة من كل حدب وصوب، وأخذوا

يسبون ويلعنون، ولم يطيعوا الأوامر بالذهاب حتى جاءت الشرطة، ومن لم يذهب ألقت القبض عليه، ويومها زُجّ في صناديق سياراتها مئات من اليهود.

بدأ اليهود من بعدها يخرجون في مظاهرات تندد بالنازية، وتحمست إحدى الصحفيات الشابات، فقامت بنشر ملف في إحدى الصحف تدين فيه أعمالهم، وتكشف مدى إجرامهم، وسبت هتلر، ومن أجل ذلك تمت معاقبتها بالحبس لمدة ثلاثة أشهر، بالإضافة لغرامة مالية كبيرة.

لم يتوقف الحال عند هذا، استمر التصعيد مع الألمان الذين سحبوا منا التمثيل التجاري الخاص ببلدهم، فأعلنا من مقر جمعيتنا قيام (رابطة مناهضة للنزعة العنصرية)، ودعونا يهود مصر والعالم إلى المقاطعة الاقتصادية للمنتج الألماني، وشراء المنتجات الإنجليزية والفرنسية بدلًا منها، وبدأنا في طبع منشورات بقوائم المنتجات التي يجب مقاطعتها. كانت القوائم طويلة تضم الكثير من الأشياء.

وبالفعل تمكنا من مقاطعة المنتجات الألمانية، وأثر ذلك على سوقها في مصر، وردًّا على ذلك أصدرت ألمانيا قرارًا بمنع شراء القطن من مصر، وذلك حتى تضغط الحكومة على اليهود لوقف المقاطعة.

كنا نبث وقتها بقوة روح المقاومة في المجتمع اليهودي المصري بمختلف فئاته وأشكاله، وتزامنا مع ما كان يحدث لليهود في جميع أنحاء العالم تأججت نار غلهم أكثر وأكثر، امتنع اليهود عن تنفيذ طلب الحكومة المصرية بإنهاء المقاطعة، وردًّا على ذلك منعت الحكومة استيراد منتجات البلدان الأخرى عدا إنجلترا، فلجأ المورد إلى حيلة لتمرير البضائع، بوضع ملصق صنع في إنجلترا على الصناديق الكرتونية الخاصة بالمواد التي تورد لليهود، هذه بعض النماذج من نماذج كثيرة ومتعددة لمشكلات قامت في العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بين اليهود وغيرهم من المصريين وكانت مؤشر عما سوف يحدث فيما بعد.

34

قل لي كلامًا معسولًا

اختارت فستانًا أزرق غامقًا، يرسم منحنيات جسدها ويبرز جمالها. أخبرت مصفف الشعر أنها في طريقها إليه وعلى عجلة من أمرها، فطمأنها بأنه في انتظارها.

كان سيقوم بتصفيف شعرها بالطريقة الاعتيادية، ولكنها أخبرته أنها تريد شكلًا مختلفًا هذه المرة.

رفع حاجبيه مستغربًا، لأنه كثيرًا ما اقترح ذلك، وكانت ترفض.

- تبدين مختلفة اليوم.

- لماذا؟

- لا أعلم؟

- هل لأني طلبت تصفيفة مختلفة؟!

- لا، الأمر ليس له علاقة بذلك، ولكن اليوم أشعر أن ثقتك بنفسك عادت مرة أخرى كسابق عهدك، صراحة في المرات الأخيرة كنت تبدين ضعيفة ومنكسرة.

رددت خلفه:

- منكسرة.

نعم، إنه التعبير المناسب لما كانت تشعر به، ولكن ما الذي جعل الكآبة التي كانت تعشش في القلب والروح وتمنحها ذلك المظهر تبدأ في الانقشاع؟

خرجت من عنده بمظهر مختلف، أكسبها نشوة كانت تبددت في خضم الأحداث التي مرت بها مؤخرًا. وفي السيارة كانت تدندن مع أغنية في الراديو، يمكننا أن نقول إن كل شيء في مساء ذلك اليوم كان مختلفًا.

تركت مفاتيح السيارة لسائس السيارات ليصفها لها، صعدت درجات حلزونية، لتصل إلى المطعم الذي يقع على ربوة عالية.

استقبلها مدير المكان بابتسامة واسعة وأخذ منها المعطف، وهو يسألها (تودين طاولة لكم فرد سيدتي؟) لم تجبه، أخذت تدور برأسها في الصالة تبحث عنه، وعندما لم تجده زفرت بضيق، وهي ترد على الرجل (فردين).

سألها: هل تفضل مكان المدخنين أم غير المدخنين؟ ثم طلب منها أن تتبعه، وهي في طريقها لمحته يجلس في طاولة منزوية، يخفيه عن ناظرها جذع شجرة زينة. اعتذرت للرجل وشكرته.

وذهبت إليه وصافحته قائلة:

- لماذا اخترت هذه الطاولة؟ كنت سأجلس في الناحية الأخرى أنتظرك هناك، بينما تنتظرني أنت هنا.

- لا أحب أن أكون عرضة للفضوليين، لذلك اخترت هذا المكان، ولكن تخيلي أن كلًا منا يجلس على مقربة من الآخر ينتظره، وربما لم يسعفنا الحظ أن نعلم أن أحدنا يجلس في نفس المكان وعلى بعد خطوات منه، ونذهب دون أن نلتقي، ونحدث أنفسنا أن هذا الشخص لا يملك أي قدر من الذوق واللياقة، ولا يجب أن نعرفه مجددًا.

- مؤكد هذا السيناريو الذي تتحدث عنه، قد حدث وتكرر كثيرًا قبل اختراع الهواتف المحمولة.

- بالرغم من أني أحيانًا أمقت هذه التكنولوجيا، إلا أن لها مميزات لا يمكن تجاهلها.

وهو يأخذ نفسا عميقا من سيجاره:

- دعيني أخبرك أنك تبدين (مُشِعَّة).

رددت خلفه باستغراب:

- مُشِعَّة!

- نعم، لماذا تستغربين؟ تبدين كذلك حقًّا.

- استغربت الكلمة، ربما لأن لغتك الفصحى خانتك هذه المرة تقصد مثلًا..

قاطعها مؤكدًا:

- الشيء المشِعُّ هو الذي له خاصيَّة الضِّياء في الظلام، وبذلك فأنا أقصدها تحديدًا.

- هو تعبير غير شائع، نستخدم بدلًا منه كلمة أخرى (منوِّرة).

أجابها من خلف وابل من دخان السيجار:

- المعنى يختلف كليًّا، وقد استخدمت المعنى الذي أشعر به. حقًّا، تشعين نورًا يضيء ظلام روحي، أتحدث عن نفسي، ربما تبدين للآخرين منورة، تبدين متلألئة، لا تبدين أي شيء على الإطلاق.

كرّرتها في نفسها: (لا شيء على الإطلاق، حسنًا!).

وضع النادل قائمة الطعام وذهب، بعد أن ألقى عليها نظرة سريعة.

- في العادة أنا لا أتناول وجبة العشاء، وإن حدث يكون شيئًا خفيفًا، لذا سأترك لك هذه المهمة.

أجابته، وهي تبتسم:

- إنها مهمة صعبة جدًّا لو تعلم.

بعد عدة دقائق من النظر في القائمة:

- حسنًا، سنتناول خضار سوتيه، وشرائح من سمك السلمون المسلوق مع بطاطس مهروسة، ما رأيك؟

- لم أتناوله بعد لأبدي رأيي! ولكن طالما أنك اخترته سيكون رائعًا.

وهي تغلق القائمة:

- ليس بالضرورة، هذا يتوقف على براعة الشيف، وليس عليّ.

كانت تعلم أن ردّها لاذع، ولكنها تعمدت ذلك، ليفهم أنها ليست تلك الأنثى التي تؤثر فيها كلمات الإعجاب الزائفة، يجب على هذا الرجل أن يفهم جيدًا أنها تخطت هذه المرحلة العمرية بعمر.

كان يتأملها بنظرات غريبة لم تفهمها، مزيج من الإعجاب والأسف والتأسف.

- ما أخبار بحثك؟

- أعمل عليه، أوزع وقتي بين المركز العربي للأبحاث والدراسات السياسية، وزيارة المكتبات الكبرى، وأرشيف المحفوظات في القلعة، ما زلت في مرحلة تجميع المادة.

- وما موضوعه؟

- أحاول أن أثبت فيه أن نشاط عملية التداخل الثقافي العربي الفارسي بجميع تفاصيله، كان محكومًا في أغلب الأحوال بثلاثة أنظمة (الديني، والجغرافي، والزمني)، وأهمها هو النظام الديني. لقد كان لبلاد فارس دور كبير في إثراء وخدمة الثقافة العربية وفنونها، ودفعهم الحافز الديني إلى تأسيس علوم اللغة العربية، كانوا يرون أنه عمل ديني يخدمون به لغة القرآن، وأدى ذلك إلى إهمال وعدم اهتمام من النخب الفارسية بلغتهم لأربعة قرون، كانت وعاء زمانيًا كافيًا احتضن تفاعلات ثقافية معقدة، أنتجت في النهاية لغة فارسية جديدة، سميناها في النهاية (اللغة الفارسية التداخلية).

- من الواضح أنه بحث مهم، أتمنى لك التوفيق.

- شكرًا، وأنت ما أخبار عملك؟

- عثر باحث على وثيقة مهمة توضح الدور الذي لعبه يهود إيران في إنشاء الدولة الصهيونية.

- وكيف ذلك؟

- تشير الوثيقة إلى اجتماع قام به مسؤولو طائفة إيران، وقرروا فيه إنشاء صندوق لجمع التبرعات من اليهود، وجهت الدعوة في البداية لليهود من أصل فارسي، ثم بدأت توجه لجميع أطياف اليهود في جميع أنحاء العالم، وسمي هذا الصندوق بـ (صندوق الصدقات الواجبة).

- وما علاقة هذا بإقامة دولة إسرائيل؟ إنه مجرد صندوق للتبرعات، ربما تذهب أمواله لليهود المساكين والمرضى.

- لسببين، الأول أن الدعوة لجمع المال كانت توجه لجميع فئات اليهود حتى الفقراء منهم، وتحثهم على التبرع ولو بمبلغ ضئيل، إذًا هذه الأموال لم يكن الغرض منها أن توزع على الفقراء. السبب الثاني تاريخ الدعوة كان عام 1946، وبذلك يمكنك التكهن بسهولة بأن هذه الأموال للصرف على تسليح الجيش.

- هل يمكنك أن تخبريني بما ورد في هذه الوثيقة بالتفصيل؟

- لماذا؟

- ربما تفيدني في البحث الذي أعمله، فأنا أبحث في العلاقات ما بين فارس والعرب، ووثيقة مثل تلك ربما كان لها أثر بالغ على هذه العلاقة.

أخبرته عن تفاصيل الوثيقة وأضافت:

- من دعا لذلك هم يهود إيران، وهناك دعوات مشابهة ليهود مصر وسوريا والمغرب.

وضع النادل الأطباق، وتمنى لهما عشاءً شهيًا، وقبل أن يغادر الطاولة لاحظ أن الشمعة انطفأت، قام بإشعالها مجددًا واضعًا على وجهه ابتسامة تفيد بأنني هيأت لكما الجو الرومانسي.

بعد فترة صمت طويلة كانا خلالها يتناولان طعامهما، ويتردد صوت مطربة فرنسية تعيد المقطع ذاته:

(كلمني.. حدثني عن الحب.. غازلني.. قل لي كلامًا معسولًا).

- ما الذي تنوين فعله؟

وهي تمسح فمها بعد أن أنهت طعامها وتهز رأسها، أجابته:

- كيف؟

- الأمر لا يحتاج كيف؟

فكرت دقيقة، ثم أجابته بملامح تفيد عدم اكتراث:

- لا أنوي فعل شيء، أستيقظ صباحًا للذهاب إلى العمل، أهتم بابنتي، أذهب إلى الفندق مرتين في الأسبوع للعزف هناك، آكل، أشرب، أنام، أقرأ.

- لكن ألا تعتقدين أن الحياة أقصر من أن نكرر ما نفعله عدة مرات؟!

- مؤخرًا أيقنت ذلك، لكن ماذا تعتقد أنه عليّ أن أفعل؟!

- ضعي قائمة بما تمنيت فعله ولم يحدث، هوايات أردتِ أن تمارسيها، بلاد حلمتِ أن تزوريها، كل الأشياء التي تمنيت أن تفعليها ولم تستطيعي، وابدئي في تنفيذها.

فكرت مليًّا في كلامه، ثم أخبرته بصوت أقل نبرة عن المعتاد:

- بعد الوفاة مباشرة وطقوس العزاء كنت أشعر أن فكرة العودة إلى نظامي اليومي ومعاودة الحياة مرة أخرى بمثابة عدم وفاء له، كما لو أن كل حدث جديد، وكل شيء أفعله طيلة ما تبقى من حياتي سيعمل على فصلنا أكثر وأكثر. أيام ستأتي ولم يكن هو جزءًا منها، ومسافة بمرور الوقت ستزيد، لذلك توقفت لفترة عن فعل أي شيء، كان استمرار الحياة من دونه إهانة له. كنت أريد أن أُحنط الوقت، أن أوقف عقارب الزمن، لكن خارج مدار حياتي كانت الحياة تدور، وكان عليّ أن أدور معها.

- نعم، كذلك هي الحياة، لذلك يجب أن نتذاكى عليها، نفعل الأشياء التي تمنينا فعلها قبل أن ينتهي كل شيء. هيا أخبريني ما هي الهوايات التي تمنيتِ ممارستها؟

علمت أنه يريد أن يبدل الموضوع، وخاصة أن صوتها جاء بنبرة أسى عميقة.

مع مرور الوقت أصبح المكان أكثر ازدحامًا وضجة، ثرثرة، قهقهات، رنين الكؤوس، احتكاك الشوكة والسكين مع الأطباق الخزفية. وفي خضم كل هذه الضوضاء كانت الأغنيات التي لا ينصت إليها أحد تدور.

- ما رأيك لو أكملنا حديثنا في الخارج؟

- ولِمَ لا؟ الطقس دافئ الليلة مقارنة بالأيام السابقة.

دفع الحساب ثم غادرا المكان، أخذت نفسًا عميقًا من الهواء المنعش:

- يا الله لا هم لهم سوى الثرثرة!

- أزواج، أصدقاء، عشاق بموعد على العشاء، ماذا تعتقدين أنهم سيفعلون؟ مؤكد سيتحدثون ويثرثرون ويضحكون.

- وماذا لو تحدثوا بصوت خفيض؟

سارا معًا على طول الطريق، لا شيء غير الصمت يقطعه وقع أحذيتهما، ومن حين لآخر بوق سيارة من بعيد.

- الرياضة التي حلمت بممارستها هي (التزلج على الأمواج) أحببت الموج، وكنت أجد متعة كبيرة بركوبه، ولكن للأسف لم يتسنَّ لي ممارسة هذه الرياضة، فهي لا تُمارس إلا في دول معينة، ولا يوجد لها حتى مدربون هنا. لكني كنت أشاهدها وأتابع مسابقاتها وبطولاتها، وأشعر وقتها بمتعة كبيرة، أفكر في إحساس النشوة الطاغي الذي يمنحه ركوب الموجة لصاحبها.

الشارع طويل، يبدو لا آخر له، تتعانق أغصان أشجار الأكاسيا التي زُرعت على الجانبين، ينيره ضوء أصفر باهت يعكس ظلهما، يعكس ظلًا طويلًا يعلو ويهبط بوتيرة واحدة. فظهرت عاهته بشكل لافت شعرت بشيء من الأسى من أجله. فكرت أنه يحرص على أن يبدو متأنقًا بهذا الشكل اللافت لتشتت الانتباه عن عاهته.

- حدث ذلك أثناء الثورة في إيران، هؤلاء المتوحشون الذين خرجوا من الجحور ليملكوا السلطة خلفًا للشاه، رجال ونساء ممتلئون بالغضب، تعرضوا لقهر ويريدون الانتقام، بين يوم وليلة انقلب كل شيء رأسًا على عقب، امتلأت الشوارع بالدم، بجثث مشنوقة ومعلقة، وازدحمت المعتقلات، والجميع تعرض للتعذيب الوحشي، وأصبح الإعدام يتم بشكل عشوائي.

يومها اقتحم بيتنا عدد من الرجال يخفون وجوهم بأقنعة سوداء مسلحين ببنادق ومسدسات، فتشوا أرجاء البيت، طلبوا من أبي أن يمدهم بمفاتيح الخزانة، وعندما رفض حاولوا بث الرعب في قلبه، فأطلق واحد منهم رصاصة، وجدت طريقها للفأر المذعور الذي كان يقف مختبئًا خلف أمه واستقرت في ساقي، عندما شاهدني أبي مضرجًا في دمائي سلمهم المفاتيح. هرعت أمي بي إلى المستشفى التي كانت طرقاتها مفروشة بالقتلى والجرحى، أخرج الطبيب الرصاصة دون بنج وذلك لنفاده، الجزء المصاب حول الرصاصة تعرض لغرغرينا، نظرا لتأخر الطبيب في إجراء الجراحة، كان يخشى أن يجريها لي دون بنج، فانتظر أن يمده أحد المستشفيات القريبة بجرعة منه، وعندما طال الانتظار قرر إجراءها حتى لا يسوء الأمر أكثر، لم يكن أمامه سوى أن يزيل الجزء المصاب من العظم، لذلك أصبحت لي ساق أطول من الأخرى، وأصبحت مشوهًا. فقدت الوعي لعدة ساعات، ظنت أمي أني لن أعود له مجددًا، ولكنني أفقت لأجد نفسي على متن مركب يغادر بنا البلاد بحقيبة والقليل جدًا من الأموال، لم نكن نملك أكثر من ذلك بعد أن سلبونا كل شيء. عاهتي الجسدية اعتدت عليها، أصبحت جزءًا مني، ولكن هذا الاضطهاد صنع عاهة تئن بها الروح دائمًا.

أجابته بصوت متأثر:

- آسفة لسماع هذه القصة الحزينة.

- أعلم أن عاهتي واضحة للعيان، ومن يملكون قدرًا من الذوق مثلك لا يسألونني عن سببها، ولكني لا أشعر بحرج في إشباع الفضول وأحكي لمن أشعر بالألفة تجاههم فقط.

كان مبعث راحة كبيرة بالنسبة إليها أن تجد إنسانًا يتحدث هكذا مباشرة، حديث العارف، عما يجهد أكثر الناس أنفسهم في تجنب الحديث عنه، دائمًا ما ندفن عاهتنا، ومشاكلنا، وآلامنا، ونحاول أن نخبئها داخلنا ولا نفصح عنها.

وهو يشعل تبغه:

- عندما أتحدث عن عاهتي مع أحد، أشعر كأنه حمل وأُزيح عن كاهلي، جميل أن يشاركك الآخرون أحزانك، فمن أجل ذلك وُجدت الإنسانية.

- نعم، صحيح.

بنبرة استغراب يشوبها سخرية:

- صحيح، هل هذا رأيك فعلًا؟

- مؤكد، ولماذا تستغرب؟!

- لأني أشعر أنك أكثر إنسانة غامضة على وجه الأرض، ليس هذا فقط. دائمًا تظهرين كما لو أنك في حالة تأهب شرس لصد هجوم، ولا أعرف السبب في لجوئك إلى ذلك.

لم تجبه، نظرت إلى ساعة يدها:

- أريد أن أذهب، لقد أخذنا الوقت.

- الهروب إنه أكثر وسائلك حماية.

شعرت بضيق من حديثه، ضيق لأنه كشفها.

أجابته ببعض من العصبية:

- ما الذي تتحدث عنه؟ أي تأهب شرس وأي هروب؟! لم تلتقِ بي سوى عدة مرات، وها أنت تحلل شخصيتي، كأنك تعرفني منذ عشرات السنوات. أرجوك، احتفظ بهذه الانطباعات لنفسك.

أمسكها من ذراعها وأدارها إليه. أصبحت الآن في مواجهته، مواجهته تمامًا، ينعكس ظلهما على الطريق ظلين يفوقهما طولًا.

- هذه هي الحقيقة، لا تنكري.

صاحت:

- نعم، هذه الحقيقة. ما الذي تعرفه عمّا عانيته؟! ما الذي تعرفه عن شخص يعيش حياته وكل شيء حولي مظلم، بارد، فجّ، مؤلم، مربك؟

فجأة اقترب منها، قبلها قبلة بلع معها وفيها كل الكلمات. غاض الدم من رأسها، غاض دفعة واحدة، وكأنها تسقط من جرف. قبل أن تفيق من دهشتها تركها وذهب، كانت تراقب ظلًا يصعد، ثم يهبط عارجًا على ساقه الأخرى. ظل لرجل منحها في ثانية كل شيء. تسمرت مكانها، لا تدري ماذا تفعل، هل تلحق به لتلومه، تؤنبه، تصفعه، أم تشكره؟ لأنه أعاد إليها الحياة في قبلة.

لملمت نفسها المبعثرة، وعادت بنكهة قبلته على شفتيها، نكهة غريبة، نكهة لاذعة وحلوة .

جافاها النوم هذه الليلة. تعب رأسها من الصراع الدائر فيها بين لوم نفسها من ناحية، وبين شعور خفي بنشوة من ناحية أخرى.

35
الازدواجية

أنتهت الحرب العالمية لكن توابعها لم تنته، لقد تركت وراءها صدى كأزيز طائرة مرت بسرعة البرق. بعد الإبادة الجماعية لليهود، أقتنعت أعداد كبيرة منهم بأهمية أن يكون لهم وطن بعد أن علموا بمصير بني جلدتهم الذي أخذتهم إليه رحلات القطارات الطويلة، وبعد أن تأكدوا من الجرم الذي حدث لهم في معسكرات الهولوكست.

أخيرًا، أدرك هؤلاء التعساء، أن وجود وطن لهم هو مسألة حتمية، وكانت الطلبات المتزايدة للالتحاق بالحركة بعد الحرب العالمية دليلًا واضحًا على ذلك، قبلها كانت نسبة الشباب 70 في المئة، ولكن منذ ذلك الحين تبدلت الأمور، وأصبحت طلبات الالتحاق للرجال والنساء من مختلف الأعمار.

ومع ازدياد الأعداد لجأنا إلى فتح أقبية المعابد. لم نعد نرفض انضمام أحد كما كان يحدث في السابق، لقد انتهت مرحلة التكوين، تلك المرحلة المهمة والصعبة والتي كان يلزم لها أشخاص يمتلكون مواصفات معينة. الوطن أصبح موجودا فعليًا، أصبحنا نملك الأرض والجيش، وما ينقصنا هو السواعد التي تبني، ولم يعد بالضرورة أن تكون سواعد شابة وقوية، كانت حاجتنا للكبار ضرورية أيضًا.

كنا نعطيهم دروسًا في المجالات المناسبة لأعمارهم وإمكانياتهم، النساء مثلًا يأخذن دروسًا في الحياكة، والرجال في الكهرباء والإسعافات الأولية.

وبسبب انتماء عدد كبير من اليهود للصهيونية، ساد جو من التوتر وعدم الثقة بيننا وبين المصريين، مما أقلق أثرياء اليهود الذين يسيطرون على الاقتصاد المصري؛ لأن ما كان يحدث ضد

مصالحهم من دون شك، وهي وحدها التي يخشون عليها، فهم أنانيون لا هم لهم سوى أرصدتهم البنكية والعقارية.

أعلن قطاوي باشا عن قلقه وقلق الطائفة تجاه مشكلة تقسيم فلسطين. كان يحاول أن يبدي انحيازه لهم، وذلك من أجل مصالحه، وخطا على دربه جميع أثرياء اليهود في مصر، محاولين أن يخفوا حقيقة مشاعرهم، لكن ازدواجيتهم كانت واضحة للعيان.

هم يخافون على مصالحهم، ويعتزون بمصريتهم، وفي المقابل يؤيدون الصهيونية ويريدون أن يكون لهم وطن، وكان ناحوم أفندي الحاخام الأكبر أكبر مثال على هذه الازدواجية، ففي الوقت الذي كان يجب أن يتخذ موقفًا ثابتًا أمسك العصا من المنتصف؛ وذلك ولّد المزيد من الحيرة.

36

نحن عازمون على تحقيقها بالحرب

(عزيزتي أوديت، اشتقت إليك كثيرًا، الأمور هنا لا تجري كما ينبغي، العمل شاق في فرقة البغالة التي انتقلت إليها، المعاملة سيئة جدًّا، وأتمنى العودة قريبًا).

رسالة قصيرة جدًا مجرد سطر أوجز فيه كل شيء، عبر لها عن أشواقه، وحكى لها أخباره وأمنياته.

- في الحقيقة لا أعلم إن كان هناك خطأ في الترجمة أم أن هذا حقًّا اسم الفرقة الذي دوّنه الجندي.

- لا، ليس هناك خطأ. هذه الفرقة هي النواة الأولى للجيش الإسرائيلي (البغالة الصهيونية)، تأسست عام 1915 لتساعد الجيش البريطاني في الحرب العالمية الأولى، وجد الكيان الصهيوني أن انضمام شباب الصهاينة إلى هذه الفرقة سيكون في صالحهم؛ لأنها فرصة لتدريبهم على القتال وحمل السلاح، مؤسس هذه الوحدة شخص يدعى زئيف جابوتينسكي، وكان يذهب بنفسه إلى المنظمات الصهيونية، ويختار من تتوفر فيه المواصفات اللازمة للفرقة ونجح في ضم 650 شابًا، و750 بغلًا لحمل المؤن.

تعالت القهقهات.

- ولذلك سميت بفرقة البغالة، كان دور هذه الوحدة يتلخص في حمل المؤن والذخيرة للجنود البريطانيين، وتم حل الفرقة، وتشكلت بعد عام فرقة (الفيلق اليهودي)، وتتكون من تشكيلات

عسكرية من المتطوعين اليهود الذين حاربوا في صفوف القوات البريطانية والحلفاء خلال الحرب العالمية الأولى، وبلغ عدد أفراد كل هذه التشكيلات نحو 6400 فرد.

- هكذا، فجأة من فرقة لا حول لها ولا قوة إلى فيلق يبلغ عدد أفراده هذا الرقم.

- فكرة هذه التشكيلات قامت على اقتناع من قيادات الحركة الصهيونية بضرورة مساعدة بريطانيا باعتبارها قوة استعمارية؛ حتى تساعدهم هي بدورها على تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين، نعم، عملوا بخبث وذكاء على تكوين جيش لهم، هذا بالإضافة إلى أنهم كونوا جهازًا استخباريًا كبيرًا ساعدهم كثيرًا في خوض الحرب.

تحدث باحث آخر:

- هناك أخبار متفرقة في أقاصيص من صحف. مثلًا نشر مقال في جريدة الشمس، مؤرخ بتاريخ 1944 عن مؤتمر عقده (اتحاد المنظمات الصهيونية في مصر)، أقيم هذا الحفل في بيت شخص يدعى (ألبير روزانو) وهو واحد من أكبر تجار القطن في الإسكندرية، وبدأ الحفل بخطاب ألقاه (فيلكس ألتمان) رئيس الاتحاد الصهيوني (حان الوقت لقيام دولة اليهود في فلسطين، وإذا فشلنا في تحقيقها سلمًا فنحن عازمون على تحقيقها حربًا).

علّق الباحث بعد أن قرأ الوثيقة:

- تخيلوا أن هذه الكلمات لم تُقل في إحدى المستوطنات الصهيونية، ولكن في حفل كبير أقيم في مدينة الإسكندرية خلال شهر فبراير من عام 1944.

- هناك أيضًا مقال نشر في جريدة (الشمس) وهي جريدة صهيونية، عن أهمية الفرق اليهودية التي تكونت في الجيش الإنجليزي، وكيفية الاستفادة منها في تكوين جيش وطني.

مقال آخر عن استقبال العائلات اليهودية للمجندين في بيوتهم بحفاوة بالغة، وعن الحفلات التي كانت تقام لتدعم مبادئ الصهيونية، ومن أبرز هذه العائلات عائلة (يعقوب وايزمان)، وهي عائلة شهيرة عميدها يعقوب وايزمان الذي عمل في شركة شل ومن أبرز مؤيدي الصهيونية. كان يقيم حفلًا أسبوعيًّا في منزله، يدعو إليه العديد من اليهود المجندين.

وصاحب (صيدلية مظلوم) التي تقع في ميدان العتبة، كبيرعائلة دافيد وهي واحدة من أشهر العائلات اليهودية، كان يقيم بأستمرار حفلات شواء في الهواء الطلق، يستقبل فيها المجندين، يأكلون، ويطرقعون الكؤوس، ويتناقشون في السياسة حول القضية الصهيونية.

وعائلة الدكتور إنجيل وهي عائلة شهيرة أيضًا من اليهود السفارديم، كانت تقيم في قصر كبير بحي الزمالك، تعقد هي الاخرى من حين إلى آخر اجتماعات تهدف إلى جمع التبرعات واستمالة اليهود المصريين إلى الصهيونية.

أضاف أحد الباحثين: هناك وثيقة أخرى صادرة من أعضاء (محفل ابن ميمون) بمصر عام 1944 جاء فيها أن أعضاء المحفل يوافقون بكامل رضاهم على اختيار (حاييم وايزمان) رئيس المنظمة الصهيونية العالمية بأن يكون رئيسًا شرفيًا لمحفل ابن ميمون، ومن المعروف عن هذا الرجل انتماؤه الشديد للصهيونية، وكراهيته الكبيرة للعرب، وإعلان ذلك من أعضاء أكبر وأهم محفل يهودي في مصر يعتبر تأييدًا للصهيونية من نسبة كبيرة من يهود مصر. وفي نفس العام تم الإعلان عن صدور صحيفة صهيونية جديدة باسم (التسعيرة) لصاحبها ألبير مزاحي، وتوجه هذه الجريدة كان صهيونيًا عنصريًا بما تحمله هذه الكلمة من معنى، واكتشفت ذلك بعد اطلاعي على عدد من مقالاتها.

وهذا إن دلّ على شيء، فهو يدل على أن هناك تغييرًا كبيرًا حدث في الشخصية اليهودية المصرية. لم تعد الشخصية الهادئة المسالمة التي لا هم لها سوى أن تعيش في سلام، أصبحت أكثر تمردًا وجرأة وعنفًا، ولم تعد تأبه لشيء، وكأن مصر كانت بالنسبة إليهم صالة ترانزيت، ومن كان منهم يحاول الظهور بعكس ذلك فهو من أجل الحفاظ على مصالحه وليس أكثر.

والكلمة الأخيرة كانت لرئيس الجلسة:

- حدث ذلك مع بداية الحرب العالمية الثانية، عندما تبدلت الأحوال بين المصريين واليهود، فكل منهم كان له فريق مختلف عن الآخر وذلك حسب مصالحه معه، بالإضافة إلى زيادة نشاط الحركات الصهيونية مع الحرب العالمية الثانية، وهذه الوثائق التي ناقشناها والتي يرجع تاريخها لعام 1944 تثبت الكثير.

كشف الصهاينة عن عنصريتهم ونواياهم الخبيثة التي كانوا يحاولون إخفاءها. ففي بداية تبنيهم الفكرة كانوا يحاولون أن يقنعوا المصريين بأنها مجرد ترسيخ لعاداتهم وطقوسهم وثقافتهم فقط، ولكن ما إن استشعروا قوتهم وأصبح لهم كيان، بدأت تصرفاتهم تتسم بالوقاحة وليس الجرأة، فعندما يقف رئيس الاتحاد، ويعلن في أرض مصر: (الوقت قد حان لقيام دولة اليهود في فلسطين، وإذا فشلنا في تحقيقها سلمًا فإننا سوف نحققها حربًا)، وعندما يعلن أعضاء محفل بن ميمون عن اختيارهم (حاييم وايزمان) رئيس المنظمة العالمية للصهيونية وهو الأكثر بغضًا وكرهًا للعرب رئيس شرفيًا لهم، وعندما تصدر صحيفة تعلن عنصريتها الصهيونية وتبث أفكارها المسمومة، هذا بالتأكيد وقاحة.

37
مثل دمية آلية أُدير مفتاحها

في الثاني من نوفمبر 1945 والذي يوافق يوم وعد بلفور، خرج الشباب اليهودي ليحيي ذكراه ويحتفل بها. إنها مناسبة خاصة لليهود، ولكن من المؤكد لم يعجب ذلك المصريين بجميع طوائفهم، لم يعجبهم أن يحتفل اليهود بإقرار أن لهم حقًّا في تكوين وطن لهم، وكأن بركان غضب قد انفجر.

أشعلت هذه المظاهرة غضب الشعب ورجال الصحافة وخطباء المساجد، وتم الرد عليها بخروج مظاهرة ضخمة ضد الكيان الصهيوني، نظّمها الإخوان المسلمون، تعالت فيها أصوات التكبيرات، وأخذوا في تهشيم دكاكين ومحلات اليهود، وتم الاعتداء على المعابد اليهودية، وحاولوا التعدي على حارة اليهود، ولولا اتحاد لجان الدفاع الشبابية للجماعة اليهودية وتصديهم لهم، لكانت حدثت كوارث.

تعقّدت الأوضاع أكثر بين اليهود والمصريين من ناحية، وبين العرب وإسرائيل من أخرى، وأصبحنا نعيش على فوهة بركان.

يمكننا أن نقر بأن كل شيء قد تبدل في العلاقة الاجتماعية بين المصريين واليهود، فلم يعد الجار يرد تحية الصباح على جاره اليهودي، وإذا ردها يفعل ذلك، وهو يتجاهل النظر إليه أو وهو ينظر إليه شزرًا.

البقال والجزار وبائع الخضار يخفي السلع عنا، وأحيانًا يخبرنا بأنها غير موجودة وهي أمام عيوننا، ولكننا لا نستطيع أن نمد أيدينا إليها أو نخبره بأنها موجودة، لأن وقتها كان من الممكن أن يحدث ما لا تُحمد عقباه. كانت النفوس مشحونة بغيظ وكراهية، وسلوكهم تجاهنا يحمل رسالة تفيد بأننا غير مرغوب فينا، وأننا أصبحنا حملًا ثقيلًا عليهم، ولكن وقتها لم أفهم ما الذي كانوا يريدونه تحديدًا!

هل نترك مصر ونهاجر إلى إسرائيل، ومعاداتهم لنا ألم تكن من أجل ذلك؟!

خرجت مظاهرات حاشدة دعا لها حزب الإخوان المسلمين وعدد من الأحزاب الأخرى، وانضم إليهم جمهور من المصريين، ورفعوا لافتات (لا للصهيونية)، وكان مطلبهم الرئيسي أن يتبرأ اليهود من النزعة الصهيونية.

هكذا ببساطة! لا، لقد ولى هذا الزمن أيها السادة، زمن الخوف، والإنكار، زمن أن ندفن رؤوسنا في الرمال، زمن أن مصائرنا وآمالنا وأحلامنا، يتحكم فيها الآخرون. هذا الزمن ولّى ولن يعود.

أفيقوا أيها القوم، لقد أصبح لنا وطن، لنا أرض. لم نعد ضيوفًا عندكم ولا عند أي شعب، لا يهم كيف حصلنا عليه، لا يهم أننا اغتصبناه بالقوة، بالظلم، ما يهم أننا لن نسمح لأحد كائنًا من كان أن يتحكم فينا، وعلى هؤلاء الخاضعين الخانعين من اليهود أن يذهبوا إلى الجحيم.

بدأت حملة اعتقالات واسعة، اتهمت الحكومة الاشتراكيين بأنهم المسؤولون عن تفجير سينما مترو وعن عمليات التدمير والتخريب. أعلنها صراحة النقراشي رئيس الوزراء في خطاب أذيع عبر الأثير، وسمعه جميع شعب مصر الذين كانوا ملتفين حول أجهزة الراديو في المقاهي، في البيوت، في المتاجر (اليهود كلهم صهاينة، والصهاينة كلهم اشتراكيون)، وكانت هذه الكلمة إشارة البدء للقبض على عدد كبير من اليهود.

لم تتوقف الحكومة عند ذلك، بل أذعنت لمطالب حزب الإخوان المسلمين ذلك التنظيم الذي انضم إليه عدد كبير من المصريين، ووجد رواجًا كبيرًا بينهم، وكان يعادي الصهيونية بشكل قوي وواضح وصريح إلى حدّ أنه طالب باعتقال كل من يعتنقها.

أما الواقعة الكبرى، كانت عند إعلان تنظيم قانون الشركات الجديد المشهور (بمائة واثنين وثلاثين)، والذي أقر أن يخصص للمصريين في كل شركة 75 من قابضي الأجور، و90 في المائة من العمال، و75 في المائة من رأس المال.

ولكي تبدل الشركات أوضاعها على ما نص عليه هذا القانون، بالطبع كان يجب وقتها أن يُطرد الأجانب، ويُشغل عمال مصريون، وأغلب اليهود كانوا بمثابة أجانب، فهم لم يحملوا الجنسية المصرية، وبطاقة هويتهم دوّن فيها يهودي، ومع بدء تنفيذ القانون كان ميناء الإسكندرية مزدحمًا باليهود والأجانب بعدما أصبحوا عاطلين عن العمل بعد أن طردتهم الشركات، وقرروا الذهاب للبحث عن رزقهم في بلدان أخرى.

اجتمع بعدها الحاخام باليهود، ونصحهم أن يسعوا للحصول على الجنسية المصرية وذلك للمحافظة على مصالحهم من ناحية، وللولاء للبلد الذي يعيشون فيه من ناحية ثانية.

لم أفهم عن أي ولاء يتحدث؟! وأخذ بنصيحته كثير من اليهود السذج!

لعلكم تستغربون أني ألوم بني جلدتي، وأسبّهم وألعنهم. وستستغربون أكثر إذا أخبرتكم أن والدي كان واحدًا منهم، واحدًا من هؤلاء السذّج، من هؤلاء الأغبياء.

لم أستطع أبدًا أن أؤثر عليه، لم أفلح في أن أقنعه. كان واحدًا من اليهود الذين لم يستطع أحد إقناعهم بفكرة الصهيونية، إقناعه بفكرة وطن، إقناعه بالسفر للعيش في إسرائيل.

أتذكر ذلك اليوم جيدًا عندما ارتدى بذلة المناسبات الوحيدة التي يملكها، وصفف شعره إلى الخلف مستعينا بالكثير من البرلاتين، لمع حذاءه جيدًا، ثم أحكم وضع الطربوش فوق رأسه وخرج. فعل كل ذلك، وهو ذاهب إلى السجل المدني للحصول على الجنسية المصرية، كان يرى أنها مناسبة يستحق أن يذهب إليها متأنقًا، يومها سار بخطًى متسارعة مثل دمية آلية أُدير مفتاحها، صوت نعل حذائه من الكريب، وهو يهبط الدرج بوقع سريع، وقع مفعم بالأمل، كان يطرق في رأسي من حين إلى آخر.

وقبل أن يدخل إلى الموظف المسؤول مسح حذاءه في ذيل البنطلون تحسبًا لأي غبار يكون قد علق به من الطريق. تطلع إليه الموظف من أعلى إلى أسفل، ثم دفن رأسه مرة أخرى بين دفاتره،

وبنبرة لا مبالية: (سجل اسمك وعنوانك وسوف نقوم باستدعائك).

وهو خارج كان ينفض بطرف أصابعه شعرة من فوق سترته كمن ينفض خيبة أمله، وظل في انتظارهم ولكنهم لم يستدعوه أبدًا.

38

المخطوط الأصلي لدلالة الحائرين

برشلونة

قابل الكثير من النساء بأعمار وأشكال وأجناس مختلفة، منهن من يفوقها في الجمال والجاذبية. لكن طاقة مغناطيسية كانت تجذبه إليها بقوة عنيفة، قوة جعلته لا يستطيع حتى أن يباشر مهمته بنجاح.

هذه المهمة التي جاء خصيصًا لها بعد أن وقع عليه الاختيار من قبل المنظمة التي يعمل بها، يتذكر ذلك اليوم عندما كان جالسا في منزله الذي يقع في أحد ميادين برشلونة، مادًا ساقيه على الطاولة الأمامية التي تتوسط صالة، تعكس جدرانها الزجاجية أضواء المدينة من الخارج.

هاتفه تلقي رسالة، من رنينها يعلم أنها رسالة ذات شفرة خاصة، يبحث عن الريموت يجده، وقد غاص وسط وسادات الأريكة، ينتشله ويدير الشاشة المعلقة أمامه والتي تشغل مساحة كبيرة.

يفك الشفرة ويوصل هاتفه بقناة متصلة بالشاشة، في البداية الصورة يشوبها بعض التشويش، ثم تتضح الرؤية شيئًا.. فشيئًا.

إنه رئيسه الذي يتلقى منه المعلومات خمسيني بوجه منتفخ، وشعر أشقر قصير مجدول كشعر خروف، ظهر في مربع صغير أعلى الشاشة، بينما شغلت صورة امرأة الشاشة بأكملها.

الهدف: مانوليا أحمد جبريل

السن: 37 عامًا

الجنسية: مصرية

تبدو سمراء فاتنة، تبتسم فتنغرز الغمازة بجانب وجهها، فتزيد من جاذبيتها.

تساءل: ما الذي يمكن أن يكون وراءها؟!

تبدّلت الصورة لمخطوطة مزخرفة، علّق الرجل ذو الوجه الأحمر المنتفخ بصوت له صدى:

- هذه وثيقة نادرة لمخطوطة (دلالة الحائرين)، وهو السنن النظامية للقانون اليهودي. وضعها في القرن الثاني عشر الطبيب والمفكر مايمونيدس المعروف بـ (موسى بن ميمون)، وهو مقسم إلى ثلاثة أجزاء: الجزء الأول عن الوجود الإلهي، والجزء الثاني عن الاستدلال على هذا الوجود، والقسم الثالث يناقش قضايا تعني بفلسفة الأخلاق.

ترجم هذا الكتاب في حياة ابن ميمون المترجم صموئيل بن طبون، وقام بتزيين حواشيها برسوم ولوحات مزخرفة بماء الذهب فنان إيطالي شهير يدعى (ماتيو دي سير كامبيو)، وقد عكف على العمل في هذه المخطوطة ما يقارب العام.

أثار الكتاب الكثير من الجدل في الأوساط اليهودية، ورأى البعض في الأفكار التي وردت فيه أنها ضد الدين. بعد موت ابن ميمون اختفت النسخة المترجمة من معبد موسى بن ميمون الواقع في حارة اليهود بالموسكي بالقاهرة.

بعد عدة أشهر ظهرت هذه النسخة مرة أخرى في مكتبة المعبد. لا يعرف أحد ظروف ظهورها، ومن الذي جاء بها ووضعها على نفس الرف في المكتبة.

أمّا المخطوطة الأصلية التي كتبت بخط موسى بن ميمون، فليس لها أثر، وهناك أقاويل أنها دفنت في (الجينزا اليهودية) بمقابر اليهود بالبساتين.

الهدف يعمل في لجنة خاصة للبحث والترجمة في وثائق الجينزا التي تم استخراجها مؤخرًا من جينزا البساتين، والمطلوب منك الحصول منها على معلومات بخصوص هذه الوثائق التي

يقومون بترجمتها، ومعرفة إذا كانوا عثروا على هذه المخطوطة ضمن الوثائق التي عثروا عليها أم لا؟ وفي حال عثروا عليها سنضع خطة للوصول إليها. سنرسل لك تقريرًا كاملًا ووافيًّا عن الهدف.

39

الهايكستب

أرجوكم لا تغلقوا الدفتر وتذهبوا. أعلم أن البعض منكم ربما قد يكون أصابه السأم من هذه الأحداث، علمًا بأني أبذل قصارى جهدي لأقصها عليكم بشكل مشوق ومثير، لكني لن أحتاج لأي جهد مرة أخرى، فالأحداث القادمة مثيرة بطبعها.

ظلت الأوضاع من سيّئ إلى أسوأ، وفي عام 1947 بعد التصويت في الأمم المتحدة على قيام دولة إسرائيل أعلن العرب محاربة إسرائيل، وانضمت مصر للجيوش العربية، وفي بيان رسمي أذاع البرلمان المصري أمر الحرب.

يومها كنا في فندق مينا هاوس نحضر إحدى الحفلات التي تقدمها فرقة رقص قادمة من إسبانيا، انضم إلينا أحد الأصدقاء، وعلى أنغام الفلامنكو زف لنا الخبر:

- أتجلسون هنا والحياة مشتعلة بالخارج؟!

سأله واحد منا بلهفة:

- لماذا؟ ماذا حدث؟

- أعلن البرلمان المصري منذ قليل موافقته على انضمام مصر إلى الحرب، قرر الملك فاروق أن يخوض الجيش المصري الحرب ضد الميليشيات الصهيونية، ومنذ سماع المصريين هذا القرار، وقد خرجوا إلى الشوارع والطرقات في مظاهرات احتفالية.

كانت مرارة الكلمات أمر من مذاق الويسكي الذي كنت أتجرعه. نعم، هذا ما حدث، بالرغم من كل شيء هناك شعور غريب، شعور كغصة في القلب. هل ستخوض مصر الحرب ضد إسرائيل؟! هل يمكن أن يحدث هذا؟! هل يمكن أن يقف الجندي المصري ليقاتل جنديًا يهوديا؟! ربما كان زميله في المدرسة، أو جاره في السكن، أو صديقه الذي كان يخرج في أيام السبت معه للتريض على نهر النيل.

علّق واحد منا:

- ولكن النقراشي باشا أعلن رفضه لخوض حرب ضد إسرائيل.

- لم يستطع أن يصمد أمام الرأي العام الذي يطالبه بخوضها. ألم تشاهد أو تسمع عن المظاهرات التي خرجت، تندد بقرار عدم مشاركة مصر في الحرب؟ لذلك اعترض الملك على قرار النقراشي، وأبدى موافقته واستعداده للمشاركة.

قهقهت بسخرية:

- ومنذ متى والملك فارق يهتم بذلك؟! ربما يريد أن يقيم لنفسه هناك سرايا في القدس، ويعلن أنه حامي حماها!

أضاف أحدهم:

بعدها بعدة أيام، علمت كم كنت طيب النية عندما اعتقدت أن اليهود أغبياء وسذج فقط، بل كانوا أوغادًا أيضًا! لقد تطوع عدد من اليهود لمعاونة الجيش المصري، تطوعوا لقتال من صنعوا لهم وطنًا، من صنعوا لهم مكانة. هل هناك أحقر من ذلك؟!

قررت الجيوش العربية مجتمعة أن تحارب دولة، نشأت بعد ألف عام من الشتات. هكذا ببساطة، قرروا أن يهدموا حلمًا، قرروا أن يجهضوا أملًا، أن يحطموا نبوءة؛ وذلك بمساعدة من؟! بمساعدة يهود مصريين! يهود مصريين وجدوا أن ما يفعله الصهاينة اغتصاب واحتلال لوطن لا حق لنا فيه، فليذهبوا للجحيم هم وآراؤهم واعتقاداتهم.

في هذه الأثناء، كانت الأمور تتطور إلى الأسوأ، أصبح وضع اليهود قلقًا جدًا؛ لذلك اتفقت مع أرتين أن أوقع عقدًا مزورًا، أبيع له فيه حصتي في المكان، تحسبًا لأي ظروف، وبدأت أقلل من مرات ذهابي إلى هناك، وفعل مثلي أعداد كبيرة من اليهود. كان البوليس السياسي يقوم بعمليات مراقبة دقيقة للنشاطات التجارية التي يمتلكها اليهود؛ ولذلك باع كثيرون منهم ممتلكاتهم، وصفّوا أعمالهم، وبقوا في الانتظار، ولكن انتظار ماذا؟!

كانت حالة النصر أو حالة الهزيمة سيان بالنسبة إلى وضع اليهود هنا، لو انتصر العرب، فاليهود سيبقون دائمًا محل شك وريبة، ولو انتصرنا فهذا معناه أن وجودنا هنا غير مرغوب فيه.

الجميع كانوا يشكون في قدرة الجيش الإسرائيلي على النصر حتى أنا، كان قلقنا وقتها كيف بإمكان ستمائة ألف جندي يهودي أن يقاوموا قوة الجيوش العربية مجتمعة؟! استمرت الحرب لمدة عام، تخللته هدنات متقطعة، كنا وقتها لا نعلم حقيقة ما يحدث، كانوا يتحدثون في الإذاعة والصحف عن انتصاراتهم، عن بطولاتهم، ولكننا فعلناها، فعلناها وانتصرنا.

ذهبنا إلي معبد موسي بن ميمون لنحتفل، رفعنا الكؤوس في نخب تحقيق الحلم، تحقيق حلمنا الذي عملنا بجهد واصرار على تحقيقه درات الموسيقي وقف الرجال في دائرة وتشابكت الأيادي ورقصنا الهورا. كان عددنا قليل ولكن كنت أشعر بوجود كل من سبقونا من اليهود وحلموا بوطن يشاركوننا الرقص يشاركوننا السعادة، وزهوة الانتصار.

بعد انتهاء الحرب بخسارة العرب، أصيبت الحكومة بهياج، وفي غضون أيّام قليلة، وضعت حراسة مشددة على عدد كبير من اليهود دون أي اعتبارات، كانت سابقا تقيم وزنًا واعتبارًا لكبار اليهود وأثريائهم، ولكن بعد الحرب لم يعد يعنيها شيء.

ألقي القبض على أعداد كبيرة من أعضاء المنظمات الصهيونية وحوالى ألفي يهودي، ومصادرة أملاكهم بتهمة تمويل هذه المنظمات، كان لدى الحكومة قوائم بأسماء كثيرة، وكان اسمي من بينها.

قبضت الشرطة على الشيوعيين من اليهود والمسلمين. حبسونا في المدرسة اليهودية بالعباسية لمدة ثلاثة أيام، بعد أن تمت حراستها من جميع الجهات، ثم نقلونا إلى (الهايكستب) المكان الذي أكتب منه الآن.

نعم، يا رفاق، أنا أكتب لكم من قاعدة حربية أمريكية مهجورة تقع وسط الصحراء على بعد خمسين كيلومترًا من القاهرة.

كان المعسكر مزدحمًا بأعداد كبيرة من مختلف الأعمار والتوجهات. بجانب الصهاينة كان هناك أعداد من المصريين، شيوعيين ويساريين، وأعداد كبيرة من حزب الإخوان المسلمين.

انقسمنا لمجموعات، كل مجموعة أخذت جانبًا خاصًا بها، فلم يغفر الصهاينة لليهود الشيوعيين أنهم أسسوا الرابطة اليهودية لمناهضة الصهيونية. والإخوان المسلمون كانوا لا يطيقون الصهاينة، اليساري يكره الشيوعي، والشيوعي يحتقر اليساري.

نعم، كانت الأمور تجري هكذا في البداية، ولكن مع مرور الأيام، في هذا المكان المهجور في منتصف الصحراء، المغلق، والمظلم، كان علينا أن نتوحد، أن نتكاتف، أن نضع آمالنا وأحلامنا جنبًا إلى جنبٍ، وعزائمنا على النجاة الواحدة بجوار الأخرى، والأهم من ذلك أن لا نيأس أبدًا.

تحول هذا المعتقل إلى مكان ثقافي وترفيهي. كنا نقيم مسابقات وعروضًا مسرحية في أيام الأحد والخميس من كل أسبوع.

هكذا استطعنا أن ننتصر على اليأس، على ثقل الوقت، على الحبس، والأغرب من ذلك كله أننا نسينا كل شيء، نسينا اختلافاتنا في العقائد والمعتقدات والأهداف.

في الواقع، لم أكن في مزاج يسمح لي بإقامة صداقات أو المشاركة في مسابقات وبطولات. كان شريط الحياة برمتها في هذا المكان المعزول عن العالم يجري أمامي صباحًا ومساءً، وُلد في داخلي أسئلة وتساؤلات غريبة، قررت معها أن أكتبها لأتخلص من حملها الثقيل، ربما تجد تلك التساؤلات المستعصية عن التفسير أجابات.

40
ذئاب متوحشة

يومًا بعد يوم كان يستقبل المعسكر نماذج مختلفة من المعتقلين، في أحد المساءات جاءت سيارة بجنود مصريين ولاجئين فلسطينيين، جنود بلحى طويلة، وشعور مشعثة ورائحة اقرب للجيفة. في صباح اليوم التالي عندما اجتمعنا في عنبر الطعام لتناول الفطور، انقض هؤلاء الجنود على مجموعة من الصهاينة، وأخذوا يضربونهم بشراسة، لدرجة أن أحدهم انتزع بأسنانه أذن سجين صهيوني.

بعد جهد طويل استطاع الحراس أن يخلصوا الصهاينة من بين أيديهم، وقاموا بعزلهم في زنزانة خاصة. علمت بعدها أن هؤلاء الجنود كانوا مجموعة من الفلاحين لا خبرة لهم بأي شيء، أخذتهم الحكومة عنوة من أرضهم، وأعطتهم سلاحًا يجهلون طريقة استخدامه، وأخبرتهم أنهم سوف يذهبون لمقاتلة العدو، لكن أي عدو وكيف ومتى وأين؟ لم يخبروهم شيئًا.

ألقوا بهم أمام مقاتلين اقوياء وشرسين، كانت جثثهم تفرش الأرض بعد أن قتلوا غدرًا، هم لم يحاربوا، لم يواجهوا عدوا، كانوا يقفون وجها لوجه امام الموت بعد أن قدمهم قائدهم له على طبق من فضة.

لذلك كانوا مشحونين بالكراهية والحقد تجاهنا، وتجاه قادتهم الذين ذهبوا بهم إلى التهلكة. بعد عدة أيام تم السماح لهم بالخروج من زنازينهم الانفرادية والجلوس معنا، بعد تحذير قاسٍ بأن من يفعل شيئًا، فسيُعاقب عقابًا جسيمًا.

انتابني الفضول لمعرفة قصتهم، اقتربت بحذر من واحد منهم، وتعرفت إليه بعد أن قدّمت له سيجارة، فتح لي قلبه، وحكي لي كل شيء. هذا المكان كان محرضًا على الكلام، على الفضفضة، يكفي أننا سجناء، ومن الصعب أن نسجن أفكارنا أيضًا.

أخبرني هذا الشاب الذي لم يتجاوز الخامسة والعشرين عن ألمه ومعاناته وما قاساه في الحرب. كان يرى أجساد زملائه تتراشق، وتسقط على الأرض واحدًا بعد الآخر، ثم وجد نفسه فجأة أعزل ووحيدًا وسط مجموعة من الذئاب المتوحشة، كانوا يقاتلون بأقسى أساليب الوحشية في الكون، لم يكن يكفيهم أن الجسد أصبح بلا روح، كانوا يصرون على تمزيقه إربًا بوابل رصاصهم. وصلت الحيوانية بأحدهم أن شق صدر زميله وانتزع قلبه، ثم دخل في نوبة بكاء هستيرية، دون أن أشعر اقتربت منه وضممته إليّ.

كانت المرة الأولى التي أضم فيها أحدًا. المرة لأولى التي أتعاطف مع أحد. وانظروا من قمت بضمه ولماذا؟! لمواساته على جرم فعله الصهاينة من تلاميذي الذين كنت أبث فيهم الحقد والسموم والكراهية ونجحت، نجحت في ذلك. نجحت حتى أن أحدهم شق صدر قتيل وانتزع قلبه. فهل عليّ أن أفتخر، أن أزهو بنفسي؟! ما حدث هو العكس.

نزعته مني بقوة، وكأني أحاول أن أنزع تلك الأحاسيس. لا، مستحيل، مستحيل أن أتعاطف أو أشعر بالذنب تجاه ذلك، تجاه ما صنعته على مدار عشرين عامًا، من أجل استعادة أرضنا، ولم شتاتنا.

ولكن كلما حاولت أن أبعد هذا الإحساس عني، كان يطاردني ويلتصق بي ويتوغل فيّ أكثر وأكثر. لماذا؟ وما الذي حدث تحديدا؟ هل سبب تواجدي هنا في ذلك المكان المغلق على يهود وصهاينة وشيوعيّين وثوريّين وإخوان مسلمين؟ بالرغم من انتماءاتنا وأهدافنا وخططنا وتطلعاتنا المختلفة، توحدنا معًا في هذا المكان المنعزل.

هذه المساحة الصغيرة جدًّا من العالم والمنفصلة عن كل شيء، استطاعت أن تفعل ما لم يستطع العالم الكبير الواسع أن يفعله، استطاعت أن تضمنا، أن توحدنا، أن تذهب بنا لفطرتنا الأولى، وتعود بنا لإنسانيتنا.

ابتداء من ذلك الوقت أصبحت أعاني من شعور متعاظم بالذنب، وأخذ هذا الشعور يقلقني، وأصبحت متيقنًا أن عليّ الهروب من شيء، ولكن ما هو هذا الشيء؟!

الهروب مما فعلته خلال السنوات الماضية أم الهروب من ضميري الذي استيقظ؟

أصبحت كذلك لفترة، أراجع حياتي كبكرة فيلم تعود بي إلى الوراء، بينما أنقب في تفاصيلها مرارًا وتكرارًا؛ لأجد لنفسي عذرًا وسببًا يقنعني بما وصلت إليه، بما صنعته، ولكن في لحظة خروجي من المعتقل انكسر الفيلم، وانتهى كل شيء، وعادت الأمور إلى طبيعتها.

كان ذلك في أحد الأيام، عندما أعلن قائد المعسكر الإفراج عن جميع المساجين، وذلك بعد عقد اتفاقية رودس (اتفاقية الهدنة العامة المصرية - الإسرائيلية) التي تنص على تبادل الأسرى بين المصريين والإسرائيليين.

طلب وقتها عدد كبير من الصهاينة أن يتم تهجيرهم إلى إسرائيل، وتحقق طلبهم.

أنا لم أفعل ذلك؟ لم أطلب السماح لي بالهجرة إلى إسرائيل؟ لماذا لم أطلب؟ لماذا كان عليّ الاستمرار؟!

41
المحاربون من أجل إسرائيل

كالعادة، كانت الردهة المؤدية إلى قاعة الاجتماعات في هذا التوقيت الصباحي المبكر تضج بالجلبة، وتفوح برائحة القهوة.

أمام ألة اعدادها وقف طابور من الباحثين، يضعون العملة، ويضغطون الزر المناسب لطلبهم، ليحصلوا على كوب من القهوة، يبدد نعاسهم ويمنحهم الطاقة اللازمة لما هم مقبلون عليه.

اقتربت باحثة بشعر أحمر ناري، وبتايير من اللون البنفسجي، وقالت بامتعاض:

- إنها التاسعة، ماذا سوف يحدث لو أجلوا موعد هذه الاجتماعات اللعينة إلى العاشرة أو الحادية عشرة؟!

قالتها: وهي تزيح المقعد للخلف، ودون أن تنتبه انسكب كوب القهوة على ملابسها صاحت:

- يا الله هذا ما كان ينقصني!

بدأ الرئيس الاجتماع بعد أن ألقى تحية الصباح على الجميع، وطلب منهم تقديم الوثائق المهمة التي وجدوها. تحدث صوت يحمل كثيرًا من الحماس:

عثرت على وثيقة أعتقد أنها مهمة جدًا، فهي مرسلة من جهة تدعى (المحاربون من أجل إسرائيل) مؤرخة في يناير من عام 1948، تفيد بأن كل شيء جاهز، وأنهم على أهبة الاستعداد:

(نملك الكثير من العدد والعتاد أمدتنا الحركة في أمريكا وأوروبا بأحدث أنواع الأسلحة، لقد تم إيفاد عشرين طائرة عسكرية من بريطانيا العظمى، وعدد من السيارات المجنزرة. اشحنوا همم شباب اليهود، وادعوهم للتطوع؛ حتى يحقق الكيان الصهيوني ما بدأه منذ سنوات طويلة وسعى إليه، لم يعد بيننا وبين تحقيق الحلم سوى خطوات معدودة)

- إنها رسالة اطمئنان بأنهم مستعدون لخوض حرب 48، ووجود وثيقة مؤرخة في هذا التوقيت المتأخر نسبيًا في مقابر الجينزا مؤشِّر يفيد أنهم حرصوا على الاستمرار في دفن الأوراق المهمة، ربما حدث ذلك في سرية دون طقوس احتفالية، حتى وإن كانوا يخططون لترك البلد فهم على يقين أن هذه الوثائق لن تقع في يد أحد، ودفنها سيكون إلى نهاية البشرية.

قاطعه باحث:

- في الواقع، لا أستطيع أن أصدق أن دولة ليس لها وجود،
يستطيع جيشها أن يحقق النصر، ويلحق الهزيمة بجيوش هذه الدول.

جاء صوت من آخر الطاولة:

- استمرت الحرب من 15 مايو 1948 إلى 11 يونيو 1949، تتخللها هدنات، أحيانًا قصيرة وأخرى طويلة. جاء قرار الحرب تعبيرًا عن غضب العرب ضد قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين، وكمثل كل القرارات الحاسمة التي تؤخذ في أوقات الغضب، كان قرارًا متسرعًا غير مدروس، ومن المؤكد أن عواقبه كانت مجهولة لجميع الأطراف.

تحدث الباحث المتحمس:

- ولكنه كان قرارًا جماعيًا للبلدان العربية بدخول الحرب، ربما نستطيع أن نصدق واحدا منها أو اثنين تسرعا في اتخاذ القرار، ولكن جميعها...؟!

اجابه الرئيس

- الأمر ليس كما تتصور، لقد وضعت البلاد العربية تحت ضغوط كثيرة، أولها وأهمها الضغط الشعبي، وثانيها الضغط النفسي بسبب الشعور باليأس بعد أن حقق الصهاينة مأربهم،

وانتصروا على جميع محاولاتهم بوقف قرار التقسيم، كان قرارها لمحاربة إسرائيل، من أجل التخلص من شعورها الطاغي بالخذلان والخزي.

شرب من كوب الماء الذي أمامه، كمن يريد أن يبتلع إهانة ما، ألمًا ما. نعم، بعد كل هذه السنوات ما زالت ذكرى هزيمة 48 تخلف لدى الكثيرين غصة في القلب.

- قبل اتخاذ قرار الحرب، تألفت قوات غير رسمية من أهل فلسطين ومن البلاد العربية، ووضعت دولها تحت الأمر الواقع بعد أن طلب المنتمي إليها منهم أن يمدوهم بالسلاح واخضاعهم للتدريب، وبالفعل أمدّتهم الدول بسلاح وتدريب على أيدي قادة وضباط من الجيوش، وكانت الدول العربية تعتقد أن قوات المتطوعين كافية، حتى علمت بالاستعدادات الكبيرة التي يجريها الصهاينة لدخول الحرب؛ لذلك قررت خوض الحرب بكامل قواتها.

- معنى كلامك أن القادة العرب كانوا سيدخلون الحرب بالجنود المتطوعين فقط! هل وصل بهم الاستخفاف إلى هذه الدرجة؟!

- الأمر ليس له علاقة بالاستخفاف، نظّمت إسرائيل جيشها في سرية تامة، ولم يكن لدى القادة العرب فكرة عن حقيقة عدوهم، اعتقدوا أنهم مجموعة من القوات العشوائية غير النظامية، كوّنت أسلحتها من مخلفات الحرب العالمية.

واصل الشاب المتحمس:

- عذر أقبح من ذنب، كان عليهم أن يبحثوا وراء حقيقة عدوهم.

- القرار اتُّخِذ سريعًا، في مصر مثلًا كان هناك الكثيرون من القادة والسياسيين ضد خوض الحرب، وأعلنوا بصراحة عدم استعداد الجيش المصري لخوض حرب في هذا التوقيت، وعقد البرلمان جلسة مهمة طارئة، ناقش فيها أسباب قرار البعض بعدم دخول الحرب، وأعلن بعض قادة الجيش بصراحة أن قدرات سلاح الطيران والسلاح البحري بالجيش المصري ضعيفة، وأن الجيش بشكل عام يعاني نقصًا في الخدمة الميدانية وعناصر الخدمات الطبية، ولكن الملك فاروق رفض قرار النقراشي باشا، ووصل الأمر بينهما للدخول في نقاش حاد وعنيف، كل من الطرفين كان يصر على رأيه ويرى أنه صواب.

علقت السيدة الخمسينية بصوت يكاد يكون مسموعًا:

- ولكن ما السبب في هذه الروح القومية التي تلبست الملك فاروق؟!

- كان يطمح في الزعامة العربية وليس أكثر، وعدم خوضه الحرب كان - بالتأكيد - سيحول دون حدوث ذلك. فور قرار خوض مصر الحرب بدأت في بناء مصانع للأسلحة والذخيرة لتكفي حاجة الجيش المصري، وهذه المرة الأولى التي لم تدخل رؤوس أموال يهودية في مشروعات مصرية، هذه المشروعات قامت برؤوس أموال وبسواعد مصرية، وأثبت أصحابها وطنية صادقة.

بصوت يملؤه تملؤه الحسرة:

- والمؤكد أن كارثة الأسلحة الفاسدة كان لها أثر كبير. أقر البرلمان دخول الحرب قبلها بيومين فقط، هل تتخيلون ذلك؟! نبدأ في التخطيط لرحلة الإجازة الصيفية قبلها بشهور على الأقل، ولكن قرار دخول حرب استغرق يومين. كل شيء جاء على وجه السرعة، ودون سابق ترتيب. كونت لجنة (احتياجات الجيش) في 13 مايو 1948، وتم منحها صلاحيات واسعة لشراء السلاح وتحديد مصادره وأنواعه في أقرب وقت دون رقابة. ومع حظر مجلس الأمن بيع أسلحة للدول المناهضة لإسرائيل، لجأت اللجنة لعقد صفقات مع شركات السلاح تحت غطاء أسماء وسطاء مصريين وأجانب؛ للتحايل على القرار. وللأسف كانت هذه الأسلحة والمعدات من مخلفات الجيوش في الحرب العالمية الثانية التي وجدت في الصحراء الغربية.

بعد أن أنهى كلامه ساد الصمت ثم قطعه قائلًا:

هل تم العثور على أية وثائق أخرى مرتبطة بالحرب؟

- نعم، لقد عثرت على عدة وثائق، منها اثنتان صادرتان من الحاخامنية المصرية، وهما على تناقض.

الرسالة الأولى من الحاخام الأكبر ناحوم أفندي ومؤرخة 28/5/1948:

(النداء الذي أمرت بتلاوته من أسبوعين في جميع المعابد الإسرائيلية بالمملكة المصرية عند فتح الهيكل المقدس بتلاوة المزامير والابتهال إلى الله عز وجل بأن يكلل بعنايته مولانا جلالة الملك القائد الأعلى للجيش المصري، ويحيطه برعايته للبلاد رمزًا لمجدها ورفاهيتها. أتوجه إليكم مناشدكم بالاستمرار في ما تجود به نفوسكم الكريمة للترفيه عن جنود الجيش المصري، وأن يقوم كل منكم بإرسال تبرعه إلى صاحب العزة سلفانور شيكوريل بك رئيس مجلس إدارة الطائفة الحاخامنية، وهذا عملًا بما ناشدنا به رسلنا وأنبياؤنا، وتذكروا أنّ سلامة الوطن من سلامتنا)

وهناك وثيقة أخرى، صدرت من الحاخامنية بعد ظهور النتائج الأولى للحرب وحدوث مشكلة اللاجئين الفلسطينيين، أصدر الحاخام الأكبر منشورًا آخر، يطلب فيه من اليهود أن يقوموا بالتبرعات، ويضعوها في جمعية الهلال الأحمر لمساعدة اللاجئين، وفي وثيقة أخرى دعا حاخام طائفة القرائين للصلاة والابتهال لتحقيق النصر لمصر، وهناك أيضًا اكتتاب لتجار اليهود الأثرياء لشراء طائرة للجيش المصري.

رد الباحث المؤرق بمشاكله المالية:

- التبرع للترفيه عن الجيش المصري في فلسطين، يا لها من دعابة سخيفة! أي عقل يمكنه أن يصدق ذلك؟!

- هذه الدعوة تكشف الرياء الذي كانوا يعيشون فيه، فالسيد شكوريل الذي دعا لذلك كان أخوه يتولى أخطر تنظيم صهيوني.

استكمل الباحث حديثه، وهو يمسك بيده وثيقة ويعرضها عليهم:

- هذه الوثائق كان من الممكن تصديقها وعدم الشك في نية اليهود، على اعتبار أن هناك منهم من يستنكر ما حدث بالرغم من قلة عددهم، ولكن هذه الوثيقة المرسلة من حاخام القدس إلى الحاخام الأكبر في مصر، وهي واحدة من مراسلات كثيرة بينهما لمناقشة الأوضاع تكشف كذبهم: (إن الأمر أصبح أشد خطورة الآن مما كان عليه في السابق. أتفهم موقفك تمامًا، وحرصًا على مصالح اليهود يجب عليك أن تستمر على هذا النهج الذي تسير عليه، يجب ألّا يشك أحد في ولاء الحاخامنية المصرية، أعلم أنه أمر صعب عليك أن تطلب من اليهود التبرع بالأموال للجيش المصري، وذلك ليقتل بها العرب الصهاينة الذين يحاربون من أجل وطننا إسرائيل، ولكن ما باليد

من حيلة. عليك أن تعمل على ذلك حتى يستطيع اليهود الخروج الآمن من مصر، وقريبًا جدًّا سينتهي كل شيء).

علّق الرئيس:

- وهذه الوثيقة كشفت أن الأمر كان مجرد خديعة للتوازن السياسي، وذلك حفاظًا على مصالح اقتصادية.

42
خيوط ذائبة

سأخبركم قصة عن رجل يعتبر مثالًا لهذه الازدواجية، إنه شخصية يهودية كما قال الكتاب. هو واحد من كبار أثرياء اليهود يُدعى (سالم أوفدايا)، وفي الأصل اسمه (سالم عويضة)، ولكنه أراد أن يملك اسمًا أجنبيًا، فبدل اسمه ليصبح أوفديا. كان يشغل منصب مدير لشركة السلفيات المصرية التجارية.

توقف برهة عن الحديث، ثم أضاف وكأنه تذكر شيئًا:

- أريد أن ألفت نظركم إلى شيء مهم أن اليهود كانوا دائمًا يضيفون كلمة (المصرية) لاعمالهم، وذلك تعبيرًا زائفًا عن وطنيتهم، لأن معظم هذه الاعمال لا دخل لمصر فيها بشيء غير أنها قائمة على أرضها. رؤوس الأموال معظمها أجنبية، والمستثمرون من يهود مصر ويهود الخارج، والعاملون من اليهود.

نعود مرة أخرى لقصة أوفدايا. هذا الرجل كان واحدًا من أكبر المتبرعين للجيش المصري في فلسطين، وكان دائمًا يعقد المؤتمرات ويخطب فيها لدعم الجيش، وكان يقوم بخصم من مرتبات العمال في شركته ليمنح التبرعات للجيش، ومنذ بدء الحرب اتخذت الحكومة احتياطات ضد اليهود، وقامت بإرسال لجان لتفتيش مكاتبهم والبحث في مستنداتهم، وبالبحث في مستندات شركته اتضح أنه اشترى مخزون ملابس صوفية بكميات كبيرة من الجيش البريطاني، بعد الحرب العالمية لم يكن هناك وجود للأصواف، ثم فجأة طرحت في المتاجر أعداد هائلة من بكرات الصوف، وأقبلت

عليها النساء لندرتها ورخص أسعارها، ولكن بعد أسابيع قليلة جاءت الكثير من البلاغات والشكاوى حول تمزق هذه الخيوط الذائبة.

وبالتحقيق في هذا الأمر اتضح أنها كانت مخزونة على شكل جوارب وبلوفرات، وأن تاجرًا يهوديًّا معروفًا اشتراها من إدارة الجيش البريطاني، ووضعها في مخازن، واستأجر عددًا من الفتيات الصغيرات بأجر لا يتجاوز قرشًا في اليوم، لتحل هذه الجوارب والملابس إلى خيوط، ثم قام بصبغها بالألوان المختلفة وطرحها في الأسواق. وقد عادت عليه هذه الصفقة بثروة تقدر بـ (800 ألف جنيه)، تبرع بنصفها لصندوق (الكيرن كايمت)، وهو الصندوق اليهودي لشراء الأراضي.

اختلف وقع هذه القصة عليهم، منهم من دهش، ومنهم من ضحك بسخرية.

- وبالرغم من محاولات اليهود اثبات ولائهم لمصر إلا أن الوضع بينهم وبين المصريين كان على صفيح ساخن. الصحافة أيضًا أشعلت المصريين ضدهم، فالمراسلون كانوا هناك لتغطية ما يحدث، وحكوا عن ارتكابات اليهود لاعمال وحشية في الحرب؛ ما جعل المصريين يكرهونهم أكثر. إنهم يقاتلون أشقاءهم، أزواجهم، أقاربهم، جيرانهم، أبناء وطنهم. فكيف باستطاعتهم أن يغفروا لهم أو يتقبلوهم بينهم؟!

أصبحت هناك حرب أخرى تدار بين اليهود والمصريين، حرب الهوية. انتماؤهم لمن؟ لمصر أم للصهيونية؟ وكان لا بد من الإجابة على هذا التساؤل بالفعل وليس بالكلام، وكان من الصعب عليهم فعل ذلك. وقتها كان على عدد كبير منهم الهجرة إلى إسرائيل.

وعلى أي حال، فأعداد من هاجروا إلى هناك كان في ازدياد من قبل وقوع الحرب، وحاولوا أن يعللوا الأمر باضطهاد الحكومة لهم، ولكشف كذبهم وضعت الحكومة عام 46 قيودًا كثيرة للحد من الهجرة إلى هناك، وذلك للوقوف ضد الدعاية الصهيونية المكثفة.

تحدث أحد الباحثين:

- وهذه الوثيقة التي معي تؤكد الموقف الجاد الذي اتخذته الحكومة المصرية، بتحذير الملك فاروق للحاخام الأكبر في لقاء تم بينهما من تبني يهود مصر الفكر الصهيوني.

(انحنى الحاخام أمام الملك فاروق المعظم قائلًا: إننا نجد العدل الفاضل والشامل لدى صاحب الجلالة الملك الصالح فاروق، فقد جال في بعض الخواطر أن اليهود يهاجرون إلى فلسطين؛ لأنهم يتبرمون من الحياة في مصر، وهذا غير صحيح على الإطلاق، فاليهود في مصر ينعمون بطيب العيش تحت حكم مولانا المبجل. وأخبره جلالته بعطفه على رعاياه اليهود المصريين، وحرصه على وجودهم في وطنه، وقد أبدى فخامته خشيته من تبني يهود مصر أفكار الصهيونية وتغيير آرائهم تجاه قضية فلسطين، وحذره من ذلك، وأخبره أن قرار منع الهجرة شكل من أشكال إنكار وجود هذه الدولة التي يسعى الصهاينة لقيامها، وقد طلب جلالته منه أن يجعل يهود مصر من أصحاب النفوذ يؤثرون على يهود فلسطين ليخففوا حقدهم ضد العرب، لأن في حال وقوع صدام مع فلسطين لن تستطيع مصر أن تبقى بعيدة).

- وهذا التحذير جعل اليهود يتبرعون للجيش المصري في الوقت الذي كانوا يناصرون فيه الصهيونية.

43
الهدف

تلقى اتصالًا عبر القمر الصناعي في توقيت مبكر من صباح ذلك اليوم، وبنبرة متشنجة تلائم ملامح رئيسه الحادة:

- هل توصلت إلى شيء؟

- ليس بعد.

- كيف وقد مر كل هذا الوقت؟

- أحاول جاهدًا، لكن من الواضح أن الهدف عندها تحذيرات شديدة حول سرية الأمر.

- سأنتظر منك تقريرًا مفصلًا هذا المساء.

ثم انغلق الخط.

تكررت على مسامعه كلمة (الهدف)، كيف بإمكانه أن يطلق عليها (هدف)؟! كيف لهذه المرأة العذبة في كل شيء أن تصبح هدفًا؟!

تخيلها، وهي مقبلة عليه يومها في المطعم، وعلى وجهها مسحة ابتسامة، وشعرها يتموج خلفها، فشعر بحنين جارف إليها. إنه الشعور الذي مسه تجاهها منذ أن وقعت عيناه عليها، وهي تعزف على البيانو في بهو الفندق. حاول أن يطرده، ولكنه كان يطارده أينما ذهب. لم يكن من الذكاء أبدًا أن يجعل مشاعره تنجرف إليها، هذا معناه أنه فشل في أداء المهمة.

وهو لم يجرب الفشل من قبل. منذ أن اختير للعمل معهم كانت مهامه جميعها ناجحة؛ لذلك أصبح من أكثر الأعضاء تميزًا، وكان دائما ما يقع الاختيار عليه لأداء المهمات الصعبة.

أشعل سيجارته، وصب لنفسه كأسًا، وأخذ يتأمل دخانها ويفكر. ما الذي يمكن أن يفعله؟ لقد تأخر الوقت، واعتذاره عن مباشرة مهمته سيُرفض بالتأكيد. ولكن ما الذي يجعله يعتذر عن المهمة، وكل المطلوب منه التوصل إلى معلومات حول هذه الوثائق، ومعرفة ما إذا كانت النسخة الأصلية من (دلالة الحائرين) وجدت بين هذه الوثائق أم لا؟! سوف يقوم باستدراجها في الكلام للحصول منها على معلومات، هذا كل ما في الأمر، مجرد فضفضة لن تسبب لها أي أذى.

ضحك بسخرية:

ولكن هل الأمر بمثل هذه السهولة؟!

يعلم أنه سوف يورطها معه، وهي آخر كائن في هذا الكون يريد أن يورطه أو يسبب له الأذى.

قطع رنين الهاتف أفكاره، كانت هي، ابتسم وكأنها جاءت على ذكر سيرتها:

- صباح الخير.
- صباح الخير، ليست عادتك الاتصال بي في هذا الوقت المبكر.
- أحتاج التحدث إليك في أمر مهم. متى يمكن أن نلتقي؟
- متى تريدين؟
- في الخامسة والنصف في حديقة المجمع.

كان هناك شيء ما في نبرة صوتها، لقد فقد هدوءه المعتاد، صوت يشوبه بعض القلق، كان سيسألها هل هناك شيء؟ لكنها أغلقت الخط مسرعة.

قبل الموعد بكثير ارتدى ملابسه، وذهب يجلس في انتظارها.

يبدو غريبًا عن هذا المكان، في مثل هذا التوقيت الذي ترتاده الأمهات والمسنون، إنما رجل في عمره كان أمرًا مستبعدًا، لذلك كان محط أنظار الجميع، توارى عن الأعين في مقعد بعيد، تظلّله بعض أغصان يابسة لشجرة أكاسيا.

خلال هذه الفترة حاول أن يفعل الكثير من الأشياء، يقرأ، يستمع إلى الموسيقا، يتابع الأخبار، يتصفح الإنترنت، ولكن جميع محاولاته باءت بالفشل، من وقت إلى آخر يتردد صدى صوتها القلق (أمر مهم - أحتاج إلى التحدث إليك - هل يمكن أن نلتقي؟).

ثم جاءت، للمرة الأولى تأتي مبكرة عن موعدها. لم يكن صوتها فقط هو الذي يشوبه القلق، كانت خطواتها وهي مقبلة عليه فقدت شيئًا من ثقتها. كانت خطوات مترددة.. قلقة.

كانت ترتدي مانطو بلون جلد الأيل، وتلف شالًا حول عنقها، وتختفي خلف نظارة شمسية بإطار أسود عريض. خلعت نظارتها، ورمقته بنظرة تعني (ها أنت أخيرًا).

44
الوشاة همّوا بقتلي

في أحد الأيام وأثناء ترجمتها للوثائق، عثرت على وثيقة، في البداية لم تلقِ لها بالًا. كانت وثيقة قديمة وممزقة، ولم يدوّن فيها سوى بضعة أرقام، وأثناء عملها عثرت على الكثير من الوثائق الحسابية، فلم تهتم بأن تعرف ما إذا كانت فواتير، أم معاملات مالية خاصة، أم إيصالات أمانة، فلتكن ما تكون، فاليهود كانوا مولعين بدفن كل شيء، حتى وإن كانت مسألة حسابية تافهة.. لكنها لاحظت في أعلى الوثيقة عبارة (إلى حضرة جناب رئيس طائفة اليهود بعكا)، هذه العبارة كانت بداية كل شيء، فما الذي يمكن أن تحتويه وثيقة بها عدة أرقام مرسلة لرئيس طائفة اليهود بعكا؟! فكّرت ماذا يمكن أن تكون؟

فجأة راودها إحساس أن هذه الأرقام هي شفرة خاصة بشيء ما، تعلم الطريقة السرية التي يتبعها اليهود بتحويل الكلمات إلى أرقام في منهج (الكابالاه)، وهو اسم مشتق من كلمة عبرية تفيد معنى التواتر، وهو مذهب لتفسير التوراة، وذلك على افتراض أن لكل كلمة وحرف معنى خفيًا، تشتمل الكابالاه على أفكار ونظريات بعضها وثني، وبعضها الآخر فرعوني تدور حول طبيعة الكون، والخلق، والبشر، والقدر، والروح.

ظلت هذه الطريقة المنسوخة من أحد الكتب القديمة والذي أطلق عليه (الزوهار) مفقودة بفقد الكتاب، حتى تم العثور عليه في القرن الثالث عشر. هذا الكتاب يشرح الفكر الكابالي وكيفية فك شفراته، كتب باللغة الآرامية القديمة؛ وذلك لإخفاء ما فيه عن الذين يريدون استعماله لأغراضهم الشخصية، ثم تمت ترجمته في 22 مجلدًا، ويحتوي على النص الآرامي القديم يقابله النص العبري، وكلمة الزوهار تعني الضياء باعتبار أنه ضياء الفكر الكابالي.

في نهاية القرن السادس عشر تأسست مدرستان في هذا الفكر، وكان موسى بن ميمون هو رائد المدرسة الأولى، وإسحاق لوريا رائد المدرسة الثانية.

ذهبت إلى مكتبة المركز، وجلبت مجلدات الزوهار، وجلست تفك شفرة الوثيقة بحرص شديد، كانت تشعر أنها تكاد تذوب في يدها من القدم، ولكن الحبر الذي دوّنت به كان واضحًا وثابتًا غير ممحي، وذلك دليل على أن كاتب الرسالة كان يستخدم أنواعًا مميزة وثمينة من الأحبار، كتلك التي دوّنت بها وثائق أشخاص لهم أهمية.

بعد وقت طويل في فك الشفرة مستخدمة ما يعرف بالماتريا والنوطيرقون، وذلك لتحويل الأرقام إلى حروف، ومن ثم حساب اختصارات الجمل، لمع في عينيها بريق، ومسها شعور الزهو عندما وجدت أن حدسها كان في محله، فالوثيقة كانت موقعة باسم (موسى بن ميمون) العالم والمفكر والطبيب. كانت رسالة استغاثة لم تحتوِ إلا على عدة كلمات (أنقذني، الوشاة همّوا بقتلي). تبدل زهو الاكتشاف بشعور خفي بالحزن، حزن من أجل هذا الرجل الذي أرسل رسالة يطلب فيها المساعدة، لأن الوشاة همّوا بقتله.

وكان الأكثر غرابة أنها مرسلة لرئيس طائفة يهود عكا، وتم العثور عليها في مقابر جينزا البساتين. أتراه كتبها ولم يرسلها أم أن الشخص الذي كان من المفترض أن يسلم الرسالة لم يوصلها إلى صاحبها؟

الوشاة همّوا بقتلي، لقد كتبت بخط مرتجف.. مرتبك، كما لو أن صاحبه كتبه على عجل. تخيلته يجلس لكتابتها في ليلة قارسة البرودة على ضوء شمعة، والرياح تعصف بقوة من حوله. احتفظت بهذه الرسالة، وكأنها تخصها هي وحدها، وكأن من كتبها منذ قرون طويلة، كتبها لها، لها هي فقط. لقد ضلت طريقها طويلًا، ولكن أخيرًا وصلت إلى يدها، ومنذ ذلك الحين هي المعنية بها.

معلوماتها عن موسى بن ميمون مجرد معلومات عامة، هو عالم وطبيب ومفكر يهودي، ولد بالأندلس، جاء إلى مصر وعاش فيها، وأصبح رئيس طائفة اليهود، وهناك معبد باسمه في حارة اليهود. هذا كل ما تعرفه عنه.

في المساء كانت متربعة على فراشها، وأمامها جهاز الكومبيوتر فتحت موقع جوجل، وكتبت في خانة البحث (موسى بن ميمون):

(أبو عمران موسى بن ميمون بن عبيد الله القرطبي، المشهور في الغرب باسم ميمونيديس، ويشار إليه كذلك باسم "رمبم"، واشتهر عند العرب بلقب الرئيس موسى. كان فيلسوفًا يهوديًّا سفارديًّا، وأصبح من أكثر علماء التوراة اجتهادًا ونفوذًا في العصور الوسطى في زمنه، كان كذلك عالم فلك وطبيبًا بارزًا.)

هذا ما ذكرته عنه ويكبيديا. تصفحت المواقع، كان أغلبها مقالات عن اجتهاداته، مؤلفاته، وفلسفته الخاصة. نسخت عناوين لعدة كتب ألفت عن حياته، ولكن للأسف لم تستطع أن تتوصل إلى أي منها، فقد نفدت ولم تطبع مجددًا، وخاصة أن دور النشر التي قامت بنشرها أغلقت منذ زمن طويل.

استطاعت أن تحصل على عدد من العناوين المهمة التي جاءت على ذكر موسى بن ميمون من الموقع الإلكتروني لمكتبة الإسكندرية. قامت بزيارة دار المحفوظات بالقلعة ودار الكتب، وتفحصت عددًا من الوثائق والكتب المهمة عنه، ودلها زميلها في المركز على تاجر كتب قديمة في سوق الأزبكية، وأخبرها أنها هناك ستجد ضالتها، عثرت عنده على كتابين مهمين، وأخبرها التاجر أنها ربما تجد في مكتبة قديمة تقع في درب الجماميز ما تبحث عنه. وجدت مشقة في الذهاب إلى هذه المكتبة رغم استعانتها بخرائط جوجل التي جنحت بها عن المكان، وجعلتها تلف وتدور وسط الأزقة الضيقة. كان منظرها وهي تمسك الهاتف بيدها، وتمشي وفق اتجاهات السير التي تظهرها الخريطة على الشاشة، مدعاة للشك والريبة لأهالي الأزقة الذين بادروا بسؤالها عن طلبها، ودلوها عليه.

في طريق عودتها ألقت نظرة على المقعد المجاور الذي وضعت عليه الكتب، وابتسمت كصائد يزفر بارتياح لحصوله على غنيمته، وبعد عشرين يومًا بالتمام والكمال كانت قد انتهت من قراءة الكتب وفق جدول وضعته لنفسها.

كان الأمر كما لو أنها اشتركت في مسابقة تحدي للقراءة بالرغم أن الوقت كله كان ملكها، ما الفرق أن تنهي قراءة الكتب بعد شهر أو بعد عام؟ لكنّ هناك شيئًا يحثها على أن تركض بين صفحات الكتب، وكأنها إذا انتهت من قراءة هذه الأوراق تستطيع أن تنقذ الرجل، هذا الرجل الذي تفصلها عنه قرون طويلة.

كانت تريد التعرف إلى هؤلاء الوشاة، ولماذا هموا بقتله؟ ما الذي فعله؟ ما الذي يمكن يفعله أي إنسان على وجه الأرض حتى يتعرض للقتل؟!

لم تكن قراءتها مجرد قراءة عابرة. كانت تفتش بين الكلمات، تبحث بين الأحرف، وبعد تدقيق وتمحيص وتفسير وتلخيص لم تجد انقسامًا على أحد مثلما وجدت انقسامًا على هذا الرجل.

كل فصول حياته كانت مثار أقاويل، الواحدة منها عكس الأخرى، تعرّض لانتقادات واسعة في الوقت نفسه الذي بُجل فيه واحتُرم، حدث ذلك في حياته، واستمر بعد موته بقرون طويلة.

هل لأنه كان رجلًا سابقًا عصره، حطم التابوهات التي وضعها كهنة الدين اليهودي، وكان له منظور وفكر أكثر تفتحًا، وعقلًا أكثر سعة؟

الغريب أن جميع الكتب التي قرأتها عنه لم تأتِ على ذكر هذا الحادث الذي تعرض له. بالرغم من أن بعض مؤلفيها كانوا معاصرين له، ومؤكد لو أنّ عالمًا مثل ابن ميمون تعرض لمحاولة قتل فإن الخبر سينتشر ويدوّن في الكتب التي ذكرت أبسط تفاصيل حياته.

وبعدها وهي في طريقها لعملها كانت اتخذت قرارها، أدارت عجلة القيادة للاتجاه المعاكس، وشغلت الجي بي أس، وقالت (معبد موسى بن ميمون).

45
مديحة

تعرفت إليها بعد خروجي من المعتقل، مديحة امرأة تخطت الثلاثين بقليل، تملك مسحة من جمال بائد، طويلة، نحيفة.

أكثر ما لفت نظري إليها كانت الطريقة التي تسير بها، مرفوعة الرأس، تشد جسدها وتيبسه وتوسع من خطواتها، كانت مشيتها أشبه بتلك العروض العسكرية التي يقوم بها الضباط والعساكر في المناسبات الوطنية. تعقص شعرها كله إلى أعلى، وتضمه بدبوس بفصوص براقة لا يتناسب مع هيئتها الجادة.

بعد خروجي من المعتقل كنت حريصًا أشد الحرص، وآخذا حذري من كل شيء. أذهب إلى المطعم في الصباح الباكر، أمكث فيه ساعتين أو ثلاثة، أُتابع ما يحدث من الدور المسحور، هناك حيث يمكنني أن أكشف المكان كله، ولا يكشفني أحد.

كنت أراقبها من هناك، بعد أن لاحظت أنها تأتي في الموعد نفسه صباح كل يوم لتناول القهوة. بالنسبة إليّ كان الأمر غريبًا، فعادة، تأتي السيدات بصحبة أصدقائهن، ويطلبن الجاتوه مع الشاي أو الأيس كريم، بينما هي كانت تطلب القهوة، ترفع فنجانها لترتشف منه وعيناها تدوران كبندول الساعة في المكان كله. أثارت فضولي وشكوكي أيضًا، وفي أحد الأيام انتهت من قهوتها، وضعت قيمة ما تناولته على الطاولة وغادرت مسرعة. مشيت وراءها تاركًا بيننا مسافة قصيرة، وقفت على محطة الحافلات واستقلت الباص رقم 487.

صعدت وراءها، وجلست في المقعد الأخير، نزلت في محطة قريبة من سرايا عابدين. من الواضح أنها تأخرت عن موعدها، فكانت تسرع الخطى أكثر وأكثر. دخلت من بوابة خلفية للقصر بعد أن أومأت برأسها تحية للحراس، وعندها عدت أدراجي. زادت شكوكي وتساؤلاتي، فما الذي تفعله هذه المرأة في سرايا عابدين؟ هل تكون مدفوعة للتجسس علينا؟! طلبت اجتماعًا عاجلًا مع أعضاء الخلية الجاسوسية التي كونَّاها، وحكيت لهم أمرها، انفض الاجتماع بعد أن قررنا مراقبتها ومعرفة كل شيء عنها.

بعدها بيومين كان تقرير مكون من عدة صفحات منذ مولدها حتى يومنا هذا تم تنفيذه بفضل خلية الجاسوسية التي قمنا بتكوينها، وأصبحت مع مرور الوقت واحدة من أهم وأنشط الخلايا التابعة لجهاز الموساد.

من المؤكد أنكم سوف تلومونني، لأني لم آتِ أبدًا على ذكر هذه الخلية، ولكن اعذروني، كما ترون هناك الكثير من الأحداث المتلاحقة التي من الصعب عليّ الحديث عنها جميعها، ولكني أحمق حقًّا، فكيف لم أخبركم عن أمر مهم مثل هذا؟!

بدأ أمر هذه الخلية عندما طلب رئيس الحركة الصهيونية لقاءنا، أنا وعددًا من أعضاء الجمعية، منبهًا علينا أنه اجتماع مهم وسري. اعتقدنا في البداية أنه بخصوص الاعتقالات التي كانت تجري لأعضاء الجماعات الصهيونية. تم اللقاء في قاعة الاجتماعات السرية، وهي قبو متصل بمعبد بن عزرا، وعلى إضاءة الشموع الخافتة التففنا حول شخص، قدّمه لنا رئيس الحركة باسم (أفري العاد) جاء إلى القاهرة بناء على تعليمات من السيد (لافون) مؤسس ورئيس شبكة المخابرات الإسرائيلية.

أخبرنا (العاد) بأهمية دور الشبكة في هذا التوقيت الحرج الذي تمر به الجاليات اليهودية في العالم أجمع، والمعاداة التي تلاقيها الحركة الصهيونية في مصر وعدد من الدول العربية.

وطلب إلينا تجنيد عدد من شباب الجماعة المخلصين لهذه الخلية، كانت مهمة الاختيار صعبة، ليس في العثور على أشخاص مخلصين، في اعتقادي الأمر أكثر من كونه (إخلاصًا)، لكي تقوم بتجنيد شخص في شبكة للجاسوسية، يجب أن يتمتع بالإضافة إلى إخلاصه بصفات أخرى

مهمة أيضًا، الذكاء والشجاعة، وسرعة البديهة؛ لذلك كانت هذه المهمة التي تم اختياري لها أنا وزميلين مهمة غاية في الصعوبة.

خلال شهر جمعنا عدة أسماء، ثم بعد تدقيق وتقليص من قائمة طويلة، وبعد سلسلة طويلة من الاختبارات البدنية والنفسية، احتوت على عدة أسماء (موشيه مرزوق الطبيب اليهودي المصري الذي يعمل في المستشفى الإسرائيلي بالعباسية - صمويل عازار - فيكتور ليفي - روبير داسا - فيليب ناتاسون - مارسيل فيكتورين نينو - مائير زعفران - مائير ميوحاس - إيلي جاكوب - تسزار كوهين - أيلي كوهين - ماكس بني).

كانت أهداف الشبكة واضحة، العمل لصالح الدولة الإسرائيلية وقوة وصعود الكيان الصهيوني، وفي سبيل تحقيق ذلك يجب على العضو فعل أي شيء وكل شيء.

بعد ذلك قام (العاد) بتدريبنا على أشياء مهمة، منها كيفية إرسال وتلقي شفرة موريس، طريقة استعمال الحبر السري، جمع المعلومات من دون إثارة، وتدريبات جسدية كالتمرن على العدو والركض واللكمات الموجهة لشل حركة العدو.

كانت الخلية تتبع المباحث 2، وهي تضم وحدتين (131-132)، الوحدة الأولى مخصصة لعمليات التجسس الكبرى بكل ما تحمله كلمة تجسس من معنى، أما الثانية فخصصت لعمليات الحرب النفسية، وكانت مهمتها في هذا التوقيت هي نشر مواد دعائية ضد الملك والقصر والحكومة، تم تكوين هذه الشبكة عام 1947، ويرأسها شخص محنك يدعى (موريس جوريئيل)، وهي تعتبر أكثر الوحدات سرية في التنظيم، ومن مهامها أيضًا تخريب المنشآت الاستراتيجية مثل الجسور والكبارى ومحطات توليد الكهرباء والطرق ومعسكرات الجيش.

زاد عدد أعضاء الشبكة وكان اختيار وضم أعضاء بعينهم للتنظيم بمثابة فخر لهم، لذلك عمل الجميع بجهد وجد ليثبتوا أن اختيارنا كان في محله. زاد تفانيهم في العمل وإخلاصهم عندما انتقلت مباحث 2 لقسم الاستخبارات في الجيش، وأطلق على هذه الوحدة (أمان)، وتحولت لوحدة سياسية بتنظيمات وترتيبات معقدة ومحنكة.

بعدها تدربنا على يد شخص يُدعى (أبراهام دار)، وهو رجل طويل ونحيف يضع دومًا على رأسه قبعة من الخوص بحواف من الجلد، بوجه صارم نادرًا ما يبتسم كأنه منحوت من جص، ولد

في فلسطين، وعمل أثناء وبعد الحرب العالمية الثانية على تهجير اليهود من جميع أنحاء العالم إلى فلسطين، وصل مصر قبل الحرب 48 حاملًا في جيبه جواز سفر بريطانيًّا باسم (جون دارلينج)، وتخفى في صورة رجل أعمال من عدن، وخلال هذا العام تمكن من تدريبنا على أعمال التجسس وجمع المعلومات وكيفية تزوير الأوراق، لمساعدة اليهود على الهجرة غير القانونية والقيام بعمليات التخريب والدفاع عن النفس. والأهم من كل ذلك كيفية التصرف في حال كُشِف أمرنا، وأُلقي القبض علينا.

كوّن (العاد) خليتين على قدر كبير من الأهمية في الشرق الأوسط، واحدة في الإسكندرية وأخرى في القاهرة، لكل خلية جهاز راديو تتلقى من خلاله التعليمات والأوامر والمهام المكلفة بها من الوحدة الرئيسية في فلسطين. وهو يدربنا على أكثر طرق التجسس ذكاء ومهارة، كان يحث العزم والأمل في أعضاء الخلية، ويخبرهم أن إسرائيل لن تكون إلا بالقضاء على من لا يريدون قيامها.

ولتحفيزنا أكثر، كان يقوم بعرض شريط سينمائي لما حدث لليهود على يد الألمان في الحرب العالمية الثانية منذ مداهمة منازلهم واعتقالهم، وأخذهم في رحلات القطار التي تذهب بهم إلى معسكرات الموت، وطرق التعذيب المختلفة التي كانوا يتعرضون لها، ثم يقوم بعرض صور بشعة لجثامينهم المحروقة.

بعد انتهاء الشريط، يقوم بإضاءة النور ويمعن النظر في وجوهنا؛ ليرى تأثير ذلك علينا، وعندما يجد تعابير الحزن والتأثر يصيح فينا: غيروا هذه التعابير، فأنتم لستم ثكالى. أريد أن أرى على وجوهكم تعابير حماس وعزيمة وإصرار على الثأر، تأكدوا أن أرواحهم معلقة في أعناقكم، تريد الخلاص، وهذا لن يحدث إلّا بقيام دولة إسرائيل.

بالطبع، كان هذا الكلام يؤجج حماس الشباب الصغير الذي يحلم بوطن، وفي سبيل تحقيق ذلك كان بإمكانهم أن يفعلوا أي شيء أثناء تأدية مهامهم حتى لو تعلق الأمر بالتضحية بالنفس.

46

معبد موسى بن ميمون

الفسطاط (القاهرة) 1204

قرأت العنوان مرة أخرى لتتأكد منه (15شارع درب محمود بالموسكي حارة اليهود)، وضعت سيارتها على ناصية الطريق، فالحارة ضيقة ولن تسمح بمرور السيارة، كانت هيئتها مختلفة وملابسها لافتة. فأثارت نظر سكانها الذين أخذوا يتطلعون إليها بدهشة، بينما استقبلها رجل الأمن الذي يحرس المكان بوجه عابس، وسألها بنبرة جافة:

- ماذا تريدين؟

لم تجبه، أخرجت البطاقة الذي تثبت أنها تعمل في لجنة الآثار اليهودية، تناولها منها، وأخذ يحوم بنظره بين صورتها وملامح وجهها، كأنه يريد أن يتأكد أنها هي.

- هل خلعتِ نظارتكِ لو سمحت؟

تفرس في ملامحها، ثم ناولها البطاقة:

- أعتذر لحضرتك، ولكن كما تعلمين بسبب حوادث تفجيرات المنشآت الدينية في الفترة الأخيرة هناك تعليمات مشددة.

قاطعته قائلة:

- حسنًا، والآن هل يمكنني أن أدخل؟

- لكن، ما سبب هذه الزيارة؟ لم تصلني أخبار بذلك.

- المبنى سوف يخضع للترميم، وذلك وفق خطة ترميم الآثار اليهودية، وأنا عضو في هذه اللجنة، وكما تعلم هذه الأمور تجري في سرية تامة، لذلك لم يخبرك أحد.

أعقبت حديثها بابتسامة جذابة، جعلت الرجل يرتبك وتتعقد أفكاره، وينسى أمر أنه لم يستلم أية إخبارية بوصول أحد ويسمح لها بالدخول.

سكون يغلف المكان، يتوسطه مبنى الكنيس وهو بناء مستطيل، وبجواره مبنى لرجال الدين، ويوجد المدفن الذي بقي فيه جثمان ابن ميمون قبل نقل رفاته إلى مدينة طبرية بفلسطين بناء على وصيته.

أنشئ المعبد في نفس المكان الذي سكن فيه موسى بن ميمون فور وصوله إلى مصر، وظل فيه حتى مات، وأقام فيه بعده ابنه إبراهيم، ثم تم بناء المعبد بعد وفاة إبراهيم بقليل.

أهمية المعبد تكمن في سرداب صغير كان ابن ميمون يستخدمه كغرفة للتأمل والعمل والدراسة، ورقد جسده فيها بعد وفاته، ومن هنا انتشرت الأقاويل بشأن هذا السرداب، أشهرها شائعة تفيد بأنه إذا بات المريض فيه، فقد يشفى من دائه، لذلك كان قبلة للمرضى ليس فقط من اليهود، ولكن من المسيحيين والمسلمين أيضًا.

تتجول في أنحاء المكان، وتجول ذاكرتها معها بما قرأته عنه وعن صاحبه.

كان سبب مجيئها هو السرداب نفسه، والبئر التي يقال إن ماءها لن يجف أبدًا. في زوايا داخلية من زوايا المعبد درج حجري يقود إلى السرداب، أوصلها إلى غرفة فسيحة، يغشاها ظلام دامس، فاستعانت بإضاءة كشاف الهاتف. نقش على الجدران، نماذج هندسية، ونقوش عبرية ونجمة داود، مشربيات وعدد من مشكاوات من المفترض أنها كانت مصدرًا للضوء في وقت سابق.

رائحة غريبة تفوح، مزيج من الرطوبة ورائحة بخور، من الواضح أنه استعمل لسنوات طويلة حتى أن المكان عبق بها.

ثم فجأة انطفأ ضوء الكشاف، وساد الظلام، ولفتها زوبعة من رياح قوية بصفير حاد. برودة غريبة وكأن درجة حرارة الطقس قد هبطت إلى أقل من الصفر. لم تفهم ما الذي يحدث!؟

أفكار سريعة متلاحقة سوداوية تعبرها، هل المبنى ينهار فوق رأسها؟ هل صمد كل هذه السنوات وأخيرًا قرر أن ينهار عندما دخلته؟! هل كان متصدعًا إلى حد أن ينهار من مجرد خطوات؟! يا الله! مؤكد ستتعفن هنا دون أن يعثروا عليها، ورجل الأمن وإن نجا لن يخبر أحدًا أنه سمح لها بالمرور خوفًا من أن يتعرض للعقاب.

وجدت نفسها في عتمة تامة، لم تستطع أن تميز معها أي شيء أو أي شكل. كانت في قلب فراغ أسود هائل، طبقات عميقة من الظلام لا يمكن اختراقها. كأنها في قاع بحر حيث الضغط كثيف ومرعب، وأصبحت هائمة في فراغ.

تكومت أرضًا في وضع الجنين، ولفت ذراعيها حول نفسها، شعرت أن شللًا قد أصابها، وأخذت تنطق الشهادتين، ثم كما بدأ الأمر دون سابق إنذار توقف أيضًا دون سابق إنذار. توقفت الرياح، ولم تعد ترتعد من البرودة. ساد هدوء غريب. يقولون الهدوء الذي يسبق العاصفة، ولكن في حالتها هذه كان الهدوء الذي يخلف العاصفة!

لم تستطع أن تستوعب ما الذي حدث، وكم من الوقت بقيت على هذا الحال؟ الأمر صعب تفسيره، وهناك إحساس غريب يتملكها، وثقل في جسدها كله كأنها مدفونة تحت ركام. عندما رفعت وجهها وجدت كل شيء حولها نظيفًا وبراقًا، السقف، الجدران، حتى الأرضية كانت تبدو كما لو بلطت للتو.

لمحت شعاعًا من نور في أحد الأركان، تحققت أكثر، وجدته ضوءًا خافتًا لشمعة ينبعث من شمعدان من النحاس موضوع على مكتب.

ولكن هل حقًّا ما تراه؟! هناك رجل محدب فوق مجموعة من الأوراق، يبلل الريشة في محبرة ويدون شيئًا.

مرة أخرى، أمعنت النظر لتتأكد من وجوده ومن المكان، لتتأكد أنه هو السرداب الذي دخلته منذ عدة دقائق لا أكثر.

كان هو بالرغم من أن كل شيء يبدو جديدًا، الدرج ذاته، والنقوش ذاتها على الجدار ذاته، ونجمة داوود أيضًا. إذن ما الذي حدث؟

أيعقل أنها لم تنتبه؟ لا.. لا.. هي واثقة تمام الثقة أنها عندما دخلت السرداب كان مهجورًا ومظلمًا تمامًا، لم يكن هناك بصيص من ضوء، وكان الغبار يكسوه، وجدرانه متهدمة، والمشربيات تشقق خشبها.

بقيت هكذا لوقت تفكر، ثم قررت أن انقضاء العمر هنا - تضرب أخماسها في أسداسها- لن يفيد بشيء!

يجب أن تذهب للرجل، وتسأله من هو؟ وما الذي يفعله في هذا السرداب؟

هل هو ممثل يصور أحد المشاهد السينمائية؟ لكن لا توجد كاميرات أو فريق عمل أو مخرج يصيح (أكشن)؟

هل مثلًا سبقهم بالمجيء ليتدرب على الدور؟ ولكن أي دور؟ هو حتى لم ينطق بكلمة، كل تركيزه منصب على ما يدوّنه.

حسنًا، يجب أن تقوم، وتذهب إليه وتسأله عما يفعله هنا؟ أليس عملها هو حماية الآثار اليهودية، ربما يكون لصًا بالرغم من أن هيئته لا تدل على ذلك.

تقدمت إليه بخطى مترددة، وعلى بعد خطوات توقفت. تحمحمت، لعله ينتبه لوجودها.

دون أن يرفع نظره إليها:

- ألم أطلب عدم مقاطعتي؟

كان صوته خفيضًا وذا نبرة دافئة:

- ولكن...

- ضعي الجنزبيل، واذهبي.

- أي جنزبيل؟ من أنت؟ وما الذي تفعله هنا؟

أخيرًا، رفع نظره عن الأوراق، وتلاقت نظراتهما، كل منهما أصابه الفزع، تزحزح بمقعده للخلف، وهي أيضًا كانت على أهبة هرب.

- من أنت؟ وكيف دخلت إلى هنا؟

تأملها بدقة:

- وما هذا الذي ترتدينه؟!

- لست أنت من عليه توجيه الأسئلة هنا؟

- ليس أنا! تقتحمين بيتي، وتتسللين خفية إلى معملي، وتقولين ليس أنا.

- بيتك ومعملك! حسنًا، فهمت. لعلك أحد المهووسين بالشخصيات التي تقوم بتجسيدها، لقد سمعت أن الممثل لا تبارحه الشخصية التي يقوم بتمثيلها بسهولة، وخاصة عندما تكون تؤدي دور رجل بمقام موسى بن ميمون، ولكن عليك أن تشكر الماكيير الذي وضع لك المكياج، ولصق لك اللحية والذقن، فقد جعل منك نسخة منه، هل هو مسلسل أم فيلم سينمائي؟!

- ماذا.. مسلسل.. فيلم؟ من أنت أيتها المخبولة؟ وماذا تريدين؟

- أنا مخبولة. حسنًا، سأجلب لك الأمن لنعرف من فينا المخبول.

ركضت باتجاه الدرج، وبعد أن صعدت درجتين لاحظت أن الباب موصد. طرقت بقوة، وانتظرت، وعندما لم يجب أحد طرقته بعنف أكثر، وصاحت: (افتح الباب)، لم يفتح أحد، فأخذت تركله بقدميها بكل قوتها.

بارح الرجل مكانه، ووقف ينظر إليها، وهي تضرب الباب بيدها وتركله بقدميها.

كل منهما كان يتساءل بينه وبين نفسه:

(هو: غريبة حقًّا كيف دخلت إلى هنا، والباب موصد والمفتاح معي؟!).

(هي: عندما دخلت لم يكن هناك أبواب).

تأملته أكثر، وتساءلت هل من الممكن أن يصنع الماكياج كل هذا الشبه؟! هناك اختلاف بسيط، ولكن هذا لا ينفي أن الشبه كبير. الحاجبان أسودان كثيفان، والعينان ضيقتان، والأنف مستقيم، شارب كثيف يغطي شفتيه، ولحية مهذبة بشكل لافت وأنيق، متوسط الطول يرتدي عباءة سوداء، ويضع فوق رأسه عمامة بيضاء.

أصابتها قشعريرة، وتملكها الرعب، وظهر على منظرها.

- هل يمكنك أن تجلسي وتخبريني بكل شيء؟

- ومن أنت لأخبرك؟!

بنبرة ودودة ليحاول أن يخفف من روعها:

- أنا موسى بن ميمون.

- حقًّا، موسى بن ميمون؟ وما الذي تفعله هنا؟

- ما الذي أفعله هنا؟ حسنًا، دعيني أخبرك أيتها الفضولية المتطفلة، إن هذا بيتي وهذا معملي الخاص، وكنت أكتب عندما اقتحمت عليّ خلوتي، وشتّتِّ ذهني، وقطعتِ حبل أفكاري.

- وهل للأفكار حبل؟

حكّ ذقنه يفكر في سؤالها، فأجابته، وهي تطيح بيدها بما يفيد:

- لا يهم لا عليك، إنها دعابة ليس أكثر. ربما عليّ أن أتصل بالنجدة، وأخبرهم أن هناك مختلًا عقليًا، يدّعي أنه موسى بن ميمون، ويتخذ من سرداب المعبد مأوىً له.

- معبد، أي معبد؟ إنه منزلي؟!

أخرجت هاتفها من الحقيبة، ولكنها لاحظت أنه لا توجد شبكة متاحة، فاتصلت بالطوارئ حيث يمكنها الاتصال بها دون الحاجة لشبكة، ولكن الاتصال لم يكن متاحًا. كانت الرسالة تخبرها بأنه لا توجد بطاقة في الهاتف، وليس لا توجد شبكة، استغربت من ذلك، كيف لا توجد بطاقة؟!

- ما هذا الذي تمسكين به أيتها المرأة؟

- إنه اختراع من زمن آخر، لم تسمع به بعد أيها المحتال.

- أعتقد أنه لا يوجد محتالة هنا سواك. سوف أزج بك في الحبس يا لصة.

اقترب منها، قبض على ذراعها:

- هيا بنا.

وصعد بها الدرج، صاحت (ذراعي)، فخفف من قبضته دون أن يتركه.

فتح الباب وقادها إلى الخارج. كان وقت الغروب، فصاحت:

- يا الله! هل قضيت بالداخل كل هذا الوقت؟

نظرت حولها، كان كل شيء غريبًا، لم يكن هو المكان الذي دخلته منذ قليل، كان الباب يفتح على حديقة غناء، تتوسطها نافورة من الفسيفساء، ويختال فيها طاووس. مؤكد لو أنها عبرت ذلك المكان، كانت ستتذكره من روعة جماله.

يحيط بالحديقة منزل من دورين بواجهة من المشربيات محاطة بأشجار الكافور والنخيل، كان يراقبها، وهي تنظر حولها بدهشة غريبة، نفس الدهشة التي كان ينظر بها إليها.

- وما هذا الذي ترتدينه؟ ألا تستحيين؟! كيف استطعت أن تخرجي من منزلك بهذه الملابس؟!

هل هي في حلم؟ هل رجع بها الزمن للوراء؟ كيف يمكن أن يحدث ذلك؟! لقد قرأت أن الكثيرين من المرضى الذين يأتون لزيارة السرداب من شتى أنحاء العالم شاهدوا موسى بن ميمون خلال مبيتهم فيه، كان من أحد شروط الشفاء مبيت الشخص في السرداب، لأن موسى بن ميمون يزوره ليلًا. فهل ظهر لها موسى بن ميمون حقًّا؟ ولكنها لم تأتِ بغرض الشفاء ولم تبت، والأهم من ذلك هي لا تصدق هذه الأمور.

(ما هذه السخافات؟!).

ولكن إذا كانت سخافات، فما تفسير الذي يحدث؟ هل ظهر لها الرجل أم رجع بها الزمن إلى قرون ماضية؟ أيكون قد أصابها الجنون؟

- وتحدثين نفسك أيضًا، من الواضح أن حالتك متأخرة، أشك أنك هاربة من المارستان.

- أنا أيضًا أشك في ذلك.

ذهب بها إلى إسطبل الخيل الذي يقع في آخر الحديقة، وأمسك بسرج فرس أسود:

- هيا، اصعدي أمامي.

وقتها فقط تأكدت أن الأمر ليس خدعة أو تخيل، وأن هناك شيئًا ما يحدث، شيئًا ما يفوق قدرة العقل البشري على استيعابه أو فهمه.

بنبرة مترددة يكسوها قلق وخوف:

- حسنًا، امنحني الفرصة، وسأخبرك بكل شيء.

- ليس عليك أن تخبريني أنا، هناك متخصصون للاستماع للصوص من عينتك، وإجبارهم على الاعتراف.

- أنا لست لصة، صدقني.

- حسنًا، ما تفسيرك لتربصك لي في معملي؟

صعد بخفة ورشاقة فارس على ظهر حصانه.

- هيا اصعدي خلفي.

تذكرت شيئًا.

سحبت محفظتها من الحقيبة، وأخرجت من جيبها الوثيقة ومدتها له:

- انظر هذا سبب مجيئي إلى هنا.

- وما هذا أيضًا؟

تناول منها الوثيقة، وأخذ يتأملها وتبدلت ملامح وجهه:

- ولكن كيف توصلت إلى هذه الرسالة؟ من أعطاها لك؟ كيف وقعت في يدك؟ لقد أرسلتها منذ سنوات إلى رئيس طائفة اليهود في عكا، ولماذا تبدو بمثل هذا القدم كأنه مرت عليها أعوام وأعوام؟

- لقد مرت عليها قرون.

ردد خلفها في دهشة:

- قرون!

- هل تمنحني الفرصة لإخبارك كل شيء.

بدا متوترًا ومستغربًا الأمر، وكأن صدمة كبيرة وقعت على رأسه.

ترجل من فوق فرسه، وقادها إلى منزله. سارا على امتداد أروقة تكثر فيها التيارات الهوائية. كان البيت متاهة حقًّا، الجدران مكسوة بخشب البلوط، والأرضية مفروشة ببُسُط عجمية مغزولة بأشكال الطيور والنباتات، مشكاوات عربية فيها شموع تبعث إضاءة خافتة، مصاطب مفروشة بمساند مكسوة من المخمل الموشى بخيوط فضية وذهبية.

قادها وراءه إلى غرفة فسيحة، جدرانها مكسوة برفوف من خشب الماهوجني من الأرض وحتى السقف، تضم عددًا كبيرًا من الكتب والمجلدات، وفي إحدى زواياها ركن خاص بالمخطوطات، بعضها موشّى الحواشي بالذهب ومكتوب باللاتينية، وفي الجانب الآخر خزانة تحتوي على عشرات الأدراج مزينة بنقوش دقيقة ومقابضها من الذهب.

كانت تنظر حولها في دهشة، بينما جلس يراقبها من خلف مكتبه المصنوع من خشب الزان الموشى بالصدف. هواء الغرفة كان عالقًا بروائح الخشب والأحبار والأوراق.

لاحظت أن سطح مكتبه مرتب بأناقة، كتب مرصوصة بعضها فوق الآخر، وتتوسطه علبة من خشب الأرز المزركشة، فيها قنينة حبر وأقلام خشب ولفائف من الورق.

- والآن أخبريني من أين حصلت على هذه الرسالة؟

- قبل كل شيء هل يمكنك أن تخبرني بتاريخ اليوم؟

- اليوم هو الأربعاء الموافق العشرين سبتمبر من عام 1204.

- واليوم في تاريخي هو عشرون سبتمبر عام 2010، إذًا يفصل بيننا 806 سنة.

- صدقت إذًا عندما قلت إنك هاربة من المارستان.

- أكاد أجن، ولا أستطيع أن أفهم ما الذي حدث، أشعر أني (أليس) في بلاد العجائب.

- ومن (أليس) هذه؟

- لا عليك.

- ما هذه الألغاز التي تتفوهين بها؟! لا وقت لديّ لمثل هذا الهراء، وقتي من ذهب. هيا أخبريني أين عثرت على هذه الرسالة؟

- لن أستطيع أن أخبرك إلا إذا قمت بتصديقي أولًا؟

- وما هو تحديدًا الذي تريدينني أن أصدقك فيه؟

- أن الكثير من القرون تفصل بيننا.

- سأصدقك، بالرغم من أنه حديث لا يصدق.

- أنا عضو في لجنة وثائق الجينزا، هذه الوثائق التي قمتم بدفنها منذ قرون طويلة في المقابر اليهودية، وعند العمل على هذه الوثائق عثرت على هذه الرسالة، ومنذ ذلك الحين وقد شغلني الأمر.. كانت هذه الرسالة بمثابة شعاع ضوء، ينير لي نفقًا مظلمًا بجهلي برجل مثلك، يحمل كل هذا الكم من العلم والحكمة.

ضيّق حدقتيّ عينيه ليحاول أن يستوعب ما الذي تخبره به.

- كان لهذه الرسالة وقع عليّ، الأمر أشبه بأنك كنت تستنجد بي أنا من دون الجميع. ربما لو كانت وقعت في يد باحث آخر، لم تكن تثيره أو يمنحها كل هذا القدر من الأهمية. ولكن معي كان الأمر مختلفًا. علمني البحث في الوثائق أن اعرف الخط المرتبك لكاتب يشعر بالقلق لذلك مسّني فضول حول الرسالة وحقيقة هذه الشفرة، وماذا تعني؟ ولماذا كتبها صاحبها بهذا الشكل!؟

(الوشاة همّوا بقتلي) كان صدى هذه العبارة يصل إليّ، ويتردد بداخلي عبر كل هذه القرون الطويلة الممتدة بيننا.

- انتظري، تقولين تفريغ المقابر من الجينزا، من أذن لكم بذلك؟ وكيف وافق رئيس طائفة اليهود في مصر على ذلك؟

- لم يعد هناك يهود في مصر.

هنا ضرب المكتب بمنتهى العنف بقبضة يده:

- لقد بدأت في مضايقتي حقًّا أيتها المرأة، هيا اغربي عن وجهي، لا أريد أن أعرف شيئًا، اتركي هذه الرسالة أو خذيها معك، لم يعد الأمر مهمًا، لقد انتهى أجلها منذ وقت طويل.

- أذهب.

- نعم، اذهبي، لا ينقصني المجانين من أمثالك.

كيف وأين تذهب؟! هي عالقة هنا، وماذا لو أصر على طردها؟ والكارثة لو أنه فكر في تسليمها للشرطة، ربما يضعونها في زنزانة مظلمة لما بقي لها من عمر أو يدخلونها المارستان، وينسونها هناك مع المجانين، ويوسعونها ضربًا وتعذيبًا. يجب أن يقتنع هذا الرجل بكلامها، ولكن كيف تقنعه بشيء هي نفسها عاجزة عن استيعابه؟!

47
فصول موسى

فجأة سطعت في رأسها فكرة، لقد أخبرها أنهم في شهر سبتمبر عام 1204، وهي تعلم أنه أصابه المرض وتوفي في 13ديسمبر من نفس العام، أي بعد ذلك التاريخ بشهور قليلة، وكان ذلك بعد تأليفه كتاب (فصول موسى) مباشرة.

أخرجت من حقيبتها جهاز الآيباد الخاص بها، كانت تحتفظ بعدد من كتبه الإلكترونية، بالإضافة إلى أنها أنشأت ملفًا خاصًا به، دوّنت فيه المعلومات المهمة واقتباسات من الكتب التي ألفت عنه.

كان يراقبها، وهي تبحث في جهاز الآيباد بمزيج من الغرابة والسخرية:

- يمكنني أن أخبرك باسم الكتاب الذي تقوم بتأليفه الآن بتاريخك وقد شارفت على الأنتهاء منه، إنه كتاب طبي عنوانه (فصول موسى)، هو أكبر رسائلك الطبية حجمًا، وسيكون الأكثر شهرة، استغرق منك كتابته ثلاثة أعوام.

- بتاريخي! هذا على أساس أن زمانك غير زماني كما تدعين. من أخبرك عن أمر الكتاب؟ مؤكد هناك جواسيس في منزلي، هذا شيء طبيعي لقد اعتدت على ذلك.

شعرت باليأس عندما لم يصدق ما أخبرته به فأردفت:

- وتشتمل هذه الفصول على 1500 قانون استُخلصت من مصنفات جالينوس وغيره من أطباء الإغريق، وعليها اثنان وأربعون تعليقًا ونقدًا وتحليلًا تبدأ جميعها بـ (قال موسى). وقد ورد

في هذه الرسالة ذكر ثلاثة من أطباء المسلمين هم ابن زهر الذي ورد اسمه 26 مرة، والتميمي الذي ورد اسمه 20 مرة، وابن رضوان ورد ذكره ثلاث مرات وكان من أطباء مصر في القرن الحادي عشر للميلاد.

هنا تبدلت ملامحه من السخرية إلى الاهتمام، وأخذ يحك ذقنه وينظر إليها، وهو يضيِّق من حدقتي عينيه كمن دخل في تفكير عميق:

- كيف توصلتِ إلى هذه المعلومات؟ نويت أن أخصص الفصل الأخير عن الأطباء المسلمين، ولم أكتبها أو أخبر عنها أحدًا بعد.

هنا تنفست الصعداء:

- هل صدقتني عندما أخبرتك أني قادمة من زمن آخر؟ انظر إلى ملابسي، إلى طريقة تصفيف شعري، لهذا الهاتف وهذا الجهاز، جميعها أجهزة توصل إليها العلم الحديث بعد مرور كثير من السنوات على وجودك.

- وهل في زمانكم اخترعتم جهازًا تستطيعون فيه الرجوع إلى الماضي؟!

- هذا لم يحدث بعد.

أخذ بعض الوقت ينظر إليها، ويفكر في حديثها الذي أقنعه إلى حد ما.

- الغريب أنه بعد مرور كل هذه السنوات لم يتوصل العلم إلى جهاز ينقلك عبر الزمن. كنت أتوقع أن ذلك سوف يحدث خلال المائة عام أو المائتين القادمين.

شعرت بارتياح عندما نطق هذه العبارة، فذلك معناه أنه صدقها:

- ولكن هناك الكثير من الاختراعات، الهاتف المحمول مثلًا حيث يمكنك التحدث مع أي شخص، في أي مكان في العالم بمجرد اتصالك برقم هاتفه، الطائرة التي تنقلك من بلد إلى آخر في ساعات قليلة، الكومبيوتر آلة إلكترونية لها قابلية استقبال البيانات ومعالجتها إلى معلومات ذات قيمة ويخزنها في وسائط تخزين مختلفة، الصاروخ الذي أوصل الإنسان إلى القمر.

- لقد فاتني الكثير إذًا، ونحن بسذاجتنا كنا نعتقد أننا أنجزنا الكثير.

- نعم، لقد أنجزتم الكثير، ولولا ما حققتموه، لم تصل البشرية إلى ما هي فيه الآن. العلم عبارة عن تراكمات، أبحاثك الطبية والفلسفية أفادت العلوم الطبية والفلسفية الحديثة في الكثير من الأشياء.

- إذن لم يتم اختراع جهاز للرجوع به إلي الماضي، فهل يمكنك أن تخبريني كيف وصلت إلى هذا المكان!؟

- كنت في زيارة إلى معبدك، وذهبت إلى السرداب الذي اتخذه البعض بعد رحيلك مكانًا للتبرك وطلب الشفاء من أمراضهم عندما لفتني دوامة من رياح قوية جدًّا، ثم وجدت نفسي أمامك.

لم يقاطعها، كان يستمع لها بانتباه شديد.

- قبل قراءتي الرسالة، لم أكن أعلم عنك الكثير، ولكن استغاثتك أثارت فضولي، تساءلت: من الذي يريد قتلك؟ ولماذا؟ ولمعرفة ذلك كان عليّ قراءة تاريخك ومؤلفاتك ومؤلفات الآخرين عنك، ربما أجد شيئًا فيها.

- وماذا وجدت؟

- وجدت أنه فاتني الكثير بجهلي بك، لقد كنت مثار جدل واسع في حياتك، ولم ينتهِ بعد موتك.

كان يستمع لها، وهو يهز رأسه:

- وكيف علمت هذه الأشياء؟

- عن طريق الحاسوب، يكفي أن أكتب اسمك لتظهر المئات من المواقع التي تظهر معلومات عنك وعن مؤلفاتك وأبحاثك.

- نظر إليها بعينين محدقتين، تملؤهما الدهشة والعجب.

قامت إليه، ومعها الآيباد، خفضت من طولها لتصبح في مستوى جلوسه على المقعد:

- انظر أنه ملف محفوظ بالجهاز يضم جميع مؤلفاتك والكتب التي كتبت عنك.

تناول منها الجهاز، وأخذ يطالع الملفات، ثم هز رأسه غير مصدق:

- أمر لا يصدقه عقل، وماذا دوّنوا عني في هذه الكتب؟

- هناك من أشادوا بك، وهناك من اعتبرك مجرد أفّاك.

- أفّاك.. لا أستغرب ذلك.

- والآن نحن معًا، فهل يمكنك أن تتركنا من هذه الكتب وتخبرني عنك؟

- ماذا تريدين أن تعرفي؟

- كل شيء، ربما أستطيع أن أظهر الحقيقة.

- أية حقيقة، وتظهرينها لمن؟! كما تقولين، لقد مرت قرون وقرون، فمن يهتم بي الآن؟

- هناك الكثيرون، والدليل أنه بين اليوم والآخر هناك مقال عنك أو كتاب.

زفر بعمق، ودخل في تفكير عميق استغرق برهة من الوقت:

- منذ البداية واسمي وتاريخ مولدي مثار جدل وقيل وقال.

قهقه بسخرية:

- ولكن هل هما فقط؟! لا، أبدًا يا عزيزتي، كانت حياتي كلها مثارًا للجدل والقيل والقال.

- حسنًا، دعنا نبدأ من البداية.. انتظر، سوف أقوم بالتسجيل.

أومأ برأسه بما يعني حسنًا.

بعد أن شغلت التسجيل من هاتفها:

- يمكنك أن تتحدث الآن.

- ولدت في الثلاثين من شهر مارس من سنة خمس وثلاثين ومائة وألف للميلاد في مدينة قرطبة إحدى مدن الأندلس.

- نعم، وأول من ذكر تاريخ ميلادك الصحيح كان داود حفيدك.

صمت فجأة عن الحديث.

- ولكن لماذا لا تكتبين؟

- أكتب ماذا؟

- ما أقصه عليك، ألم تخبريني أنك سوف تسجلين؟

أشارت إلى هاتفها:

- أنا أسجل صوتك، ومن ثم أنقله على الورق. انتظر.

أدارت التسجيل:

- أنصت.

فتح فاه، وضيق حدقتي عينيه:

- مذهل.

- نعم، إنه واحد من الاختراعات الحديثة.

- لو وجد في زماني لكان له أهمية كبيرة جدًا، كنت على الأقل سوف أسجل لهؤلاء المغرضين الذين يقولون الكلام، ثم ينكرونه.

- ويمكنني أيضًا أن أسجل ذلك صوتًا وصورة، أعتقد أن ذلك سيكون أفضل.

شغلت الفيديو، ووجهت الكاميرا إليه لبعض الوقت.

- ولدت قبل عيد الفصح بأيام معدودة، وربما كان هذا أحد الأسباب التي جعلت أمي تطلق عليّ هذا الاسم، فالاحتفال بذكرى عيد الفصح هو الاحتفال بذكرى خروج سيدنا موسى من الديار المصرية.

كثرة الروايات التي قصت عن مولدي وعن اسمي وعن كنيتي تستطيع أن تملأ عشرات المجلدات. يعتقد بعض الجهلاء أن كنيتي (بأبي عمران) أطلقت عليّ لأن لي ولدًا اسمه إبراهيم، أبدًا الأمر ليس له علاقة بذلك مطلقًا. لو بحثوا أكثر أو استعملوا عقولهم التي تآكلت من الصدأ، كانوا سيعلمون أن العرف جرى على استعمال هذه الكنية لكل من أطلق عليهم اسم (موسى)، وعرف بهذه الكنية العالم موسى بن يعقوب الإسرائيلي طبيب الخليفة الفاطمي المستنصر بالله، وشاعر اليهود المعروف موسى بن طوبي الأشبيلي، كذلك العالم موسى بن الطفلسي الذي عاش في النصف الأول من القرن التاسع للميلاد.

أوقفت التسجيل، ومدت له الهاتف ليرى نفسه. تحولت ملامحه الجامدة إلى ملامح طفل صغير دهش باكتشافه ما يحتويه باطن دميته بعد أن فصّصها إربًا.

- شيء رائع، لا أصدق حقًّا.

ابتسمت:

- والآن دعنا نستكمل الحديث.

- لا أتذكر حتى ما كنت سأقوله. يا رب موسى، هذا الجني الذي بيدك جعلني أنسى ما كنت أقوله.

نظرت إلى الجهاز اللوحي وأخبرته:

- في مخطوطة شرح العقار، وهي موجودة في مكتبة أيا صوفيا بإسطنبول لابن البيطار أطلق عليك اسم (موسى بن عبد الله الإسرائيلي المغربي)، وذكرك القرطبي (موسى بن عبد الله اليهودي)، أما العالم محمد أبو بكر التبريزي فقد سجله في ترجمته لدليل الحائرين (موسى بن ميمون بن عبد الله الإسرائيلي).

- هذا غيض من فيض من الأسماء التي أطلقوها عليّ، لو أستطيع أن أصرخ فيهم، كفاكم أنا (موسى بن ميمون القاضي - بن يوسف الحكيم - بن أسحق القاضي - بن يوسف الحكيم - بن عوبديا القاضي - بن سليمان الحبر - بن عوبديا القاضي - ابن الحبر المقدس يوسف بن الحكيم الحبر عوبديا) ألا يكفيكم هذا أيها التعساء!

- نعم، وهذا اللقب الكامل لك مذكور في أحد الكتب، لكن بعض العلماء يشككون في أن هذه الأسماء لا تكفي لإرجاع تاريخ أسرتك للقرن الثاني عشر الميلادي.

- حقًّا، هل قالوا ذلك..؟! حسنًا، عزيزتي، عليك أن تردي على هؤلاء المتذاكين على لساني لتخبريهم بأن حسبة برما التي حسبوها، وأجهدوا أنفسهم بها، ووجدوا أنها لا يمكن أن تحيل أسرتي للقرن الثاني عشر الميلادي، فهي ساذجة مثلهم. ما الذي كانوا يتوقعونه مني؟! وهل كان باستطاعتي أن أحفظ أسماء أجدادي، وأجداد أجدادي، وأجداد أجدادهم على مدار كل هذه القرون؟! من العبقري الذي يمكنه أن يفعل ذلك؟!

كان يستشيط غضبًا، تخيلت أن ذلك قد حدث له فقط من هذا الأمر، فما باله عندما يعلم التهم التي اتُّهم بها؟

- هل يمكن أن تهدأ؟ الأمر لا يشكل أهمية، فمنجزك العلمي طغى على كل شيء وخاصة هذه الصغائر.

48

دوام الحال من المحال

- وُلدت في قرطبة في بيت محاط بحديقة فسيحة تتدلى من جنباتها عناقيد العنب، كان أطيب عنب يمكنك تذوقه، وكانت ايضا محاطة بأشجار كثيفة من الجوز. ماتت أمي بعد ولادتي بقليل، وتكفل أبي بمشقة تربيتنا وحده، أنا، وأخت تصغرني، وأخي إبراهيم الذي يكبرني.

أبي هو ميمون بن يوسف قاضٍ في المحكمة الشرعية اليهودية بمدينة قرطبة، وهو سليل عائلة يهودا جامع أسفار المشنا في القرن الثاني بعد الميلاد.

رجل وسيم الطلة، رشيق الجسد، معسول اللسان، متواضع إلى أقصى حدود التواضع، بالرغم من أنه كان عالمًا كبيرًا تتلمذ على يد عالمين من أفضال العلماء (يوسف بن ميجاش - وإسحاق الفاسي)، وقد تتلمذ أيضًا تحت يديه عدد كبير من العلماء والمثقفين وكبار الرأي عند اليهود في القرن الثاني عشر.

لم يكن بارعًا في القانون والدين فقط، بل كان عالمًا في الفلسفة والفلك وعلوم الطبيعة. كان يتخذ من سرداب في منزلنا معملًا كبيرًا لأعماله وتجاربه. مكان كبير فسيح رصت فيه رفوف خشبية وضعت عليها قوارير زجاجية. كان المعمل دائمًا عابقًا بروائح المطهرات والأعشاب المغلية وروائح أخرى لا يمكن تمييزها. وباردا دائمًا بفعل الرطوبة، فلم يوجد به منفذ واحد يسمح بمرور أشعة الشمس. يقف أبي لأجراء تجاربه أمام طاولته الخشبية مرتديًا مريولًا أبيض، وبجواره مجلد كبير يحتوي على أكثر من خمسمائة وصفة علاجية. أحيانًا كان يسمح لي أن أقف بجواره أراقبه، وهو يقوم بتجاربه بالساعة، وأحيانًا بالساعات حسب وقت التجربة.

كنت أقصر من أن أطول الطاولة لأشاهد ما الذي يفعله، فكان يضع لي درجة خشبية أقف عليها مندهشًا كاتمًا أنفاسي، ليس فقط لتعليماته لي بألّا أنبس ببنت شفة خوفًا من أن يحرمني من مشاهدته، ولكن أيضًا من شدة انبهاري.

- لكن ما الذي كان يلفت نظر طفل في الثامنة من عمره في مشاهدة تجارب طبية؟

أشار إليها بخنصره كأصبع اتهام:

- من الواضح أنك مثلهم! حسنًا، سأخبركم بذلك أيها المشككون في كل شيء. كان أبي يعاير مقادير من الأعشاب، ويخلطها بأنواع من بودرة مسحوقة لعقاقير مختلفة، ثم يقوم بوضعها في آنية على موقد نحاسي صغير، وينتج عن ذلك وهج، ثم فوران وأحيانًا فرقعات، وهذا تحديدًا ما كان يلفت نظري ويشدني. ليس التجربة في حد ذاتها، ولكن النتيجة التي تحيلنا إليها التجربة.

أعلم أن حديثي هذا سيجعل المعارضين يسخرون مني ويقولون: انظروا إنها التفاهة بعينها، ابن ميمون يعترف أنه كان يقف بجوار والده بالمختبر ليسمع الفرقعات، أو ليشاهد الوهج. ولتعلموا أيها المتحذلقون أن هذا الوهج وهذه الفرقعة هما اللذان جعلاني ليس فقط أشهر أطباء عصري، بل أشهر فلاسفة زماني أيضًا.

نطقها بثقة زائدة جعلتها تبتسم، لاحظ هو ذلك، ولكنه واصل دون أن يعير الأمر أهمية:

- بعد الانتهاء من التجارب، وخروجنا من المعمل، لم أكن أكف عن سؤالي له عن الذي أنجزه؟ ولماذا؟ وما الغرض منه؟ وما هي نتائجه؟ وتتسع الأسئلة لتذهب للسؤال عن الكثير من الأمور في العالم من حولنا، أمور من الصعب أن يتطرق إليها طفل عادي.

عندها أيقن أبي ولعي بالعلم والمعرفة، فبعث بي إلى العالم (يوسف بن صديق الأندلسي)، وهو قاضٍ وشاعر وعالم تلمودي أيضًا. تتلمذت على يده، وأذكر ليومنا هذا أنه في أول درس لي معه أخبرني (الناس كدرجات السلم فيهم العالي وفيهم السافل وما بينهما، لكن جميعهم حيثما كانوا من البلدان في دائرة الإحسان والدقة والإتقان)، وكما يقولون التعليم في الصغر كالنقش على الحجر، ظلت هذه العبارة أمام عيني كلوحة معلقة على جدار. لم أفرق يومًا في معاملتي بين غني أو فقير، بين مسلم أو يهودي، بين أعجمي أو فارسي. كان وقتها اليهود يذهبون لتلقي العلوم في المعاهد

الإسلامية، بينما يتتلمذ المسلمون على أيدي اليهود، كنا جميعنا سواء، لا فرق بين مسلم ويهودي ولا بين عربي وأعجمي. هكذا نشأنا كيانًا واحدًا، وذلك ما عزز مقولة عالمي الجليل يوسف بن صديق.

بعدها التحقت بالمدرسة الدينية العالية التي قام بتأسيسها العالم (موسى بن أخنوخ)، تلك المدرسة التي استغنى بها يهود الأندلس عن الذهاب لتلقي العلم في مدارس بغداد، وأصبحت قبلة لطلاب العلوم الدينية لطلبة يهود العالم أجمع، وهناك بجانب الدراسة الدينية كنا ندرس أنواع العلوم والآداب والفلسفة كافّة، ويقوم بتدريسها لنا نخبة من رجال الدين والعلماء.

توقف عن الحديث وشرد بعيدًا، وعندما عاد مجددًا تكلم بنبرة هائمة عبر الزمن:

- كنت محظوظًا؛ لأني نشأت في هذه المدينة الحافلة بالعلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة من المسلمين واليهود. كانت قرطبة بلا شك منارة العلم ومركزه، ولكن دوام الحال من المحال، هل سمعتِ من قبل هذه المقولة؟

تنهدت قائلة:

- لم أسمعها فقط، لقد جربتها أيضًا.

شردت عندما تذكرت وفاة زوجها التي حدثت فجأة، وعندها انقلبت حياتها رأسًا على عقب.

- كم هي صادقة هذه المقولة!

ابتسما عندما نطقا بهذه العبارة معًا في نفس الوقت، انتظر لعلها تريد أن تقول شيئًا، ولكنها صمتت فأكمل حديثه:

- بين يوم وآخر انقلب الحال في منارة العلم التي تجاور السكن فيها المسلمون مع القبط واليهود، ولم يكن بإمكانك التمييز أحد من آخر، كما لم يكن هناك مميزات لأحد عن آخر حتى كان عام (ثمانية وأربعون ومئة وألف للميلاد)، وقتها كنت على مشارف عامي الرابع عشر عندما فتح (عبد المؤمن بن علي الكومي الزناتي) مدينة قرطبة، وهو من تولى دولة الموحدين المعروفة بالمصامدة عند أهل المغرب، وذلك بعد وفاة مؤسسها (محمد بن تومرت). أخذ هذا الرجل يطوي الممالك معه، مملكة بعد أخرى، ويذل البلاد بلدًا بعد آخر إلى أن خضعت له البلاد، وأطاعته العباد.

تجرع رشفة من المياه مبللًا بها ريقه:

- عرض الزناتي على أهل الذمم الدخول في الإسلام، وأخبرهم أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم. ومن يرفض كان أمامه خياران، إمّا أن يخرج من البلاد أو تزهق روحه. أمام هذا الاختيار الصعب خرج البعض، وبقي الآخرون بعد أن أعلنوا إسلامهم، واخفوا ديانتهم داخلهم.

لم يبدل هذا الأمر ما آمنت به من كلام عالمي أننا جميعنا سواء أمام الله، ولا فرق بين شخص وآخر إلا بما عمل. ليس من حق أحد - مهما كان - فرض رأيه، فما بالك في فرض عقيدة قائمة على اعتناق وإيمان؟!

يومها سألت أبي:

أليس الله هو الذي أنزل جميع الأديان؟

أجابني: نعم.

إذًا من حق كل فرد في المجتمع أن يتبع الملّة التي يريدها ويجد نفسه فيها طالما أن الأديان، في آخر الأمر كلها لله، فلو أنّ الله نفسه لم يكن يريد لنا أن نعتنق جميعًا نفس الديانة، لم يعدد الأديان. أليس ذلك صحيحًا؟

أبي العالم الجليل القاضي رجل الدين لم يكن يملك إجابة على سؤالي، لذلك ظهر على ملامحه الوجوم، ودخل في تفكير عميق وقلق بما يخبئه لنا الغيب.

ودون شك إن ما حدث كان له أثر على الحضارة العربية في بلاد الأندلس، من فر من البلاد كانوا كبار علماء اليهود في الطب والفلك والحساب، لم يتوقف الأمر على قرطبة فقط بل جميع المدن التي وقعت تحت ولاية عبد المؤمن.

منحنا ثلاثين يومًا، وبعدها إما أن نعتنق الإسلام ونبقى وإما نخرج. كان أبي يؤمن بحرية العبد في تحديد مصيره؛ لذلك لم يكن يسمح لأحد أن يسلبنا حريتنا، وفي سبيل ذلك كان علينا أن نفارق مدينتا وبيتنا، ونغادر.

بعنا أملاكنا والأشياء التي لم نكن نستطيع حملها بثمن بخس، والباقي ألقيناه في ساحة كبيرة فاضت بما حملته البيوت من أثاث وأوانٍ، وأدوات دراسية، وملابس، وأحذية، ذكريات العمر كلّه كانت ملقاة في مفترق الطرقات. أخذنا ما غلا ثمنه وخف وزنه، فالأعداد التي سوف تركب البحر كانت كثيرة ومتاعها كبير، وحمولة السفن لم تكن تستطيع أن تفي بالغرض.

وقف أبي طويلًا أمام مكتبته مترددًا بين ما يحمله معه من هذا الكم من المخطوطات النادرة والكتب المهمة التي لا مثيل لها في العالم أجمع، ثم أخيرًا قرر أن يأخذ الكتب التي لا يستطيع أن يستغني عنها، فهي كنوز من المعرفة ولا تقدر بمال، ومنح الباقي لأصدقائه من المسلمين الذين كانت تجمعه بهم علاقات وطيدة. أمّا ما بقي فقد وضعه في جوال كبير، وأخفاه في سندرة الدار، ثم مسمرها وطلاها من نفس لون طلاء الجدار حتى لا تظهر للعيان ظنًّا منه أنه سيعود مرة أخرى.

حملنا أغراضنا في صندوق من الحديد، ودعنا الأصدقاء والجيران والمعارف من المسلمين واليهود الذين اعتنقوا الإسلام مرغمين، فلم يكونوا يملكون مالًا أو عمرًا ليبدؤوا في بلد آخر من جديد.

كان الميناء يضج باليهود والنصارى الذين أُجبروا على الخروج من ديارهم. منهم أشهر وأهم العائلات اليهودية مثل عائلتي (قمحي، وتبون) اللتين خرج منهما أعداد كبيرة من العلماء والفلاسفة في القرن الثاني عشر، نقلوا معهم كتب فلاسفة العرب للغات الأوربية، عقدوا العزم على الخروج بلا رجعة، ذهب منهم من ذهب إلى شمال الأندلس، ومنهم من سافر بعيدًا إلى مونبليه، ولونيل، ومارسيليا في الجنوب الفرنسي.

تبدل صوته لنبرة بائسة، وتطلع في مدى بعيد:

- لم أعلم معنى القهر والأسى إلّا عندما صعدت إلى السفينة، وتطلعت في الوجوه الحزينة الواجمة.

تكومنا بمحاذاة بعضنا لنستمد الدفء بعد أن تدثرنا بالكثير من الأغطية الصوفية، ولكن درجة الحرارة هبطت حتى قاربت الصفر. كانت أطرافنا ترجف، وأسناننا تصطك من شدة البرد. ذهبنا إلى مدينة مرية بجنوب الأندلس، كانت تحت الحكم المسيحي منذ عام ثلاثة وأربعين ومائة وألف، وهي المدينة التي كان يعيش فيها الفيلسوف ابن رشد بعد أن غادر قرطبة بسبب نزعته

الفلسفية التي أثارت عليه الرأي العام. كان اسمه وحده كافيًا لأن ترتجف أوصالي، وكان لوجوده هناك أثر كبير على نفسي؛ لذلك تحسنت نفسيتي كثيرًا عندما علمت أنه يعيش هناك، وهكذا كنت لا أطيق سماع اسم المدينة التي سوف نذهب إليها أصبحت أتشوق للذهاب.

فتحت جهاز الآيباد على الملف الذي احتفظت به عنه، وكانت قد دوّنت فيه نصوصًا واقتباسات من مؤلفاته، ونقدًا لاذعًا واتهامات تعرض لها.

- ولكن اسمح لي، هل هذا هو السبب الحقيقي لمغادرتك قرطبة؟

ضيّق من حاجبيه، وزم شفتيه:

- نعم، هذا هو السبب. ماذا تقصدين؟

- هناك عالم يهودي يدعى (يوسف سميري) عاش في مصر (1640-1704) يقول: إنك نزحت من قرطبة بسبب وشاية أمام الملك.

انفرجت أساريره ضاحكًا:

- وما الذي يمكن أن يفعله صبي بلغ الحلم لتوه من كبائر الأمور ليشوا به أمام الملك بنفسه؟ مؤكد، هذا لم يحدث.

على مكتبه مجسم لكرة أرضية تضم خريطة العالم، وضع إصبعه على مكان، وكما نغمض أعيننا ونزور مكانًا في أحلام يقظتنا.

- كانت وقتها مدينة حديثة النشأة نسبيًّا مقارنة بباقي مدن الأندلس، أمر ببنائها الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله سنة 955، وجاء اسمها من وظيفتها؛ إذ كانت تُتخذ مرأى ومرصدًا لمدينة بجانة، ولم تكن بعظمة قرطبة طبعًا.

بالرغم من ذلك كانت محطة مهمة جدًّا في حياتي، وصلت هناك في عمر 14 عامًا محملًا بالأمل والنشاط، وجائعًا للعلم والمعرفة. لم أجعل ما تعرضنا له في قرطبة يقصم ظهري كالكثير من زملائي الذين توغل الإحباط بأرواحهم، وأحبطهم عن مواصلة ما بدؤوه. كان الأمر مختلفًا بالنسبة إليّ، ففي الوقت الذي جثم اليأس فوق نفوسهم كان الأمل يملؤني.

القسوة التي تعرضت لها كانت بمنزلة حافز لي لأتقدم، وأواصل علومي وبحوثي.

تتلمذت هناك على يد العالم (محمد جابر بن أفلح الإشبيلي) عالم الرياضيات، والفلكي، والمخترع الذي ذاع صيته وقتها؛ لأنه اعترض على معادلات بطليموس. لقد أكد أنه يجب وضع الزهرة وعطارد معًا فوق الشمس، وكان ذلك خلافًا كبيرًا لفكرة بطليموس في وجوب وضعهما تحت الشمس، أيضًا له معادلة مهمة تستعمل في حل المثلثات الكروية تُسمى معادلة جابر.

بالإضافة لدروسي مع الإشبيلي، كرست جزءًا كبيرًا من وقتي لحضور دروس الفيلسوف (أبي بكر بن الصائغ)، لذلك التحقت بمدرسة قصر مرية الواقعة في الصحن الثالث، وهو بناء كبير بردهات طويلة لا أول لها ولا آخر، تضم المدرسة حوالى 342 فتى من أذكى الفتيان وأمهرهم، هناك كنا نتعلم الشريعة اليهودية والفلسفة وتاريخ الأنبياء والرياضيات والهندسة والجغرافيا وعلم الفلك والمنطق والخطابة وما يكفي من لغات.

كانت القواعد هناك صارمة، مشرفو الأمن يجوبون الطرقات، وفي أياديهم خيزرانة يترددون في اللجوء إليها في الكثير من الأحيان، وكانت ضرباتها تلسعنا، فنصرخ ويكسر صراخنا هدوء المكان.

49

إن عُرف السبب بطل العجب

بعد أن أقمنا في ألمرية اثني عشر عامًا بالكمال والتمام، كان علينا أن نشد الرحال مجددًا، ففي خريف سنة 1160 وقعت المرية في أيدي الموحدين، فتحها (أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الكومي) كان هذا الرجل يكره اليهود والنصارى كراهية لا مثيل لها، لذلك كان علينا هذه المرة أن نفارق الأندلس إلى الأبد.

أصبحت جميع الأراضي الأندلسية بالنسبة إلينا مهددة. اليهود يُقادون بسبب أو دون سبب لمراكز الشرطة، ومن لم يجدوا له تهمة يرمونه بالزندقة. الزندقة! إنها تهمة من لا تهمة له، ومعها لا فرصة أبدًا للنجاة.

هربنا ليلًا كاللصوص هذه المرة. خرجنا من البلاد على نحو لم يتيسر فيه جمع أشيائنا أو توديع أي شخص، بعد أن تخفينا في ملابس مسلمين، خلع أبي طاقية اليهود، وارتدي بدلا منها طاقية وجلبابًا أندلسيًا، بينما غطت أختي رأسها، ففي اليهودية ترتدي النسوة الحبرة، وهي تشبه ملابس المسلمات أما أنا وأخي، شذبنا لحانا، وبالمسبحة في أيدينا كنا نظهر كشباب المسلمين.

في بقعة ضيقة من العالم، في قبو إحدى السفن المغادرة إلى المغرب، أمرنا الرجل الذي قام بتهريبنا أن نختفي عن الأنظار حتى وصول السفينة إلى المرافئ المغربية، وحذرنا بألّا نبرح مكاننا مهما حصل، وإلا فسيتكفل بنفسه بإلقائنا في الماء، ونصبح وجبة شهية للأسماك. وكان علينا أن نقبع كالجرذان في ظلام حالك، بين الصناديق الخشبية والحبال المهترئة ومراس قديمة صدئة.

لم نعد نعرف كم مر علينا في هذا المكان، لم نرَ ليلًا ولا نهارًا. كانت الظلمة والبرد والرطوبة تكاد أن تفتك بنا، نسمع صرير وقع الأقدام على الخشب، والفئران تركض حولنا، صاحت أختي، فكتم أبي فمها بيده، وضمها إليه، بكت بحرقة وبصوت متحشرج، تساءلت:

يا الله! ماذا جنينا ليكون هذا مصيرنا؟!

ظل سؤالها يتردد في رأسي: حقًّا ما الذي جنيناه ليصبح الفرار هو مصيرنا؟!

بالرغم من الظلمة الحالكة لم أستسلم، كان عقلي منيرًا وشعاعه ساطعًا نحو آفاق العلم والمعرفة فاستغللت ذلك، حفظت عددًا من المعادلات الكيميائية، وحاولت فهم آيات من المشناه، كنت أجهل معناها، وانغمست في تأملات فلسفية.

هكذا استطعت أن أقضي على رتابة الأيام بمواصلة الدراسة والاستذكار، حتى رست بنا السفينة على احد المرافئ في صباح خريفي بارد. انتظرنا حتى تم إخلاؤها من جميع الركاب ثم خرجنا، من هذا القبو المعتم الذي مكثنا فيه حتى اعتدنا الظلمة كالخفافيش؛ لدرجة أننا عندما رأينا النور مجددًا كاد أن يخطف أبصارنا.

كان علينا أن نتدبر امر وصولنا إلى مدينة فاس التي كانت وجهتنا، وعند وصولنا وجدنا أبواب المدينة مغلقة بالمتاريس، سألنا حراسها من أين أنتم؟ وإلى أي مكان ذاهبون؟

أجابهم أبي:

نحن عابرو سبيل، جئنا لنستأنس بمدينتكم الفاضلة، فقد سمعنا أنها مدينة مضيافة، وأهلها ناس كرماء.

ببساطة سمح لنا الحراس بالمرور، وعجبت من ذلك، فكيف مع هذه الحراسة الشديدة يُسمح لعابري السبيل بالمرور؟! لاحقًا علمت السبب، وإن عُرف السبب بطل العجب.

50

فيك من يكتم السر الخطير؟

لم تكن هذه المدينة بحال أفضل من مدن الأندلس، بل كانت أسوأ، كانت رأس منبت المصامدة. اضطُهد فيها اليهود، حتى أسلمت أعداد كبيرة منهم طوعًا أو كرهًا.

حتى المسلمون فيها لم يشعروا براحة في ظل ذلك الحكم المتعصب، الضرائب كانت عالية، ومتطلبات الحياة غالية، والفقر والجهل والمرض زيادة عن الحد؛ ما ولّد الحقد والكراهية في قلوب الناس جميعهم. الوجوه كانت عابسة باستمرار.

لم يكن يلزمني كثير من الوقت، لأفهم لماذا سمح لنا حراس المدينة بالمرور؟ أخبرهم أبي أن مدينتهم فاضلة، وناسها سعداء وأهل أنس وكرم، ومؤكد كانت هذه المرة الأولى التي يسمعون فيها شخصًا يمدح فيها مدينتهم وأهلها.

انتقالنا من مكان لآخر علّمنا ذلك، فبالرغم من معاناتنا تكيفنا مع المدينة، وفي فترة قصيرة اعتدنا على المكان وأهله.

منذ عدة سنوات ذاع صيت عالم يهودي يُدعى (يهودا الكاهن)، وانتشر في مشارق الأرض ومغاربها، وفي ظل الظروف التي كان اليهود يتعرضون فيها للاضطهاد خشي على نفسه واختفى تمامًا عن الأنظار. خرجت شائعات بأنه حُبس أو ربما قُتل، وأخرى بأنه سافر إلى قسطنطينة، وفي أقوال أخرى إلى الفسطاط.

في أحد الأيام اقترب رجل دين يهودي صديق لأبي، وخفض من صوته، وهو يقول: "فيك من يكتم السر الخطير؟".

ثم أخبره بمكان الكهف الذي يلتقي فيه يهودا الكاهن بتلاميذه من أرباب العلم والدين، ووعده بأن يصطحبه معه في حلقة الأسبوع القادم. وفي الموعد المنتظر ذهب أبي مع الرجل، وذهل من فيض العلم والمعرفة اللذين يتمتع بهما هذا الكاهن، فأخبر صديقه عن ولعي بالعلم، وطلب منه أن يصطحبني معه في الحلقة القادمة.

وكان هذا السر الذي أفضى به الرجل لأبي واحدًا من أهم الأشياء التي حدثت لي في هذه المدينة. هذا الرجل عالم بأدق تفاصيل الدين والحياة، متسع الصدر والأفق، وكان من النادر أن تلتقي برجل دين يهودي يحمل بداخله التسامح والعلم وسعة الأفق؛ لذلك لم أفوِّت على نفسي حلقة من حلقات دروسه. وبعد أن ينتهي كنت أجالسه وأدخل معه في نقاش طويل، في المقابل لم أقطع علاقتي بالفلاسفة المسلمين، بل كنت أحضر دروسهم، وأتابع ما يقولون بنفس الشغف الذي أتابع به دروس يهودا. أعقد مقارنات، وأحلل وأحيل كل شيء إلى مرماه المناسب كما يفسره عقلي، لم أكن أبدًا من هؤلاء الذين ينصتون ثم يصمتون، كنت أعلم أن العلم والمعرفة وكل شيء حتى الدين قابل دائمًا للحراك العقلي والزمني، وقابل للتأويلات والتفسيرات.

وفي هذه السنة ألف ومائة وستين شرعت في كتابة أول مقال لي باللغة العربية، نصحت فيه الجماهير اليهودية بالتمسك بالعروة الوثقى، والثبات في الكوارث والنوازل. لاقت هذه المقالة استحسانًا كبيرًا؛ ما حمّسني لكتابة مقال آخر بعنوان (في سبيل تقديس اسم الله)، وكان هذا المقال ردًا على أحد أحبار اليهود الذي كان يلوم اليهود على استسلامهم للاضطهادات الدينية. كان يرى أن القتل أهون من خروج اليهودي من ملته، فكتبت أذمّه على رأيه ذلك. انتشرت هذه المقالة في الكثير من البلدان، وتُرجمت إلى الإنجليزية وعدة لغات، ومن هنا تعرف العالم عليّ. هكذا بدون ترتيب مسبق أو نية مبيتة بأن يدور اسمي في شتّى أصقاع الأرض.

51
ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين

في عام ألف ومائة وأربعة وستين توفي الكومي، فهرع ابنه أبو يعقوب يوسف من الأندلس، وخلع أخاه الأكبر من الولاية، وكان أكثر تعصبًا من أبيه. كان أول قرار له بعد أن حكم البلاد هو حرق الكنائس والمعابد جميعها، وقتل كل من يتمسك باليهودية وجميع أحبارها، وكان يهودا الكاهن أول من قُتل، وأوشكت أسرتنا أن تكون ضمن الضحايا، لولا نزوحنا خفية من فاس وركوبنا البحر في ظلمة الليل مجددًا، وكأن القدر كتب علينا الفرار دومًا.

في يوم ثمانية عشر من شهر أبريل، من سنة خمس وستين ومائة وألف، تعرضت السفينة التي كنا فيها لهبوب رياح عاتية كادت أن تشقها نصفين، فنذرت لرب العالمين الصوم حتى نصل سالمين، ومنذ ذلك الحين لم أنقطع عن صيام تلك الأيام.

بعد ثمانية وعشرين يومًا من تأرجح السفينة بنا في ظروف طقس قاسية، حتي كادت أن تنتهي حياتنا غرقًا، لاح مرفأ مدينة (عكا)، وضعنا أخيرًا أقدامنا في أرض فلسطين، كان إحساسًا مختلفًا، بأرض مختلفة عن كل المدن. لها عبق خاص، وحضور طاغٍ في الروح والقلب، وكان بإمكاني أن أمكث طوال عمري فيها، لولا أن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن، فالمدينة الوحيدة التي تمنيت أن أبقى فيها ما تبقى لي من عمر، لم تتجاوز إقامتنا فيها نصف عام.

هذه المرة كانت المدينة واقعة تحت الحكم الصليبي، والمضطهدون فيها كانوا من المسلمين واليهود، وكانت تجري أشكال متعددة من الاضطهاد لا تستطيعين معها أن تعيشي بسلام وهدوء؛ لذلك ترك عدد كبير من المسلمين واليهود المدينة، ونزحوا إلى مدن وبلدان أخرى.

شرد بأفكاره، ثم عاد مجددًا، وبنبرة تتكئ على الحزن:

- لم يكن الوضع العام يتيح لنا العيش فيها، ومن المستحيل مواصلة علومي؛ لذلك قررنا أنا وأخواتي السفر، بينما فضّل أبي الذي أنهكه الترحال المكوث في بيت المقدس.

كان علينا بعد كل هذه المدن التي فررنا إليها في وقت قصير أن نفكر جيدًا، ونختار البلد الأكثر أمانًا واستقرارًا حتى نبقى فيها. دارت أفكارنا ما بين القسطنطينية والفسطاط، واخترنا الفسطاط ليس فقط لأننا تعلمنا العربية وأصبحنا نتحدثها بشكل جيد، ولكن علمنا من اليهود القادمين من هناك أنهم يعاملون معاملة حسنة جدًّا، ويعملون مهنًا مختلفة، وفيهم التجار والصنّاع، ويسكنون في جميع المدن وخاصة مدينة الإسكندرية.

تاقت نفسي للحياة في مكان آمن مطمئن، وكانت مصر التي أنزل فيها الرب قوله: (ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) هي مرسانا ومقصدنا.

وصلنا إلى ميناء الإسكندرية في صباح خريفي بارد، كنا نقف على رصيف الميناء في مهب رياح باردة تعبث بنا. شعور غريب بالطمأنينة مسني. وشعرت أني أخيرًا أصبحت في مأمن، وتنبأت بأن على هذه الأرض سيكون لي قدر.

كان الميناء يعج بمختلف الجنسيات من بقاع الأرض كلها؛ اليوناني، والإيطالي، والفرنسي، والفارسي، والعجمي. ترتسم على الوجوه ملامح السعادة، ولكن يشوبها بعض من قلق، ذلك القلق الذي يعترينا إزاء الأراضي التي تطؤها أقدامنا للمرة الأولى دون أن نعرف مصيرنا فيها.

كنا نشعر بالإرهاق والتعب، فقضينا يومنا في مسافر خانة بالإسكندرية، وفي صباح اليوم الثاني شددنا رحالنا إلى الفسطاط، واستأجرت منزلًا في (محلة المصيصة) رشحه لي رئيس طائفة اليهود في عكا الحبر (يافث بن إلياس)، وقد كان رجلًا كريمًا وودودًا، لكن للأسف لم تمنحني الحياة فرصة بأن أتعرف إليه أكثر. أخبرني يومها أن (محلة المصيصة) المكان الأنسب، تسكنها جماعة من أعيان المسلمين وأغنياء اليهود، وهي قريبة من حارة اليهود ومعابدهم ودار رئيسهم. اقتنعت بنصيحته؛ لأنه على معرفة بتجار ورحالة يهود كانوا يطلعونه على أحوال البلاد وعبادها.

وفي الفسطاط وجدت كل شيء مختلفًا. مدينة غريبة لا تسكن ولا تنام أبدًا، بشر من كل شكل ولون ولسان. شوارع وأسواق محتشدة ليلًا نهارًا، لا تخلو من الناس أو من الدواب، تفوح فيها روائح الطعام والحلوى والدخان.

أنا الذي زرت عددًا كبيرًا من المدن، لم أجد مدينة تشبه الفسطاط في كرم أهلها وبشاشة وجوههم وحلاوة لسانهم، ما إن دخلت حتى صحت: أين القلم لأصفها هذه المدينة الغريبة والعجيبة!؟ ودهشتي بها كانت تزيد يومًا بعد آخر.

عمل أخي داود في التجارة بالذهب والجواهر النفيسة. كان يطوف في البلاد الدانية والقاصية يعرض بضاعته، يشتري ويبيع، وكنت أساعده بالقدر الذي يسمح لي به وقتي بذلك، فقد كنت متشوقًا لمواصلة دروسي بعد أن انقطعت عنها فترة ليست بالقصيرة، وانشغلت بالسفر والترحال.

بعد شهور قليلة من إقامتنا في مصر، وصلتنا رسالة تفيد بوفاة والدنا في بيت المقدس. حزنت لوفاته، ومما زاد من حزني أنه مات بعيدًا ووحيدًا، تمنيت أن أكون بجواره، لأضمه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة على صدري.

لم أكن تعافيت بعد من صدمة موت أبي، حتى هاجمتني صدمة أخرى لا تقل عنها قسوة. وصلتنا أخبار عن غرق السفينة التي كان عليها أخي داود في المحيط الهندي، رحل أخي الحبيب، وهو بعد في ريعان شبابه تاركا وراءه طفلة صغيرة وزوجة مكلومة، وهذه المرة لم تكن الفجيعة في الموت فقط، ولكن كان موتًا وخراب ديار، كان يحمل معه في هذه الرحلة البعيدة كل ما نملكه من أموال.

لم توهن المحن والصراعات من عزيمتي، بل دفعتني أكثر لتلقي العلم والمعرفة؛ فقد كنت أجد فيهما عزائي الوحيد.

ويمكنني أن أقول إنه في مستهل عام ألف ومائة وستة ستين، كانت بداية حياتي العلمية الواسعة النطاق، أصبح لي جمهور عريض حتى أن قاعات المحاضرات على اتساعها لم يكن بإمكانها استيعاب هذا الكم الكبير من الحضور، والأمر لم يتوقف على المحاضرات الخاصة بعلوم الدين، على العكس كانت أكثر ازدحامًا في دروس العلوم الأخرى مثل (الفلك - الرياضة - الفلسفة).

قاعة المحاضرات كانت تعج بالعرب، والروم، والعجم، أعداد كبيرة من شباب الأندلس والمغرب الذين جعلهم الاضطهاد الديني يفرون من أوطانهم تمامًا مثلما حدث لي، وأصبحت بالنسبة لهم القشة التي يتمسكون بها؛ حتى لا يغرقوا في متاهات التيه والغربة.

في غضون سنوات قليلة صار لدي الكثير من التلاميذ، والكثير من المعارف والأساتذة والزملاء. عندما جئت إلى مصر لم يكن لي فيها قريب أو صديق، وها هي علاقاتي تشعّبت وتوسعت في دائرة العلم والمعرفة، لكن أصدقائي لم يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة. أعزهم على الفؤاد كان (أبا الحجاج يوسف الإسرائيلي) المعروف عند العرب (بيوسف الحجاج)، كنا نتشابه في الكثير من الأمور، هربنا من أوطاننا، وتلقّفتنا بلدان كثيرة، قبل أن نحط الرحال سويًّا في مصر.

كان أول لقاء لنا بعد درس من دروس الفلسفة، جاء ليتعرف إليّ، ثم قال لي: كنت ببغداد يومئذ، وحضرت المحفل، وسمعت كلام (ابن المارستانية). كان يمسك في يده كتاب الهيئة (لابن الهيثم)، وأشار إلى الفلك، وأخذ يشرح ويقول: "وهذه الداهية الدهياء، والنازلة الصماء، والمصيبة العمياء"، ثم بعد ذلك أحرق الكتاب، وألقاه في النار، ومن فعلته استدللت على جهله وتعصبه، إذ لم يكن في كتاب ابن الهيثم أي كفر، وإنما هي طريقة إلى الإيمان ومعرفة قدرة الله عز وجل في ما أحكمه ودبّره. يومها علمت كم نحن متشابهان!

وسعدت أن هناك من يفكر مثلي، فالدين مرن، متسع، متسامح، وعلينا أن نجعل الناس تتفهم ذلك، ولكن كان دائمًا كان هناك في كل محطة المتزمتون، ضيّقو العقول والصدور، هؤلاء وقفوا لنا بالمرصاد، وحاربونا بشتى الطرق.

في الوقت الذي أقبلت فيه على مصر، وجدت أن هناك أمورًا كثيرة سيئة في فهم الديانة اليهودية، اعتاد الأحبار وعلماء اليهود على غزلها في عقول اليهود، ولا أعلم هل كانوا يفعلون ذلك عن إنكار الصحيح أم عن جهل به؟! كان رئيس الطائفة وقتها (يحيى بن يهوذا) وهو واحد من أسوأ الرجال، اغتصب رئاسة الطائفة بالرشوة، كان يمنح ألفًا من الدنانير الذهبية هدايا وأموالًا ليتاح له شغل هذا المنصب والبقاء فيه.

أخذ يبث سمومه في عقولهم، وهم يصدقونه دون أي نقاش. وكان متعصبًا ومتشددًا، لا يعطي فرصة لأي حوار، فهو حاخام، والحاخامات لا يخطئون. إنهم في منزلة الأنبياء، وليس على

الشخص العادي مناقشتهم في شيء.

عندما شعر أن دروسي تنظف ما أسكنه في عقول هؤلاء المساكين من قذارة، وبدؤوا يفيقون على ما خدعهم به من كذب وضلال، وأخذوا يناقشون ويسألون ويتساءلون، استشاط غضبًا مني، واشتعل أكثر عندما واجهته وجهًا لوجه، ونبهته بلهجة يشوبها الغضب أنه بدلا من الاهتمام بتلك الأمور التافهة، وتنصيب نفسه إلهًا يحاكم ذلك ويجازي هذا، وبدلا من أن يمنح الهدايا من أموال اليهود، كان من الأجدر أن يقوم ببناء معبد لليهود القرائيين، أو يجدد المعابد المتهالكة.

ولم يكن في الفسطاط في ذلك الوقت سوى معبدين، أحدهما لطائفة ربانيين يهود الشام، ويقع في خط قصر الشمع بجوار خوخة خبيصة، ويشهد النقش العبراني المحفور على بابه أنه بني عام ست وثلاثين وثلاثمائة من زمن الإسكندر، ويوجد بالمعبد نسخة من التوراة بخط عزرا النبي الذي يقال له عند العرب عزيز، وكان مدفونًا به أيضًا صحف ومخطوطات الجينزا.

المعبد الآخر للربانيين كان ليهود العراق، ويقع في خط قصر الشمع بزقاق اليهود، بينما يوجد معبد واحد للقرائيين بزقاق درب الكرمة بالصاصة.

عندما سمع مني هذا الكلام، علم أن الأمر أكثر من أني أنظف القذارة التي وضعها في عقول اليهود، بل أنا أطالبه بحقوقهم في بناء معابد بالأموال التي يتبرعون بها، بدلا من أن يدفعها رشوة ليستمر في منصبه.

لذلك حرّض عليّ أتباعه، فكانوا يتربصون بي، ويحاولون إثارة المشاكل معي ومع من يحضرون دروسي، فأصبحت أصلي وأعطي الدروس سرًّا في منزلي.

بعدها قام انقلاب سياسي عظيم، حيث تولي الملك الناصر صلاح الدين يوسف ين أيوب عام 1171إمارة الديار، وذلك بعد خمس سنوات من وجودي في مصر، فانقرض مُلك العلويين، وبدأت البلاد تتنفس الصعداء، وقع في آخر سنوات هذه الدولة الكثير من المحن والفتن، ثم جاء الناصر، وجاء معه الرخاء والهناء والمحبة.

كان الرجل عادلًا لا يفرق بين طائفة وأخرى، وأمر الوزراء والقضاة أن يعاملوا جميع الرعية بالعدل والمساواة. وأصبح رئيس الطائفة مهددًا، بعدما زال ملك من كان يناصره، وفي بلاط

الناصر صلاح الدين الذي يتسم بالعدل لم يجد هدفه.

ظللت أناضل في المحكمة الشرعية اليهودية بالفسطاط التي كنت أحد أعضائها، ضد الظلم والقهر الواقع على اليهود، من رئيس طائفتهم، وحاربت ضد أصحاب الآراء الجامدة حتى نجحت في إقصائه من منصبه، وفي مفاجأة لم تكن متوقعة تم اختياري لرئاسة الطائفة اليهودية، وتعهدت أمام الرب وامام الشعب اليهودي وأمام نفسي أن أعمل على رفعة اليهود دينيًّا وخلقيًّا وعلميًّا، وأن أزرع المحبة والإخاء بينهم وبين جميع طوائف الوطن.

أول ما عملت عليه كان بتر عادات سيئة تثير اشمئزازي وغيظي، مثل استعمال التعاويذ ظنًّا منهم أنها ترجع للدين، ولم يكن لها علاقة به من قريب أو بعيد، وشرحت لهم أنها بعيدة عن الدين وبها الكثير من الوثنية، كما أبطلت عادة الإطالة في الصلوات التي كانت تصل لساعات يفقد فيها المصلي التركيز والخشوع، بالإضافة أنها كانت تعطله عن العمل، وجعلتها قراءة قصيرة. وحاولت أن أبدد تلك الأفكار التي زرعت في رؤوسهم على مر سنوات طويلة بأنهم منبوذون ومكروهون، وفي ظل الحكم العادل للسلطان صلاح الدين بدؤوا يتأكدون أن كلامي صحيح، وأنهم أحد أقطاب المجتمع.

وبفضل الرب في وقت قصير من تعييني رئيسًا للطائفة، أصبحت مصر قبلة لأنظار يهود المشرق والمغرب، وأخذ الطلبة والعلماء يفدون إليها لرؤيتي والارتشاف من عذب مناهلي.

52

أوحد زمانه في صناعة الطب وفي أعماله

قسمت حياتي بين اهتمامي بمصالح اليهود كوني رئيس طائفتهم، وبين ممارستي الطب والتأليف، وقد تفوقت تفوقًا كبيرًا في المسائل الطبية، حتى أنهم أطلقوا عليّ (أوحد زمانه في صناعة الطب وفي أعماله)، وقد وصل صيتي الطبي إلى القاضي الفاضل (عبد الرحيم بن علي البيساني)، وهو وزير صلاح الدين يوسف بن أيوب، وعينني طبيبه الخاص، وما زلت كذلك في دار السلطان حتى أصبحت الطبيب الخاص للسلطان وعائلته.

ألهاني العلم والعمل عن التفكير في الزواج، حتى رأيت أخت أبي المعالي الكاتب في بلاط الملك الأفضل، وقد وقع حبها في قلبي منذ النظرة الأولى، ورزقت منها بولد وبنت هما كل ما لدي في هذه الدنيا. وهكذا أوزع عملي ما بين قصر السلطان ومواصلة العلم والمعرفة. الأمر صعب جدًّا ومرهق، وخاصة وأنا في مثل عمري هذا.

- نعم، في رسالتك التي كتبتها إلى شموئيل بن تبون، وأعتقد أنه لم يمر عليها في زمانك الآن فترة طويلة، وضحت ذلك.

(يبتعد مسكني كثيرًا عن قصر السلطان، وبيننا نحو مسافتي السبت، وأقابل الملك في ساعات الصبح، أما إذا كان هناك مريض من أبنائه، أو من نسائه، أو من أحد رجال حاشيته، فإني أمكث أكثر ساعات اليوم بالقصر، ومجمل القول إني أبكر صباح كل يوم إلى القاهرة، وأصل إلى منزلي متعبًا وجائعًا، وأجد على المقاعد خلقًا كثيرًا من المسلمين واليهود منهم الوجيه والعامي، كما أن منهم القاضي والشرطي، ومنهم الصديق والعدو، وبعد أن أترجل عن الدابة أغسل يدي، ثم أخرج

لمقابلتهم والاستئذان في تناول الطعام الخفيف، ثم أخرج إليهم لأداويهم ولكتابة أوراق الأدوية، وهكذا لا تنقطع وفود الزائرين قبل دخول الليل بساعتين ونيف، يأتون للسؤال في موضوعات الشريعة، وأجيبهم وأنا مضطجع على السرير من شدة التعب والضعف، وأعلمك أنه قد حصلت لي شهرة كبيرة في الطب عند الكبراء مثل: قاضي القضاة، والأمراء، ودار الفاضل وغيره من رؤساء البلد، وأني لا أجد ساعة أنظر فيها لأمور شرعية، ولا أقرأ إلا يوم السبت فقط، وأما سائر العلوم فليس لها عندي وقت، وقد تأذيت كثيرًا جدًّا من هذا).

- نعم، هذا حقيقي، عملي كطبيب أخّرني عن مواصلة تحصيلي في بحور العلم والمعرفة، صحيح أنني أنجزت الكثير، ولكن بحور العلم واسعة شاسعة لا تنضب أبدًا.

- لقد اطّلعت على قصة حياتك كاملة، وعلمت كم أفنيت عمرك في العلم والتعلم، ولكنك كنت دائمًا مثارًا للشائعات والأقاويل المغرضة، اليوم وأنا قادمة من زمن آخر، زمن بعدك بقرون كثيرة، وبالرغم من مرور كل هذا الوقت، إلا أن استمرار الصراع بين أنصارك وأعدائك ما زال قائمًا. هناك شائعات وأقاويل عابرة، وأخرى أُلصقت بك، ولا نعرف حقيقتها من كذبها.

انساب صوت العجوز مشوبًا بخيبة أمل:

- دائمًا كان هذا قدري. هيا هاتِ ما عندك.

- مثلًا هناك شائعة طالتك، وقد كتب عنها الكثيرون، ورد في كتاب (تاريخ مختصر الدول لأبي الفرج الملطي - المعروف بابن العبري) عن كتاب تاريخ الحكماء للقفطي أن أسرتك أسلمت أثناء إقامتها بالأندلس.. فهل هذا حقيقي؟

ظهرت على وجهه ملامح الدهشة، ومن ثم تحولت إلى سخرية:

- لطالما كانت أفكاري مثار نقاش ومشاكل؛ لأني خرجت عن الأفكار المحنطة، وحلقت بعيدًا في سماء الحرية الفكرية القائمة في المقام الأول على الفهم الصحيح، ومهما كان هذا الفهم بعيدًا عن الأفكار الراسخة، لقد هشمت بمعاول الحرية الفكرية التابوت الذي دفنوا فيه هذه الأفكار، ومن أجل ذلك تعرضت لحملات شعواء، ولكن لم يرمني أحد حتى الآن بأني خرجت عن دين أجدادي!

- للأسف، هذا ما حدث بعد وفاتك، شمّر المعارضون عن سواعدهم، وأخذوا يعملون بكل جهد لإثبات صحة هذا الحديث، فأخذوا يجمعون أدلة مختلفة من مصادر شتى، ولإقناع الناس بصحة هذا الكلام وصل بهم الأمر أن يجمعوا هذه المعلومات من مؤلفاتك نفسها.

- من مؤلفاتي؟!

نظرت في شاشة الآيباد، وبدأت القراءة:

- يقول (أبو الفرج الملطي): (وفي سنة...)، توقفت عند ذكر السنة، لم تنطقها، استعاضت عنها بـ في سنة كذا. من الصعب أن نخبر أحدًا بتاريخ وفاته، فيعيش على قيد انتظار الموت لا أكثر. وربما فهم ذلك، ولكنه لم يحاول أن يسألها:

(مات موسى بن ميمون اليهودي الأندلسي، وكان قد قرأ علم الأوائل بالأندلس، وأحكم الرياضيات، وقرأ الطب، ولم يكن له جسارة على العمل، وقد أُكره على الإسلام، فأظهره وأسرّ اليهودية، ولما ألزم بجزئيات الإسلام من القراءة والصلاة، فعل ذلك إلى أن أمكنته الفرصة من الرحلة بعد ضم أطرافه، فخرج من مدينة الأندلس إلى الفسطاط، وارتزق بالتجارة وما يجري مجراها، ولما انقضت الدولة العلوية اشتمل عليه القاضي الفاضل عبد الرحيم بن على البيساني، ونظر إليه، وقرر له رزقًا، وكان يشارك الأطباء، ولا ينفرد برأيه لقلة مشاركته، ولم يكن وقفًا في المعالجة والتدبير. وكان عالمًا بشريعة اليهود، وصف كاتبًا في مذهب اليهود سماه "الدلالة"، وبعضهم يستجديه، وبعضهم يذمه ويسميه "الضلالة"، وغلبت عليه النحلة الفلسفية، ورأيت جماعة من يهود بلاد الفرنج بأنطاكية وطرابلس يلعنونه ويسمونه كافرًا، وله تصنيفات حسنة في الرياضيات، ومقاربة في الطب، وابتلي بآخر أيامه برجل فقيه يُعرف بأبي العرب، وصل إلى مصر، وحاققه على إسلامه، ورام أذاه، فمنعه عنه القاضي الفاضل وقال له: رجل يكره لا يصح إسلامه شرعًا).

خرج عن هدوئه قائلًا:

- هذا الحديث غلط، لم أُجبر على الإسلام، ولو أنني أجبرت عليه، لما كنت خرجت من الأندلس، وتعرضت أنا وأسرتي لكل ما تعرضنا له من مهانة وذل، ثم أني لم ألتقِ بالقفطي، فمن أين حصل على هذه المعلومات؟!

- ولكن ليس هذا المرجع الوحيد الذي يتحدث عن إسلامك، هناك مرجع آخر، إنه كتاب (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) لابن أبي أُصيبعة.

كان قد فقد هدوءه:

- وماذا كتب عني ابن أبي أُصيبعة؟!

- كتب (هو الرئيس أبو عمران بن موسى بن ميمون القرطبي اليهودي، عالم بسنن اليهود، ويعد من أحبارهم وعلمائهم، وكان رئيسًا عليهم في الديار المصرية، وهو أوحد زمانه في صناعة الطب وفي أعمالها، متفنن في العلوم، وله معرفة جيدة في الفلسفة، وكان السلطان الملك الناصر صلاح الدين يثق فيه ويستطبه، وكذلك ولده الملك الأفضل عليّ، وقيل إن الرئيس قد أسلم في المغرب، وحفظ القرآن، واشتغل بالفقه، ثم إنه لما توجه إلى الديار المصرية وأقام بفسطاط مصر، ارتد).

- ومن هو ابن الأُصيبعة؟

- هو أبو العباس بن أبي أُصيبعة (موفق الدين أبو العباس أحمد بن سديد القاسم 1200-1270) مارس الطب في البيمارستان النوري بدمشق، ثم انتقل إلى القاهرة، فطبّب في البيمارستان الناصري سنة 631هـ، من أهم كتبه هذا الكتاب الذي ذكرك فيه (عيون الأنباء في طبقات الأطباء)، ويعتبر موسوعة نقل فيها المؤلف معلوماته عن مشاهير عصره جامعًا ما جاء في الكتب عن حكماء الأطباء وعلماء العرب والإسلام.

- أستغرب من أمره، فقد عاش في مصر مدة طويلة، فلماذا لم يحاول أن يتأكد؟ ثم انظري في (قيل) هذه، لماذا لم يبحث بجد في هذا الأمر بدلًا من القيل والقال؟!

- ربما لم يشأ أن يجزم، فقول مثل ذلك من الجائز أن يسبب فتنة بين اليهود أنفسهم.

وبنبرة أكثر هدوءًا من ذي قبل:

- أتعلمين، لطالما آمنت أن الأديان السماوية كلها واحدة فيما تنهانا عنه، وما تحثنا عليه؟

- لم أفهم ماذا تقصد بكلامك، هل أسلمت حقًّا؟!

- ما أقصده هو أني لو أُجبرت على الإسلام، لم أكن أخفي ذلك، كيف نستطيع أن نلوم أحدًا أُجبر على فعل شيء؟! وهل تعتقدين مثلًا أنه من الممكن أن يتهم طبيب الملك الأفضل بتهمة الردة عن الدين دون أن يكون لذلك رجة في الدوائر المصرية الإسلامية؟!

- ولكن "صلاح الدين بن الصفا خليل بن أيبك الصفدي" ذكر عنك في كتابه "الوافي بالوفيات" (موسى بن ميمون كان يصلي مع المسلمين التراويح في السفينة التي أقلّته من بلاد المغرب الأقصى إلى الشرق. ثم نزل إلى البر، وسافر إلى دمشق حيث دُعي إلى القاضي محيي الدين بن الزكي لما اشتد عليه مرضه في ذلك الحين، فعالجه إلى أن شفي شفاءً تامًّا، وأراد أن يجازيه، فرفض ابن ميمون، ولكنه عرض عليه أن يوقع على عقد بيع اشتراه بدمشق، وقدم تاريخ الشراء خمس سنوات، ولم يلتفت القاضي إلى ذلك. ثم رحل موسى إلى مصر، وأظهر يهوديته، وأصبح طبيبًا في دار القاضي الفاضل).

- ومن هو الصفدي؟

- أديب ومؤرخ ولد في صفد بفلسطين، ومات في دمشق، وله الكثير من المؤلفات (الوافي بالوفيات - الشعور بالعور - نصرة الثائر - أعيان العصر...) وغيرها الكثير.

- أنا لم أزر دمشق، ولم تطأها قدماي يومًا. انظري إلى ما تعرضت له؟! كما أني عندما استقليت السفينة في طريقي إلى عكا، لم يكن شهر صوم، فالمسلمون على السفينة كانوا يأكلون ويشربون.

بنبرة تحمل الشك:

- حقًّا!

- ألا تصدقينني أنتِ الأخرى؟

- بلى، ولكن سنتأكد.

أخرجت جهاز الآيباد، وقامت بفتحه على تطبيق التقويم.

- هل تتذكر تحديدًا متى استقليت سفينتك إلى عكا؟

- طبعًا أتذكر، وهل هذا تاريخ ينسى؟ كان ذلك في شهر مايو من عام 1165.

قامت بعملية بحث سريعة، وظهرت السعادة على وجهها، وكأن هذه الأقاويل كانت تطالها هي، أو ربما كانت تريد أن تتأكد أن ثقتها فيه لم تخب.

- نعم، كلامك صحيح. وافق شهر رمضان هذه السنة يوليو، وليس مايو.

- إذًا كيف أشترك في صلاة التراويح دون حلول الشهر، ولكن كيف تتأكدين من ذلك؟

- تطبيق على الهاتف.

- وهل هذه المعلومات موجودة في هذا التطبيق؟ يا له من شيء جيد!

وكأنه يستعيد ذكرى ما:

- أعتقد أن أمر قصة إسلامي ليس الغرض منها فقط الإساءة لي أمام اليهود، هناك أيضًا مجموعة من الأطباء ذوي الأطماع كانوا يكرهونني كثيرًا؛ لذلك أخذوا يلفقون شائعات وروايات للنيل من كرامة القاضي الفاضل الوزير عبد الرحيم بن عليّ البيساني أمام الرأي العام الإسلامي.

ومن ناحية أخرى كنت كتبت مقالة بعد وصولي مباشرة إلى المغرب دافعت فيها عن اليهود الذين أُكرهوا على اعتناق الإسلام، ففي الأخير هو دين أُنزل من عند الله، وهذه المقالة اتخذها البعض ضدي وفسروها على أنها تشجيع وموافقة على الدخول في الإسلام. كما أن هناك شيئًا هامًا، فلو كنت اعتنقت الإسلام كرهًا كما يدّعون، لما تركته أبدًا!

- عذرًا، ولكن ماذا تقصد؟

- الكلام لا يحتاج لتفسير.

حقيقي، الكلام لا يحتاج لتفسير، وخاصة أن أكثر الاتهامات التي وُجهت إليه أنه كان يتبع النهج الإسلامي في آرائه ومقالاته الفلسفية والعلمية أيضًا، وتأثره بفلاسفة الإسلام وأفكارهم، وذلك واضح في كتبه وضوح الشمس، وهو نفسه لم ينكر ذلك، لقد نشأ وتتلمذ على أياديهم.

- والآن هل يمكنك أن تخبرني بأمر هذه الوثيقة التي كتبت فيها (أنقذني.. الوشاة همّوا بقتلي) من هم هؤلاء الوشاة؟ ولماذا أرادوا قتلك، وتاريخ الرسالة كان يسبق رئاستك للطائفة، ويسبق أيضًا نشر مؤلفاتك التي لاقت الكثير من المعارضة؟

53
كلفة في القصر الملكي

من المؤكد أنكم تتشوقون لتعلموا ما الذي حدث معي هذه المرة، في واقع الأمر أنا نفسي ما زلت أجهل كيف حدث ذلك؟! ولكني سأخبركم بكل شيء لتكونوا شهداء على غبائي!

بناء على ما جاء في التقرير، رتبت خطتي، كان عليّ أن أفعل ذلك، بالرغم من أني لم أكن من هواة الظهور في الصور، وإن حدث، فأحب أن أقف في الخلف كهؤلاء الذين لا تستطيع أبدًا أن تستدل على أسمائهم، ويُشار لهم في مقالات الجرائد بـ (سين)، اعتدت أن أراقب الحياة من نافذة زجاجية مخفية في دور مسحور. نعم، كان هذا موقعي المفضل لمراقبة المقهى والحياة.

في هذا الصباح أوليت نفسي اهتمامًا خاصًا، حلقت ذقني، صفّفت شعري، وارتديت قميصًا أبيض، وجاكيت من التويد رمادي اللون، وانتعلت حذاء أسود لامعًا بحلية ذهبية اشتريته من متجر باتا بمبلغ كبير، وكنت أنتعله في المناسبات الخاصة.

هذه الأناقة المفرطة أضفت عليّ بعضًا من الجاذبية، جاذبية منحتني الثقة لأذهب وألقي عليها تحية الصباح، وأنا أمد لها يدي مصافحًا:

- صباح الخير. سعيد بمواظبتك على زيارة مقهانا.

رفعت رأسها، وأخذت تتأملني بنظرة فارغة بلا معنى لم أستطع معها أن أحدد شيئًا.

ظلت يدي معلقة برهة حتى مدت يدها، لم تخلع القفازات التي ترتديها، وفي الواقع لم يكن الطقس باردًا إلى حد أن ترتدي قفازات صوفية، شعور غريب، وأنا أصافحها كأني أصافح حفنة من

عظام أو أن أصابعها تكاد تتحطم في يدي. بدت أناملها طويلة بشكل يدعو للاستغراب، ويظهر تقوسها عند الأطراف.

لم تظهر أي تعبير، وهي تغمغم (شكرًا).

بالرغم من استقبالها الفاتر أزحت المقعد المقابل لها.

- أتسمحين لي بالجلوس؟

وضعتها أمام الأمر الواقع، إذ كنت جلست ولم أترك لها فرصة للتفكير:

- هل جربتِ الكرواسان الذي نخبزه هنا؟! أعتقد أنه سيعجبك كثيرًا، فالخباز كان يعمل في مخبز فرنسي شهير قبل وقوع الحرب.

أشرت للجرسون، وطلبت منه الكرواسان.

- هل تودين المزيد من القهوة؟

ودون أن أنتظر ردها، طلبت لنا فنجانين من القهوة.

كانت تنظر إليّ باستغراب من غير أن تفتح فمها بكلمة. كل شيء حدث بسرعة فائقة، سرعة كان من الصعب معها اتخاذ أي قرار.

اللقاء كله كان محسوبًا، وتدربت عليه كما يتدرب ممثل على أداء مشهد سينمائي. ثانية واحدة كان بإمكانها أن تفسد مخططي.

أشار التقرير إلى أنها إنسانة معقّدة، من النادر أن تتحدث مع أحد

لذلك لم أمنحها الفرصة أن ترفض.

- هل تعلمين أننا نستورد البن من البرازيل، ولا نستخدم البن المحلى، لأنه في أغلب الأحيان مغشوش؟ لذلك من يتناول القهوة عندنا يصبح أسيرًا لها. تقديري لذوقك سيدتي.

مدت يدها، تذوقته، ورفعت حاجبها تعبيرًا عن الإعجاب.

- أخمن أنك تعملين في واحد من البنوك أو القنصليات المحيطة بنا.

- لا أعمل في بنوك أو سفارات، أنا أسكن في الجوار.

بصوت خفيض لا يكاد يُسمع، واضعة نقطة آخر جملتها، نقطة تعني نهاية للحوار، لم تضع فاصلة، أو عدة نقاط، وضعت نقطة، وبعدها سحبت حقيبتها.

- شكرًا على حسن الضيافة، إلى اللقاء.

وغادرت.

شيء ما جذبني إليها. ما هو تحديدًا؟ لم أعرف، لم تكن تملك أية مقومات لجذب أو لفت نظر الرجال. بشرة باهتة، ملامح عادية، هيئة أقرب للذكور منها للإناث، ولكن كان هناك شيء غامض ينبثق منها.

بمغادرتها بمثل هذا الشكل المفاجئ أفسدت عليّ خطتي، كنت رتبت أن يتم التعارف بيننا؛ لذلك كان عليّ أن أضع خطة بديلة.

قضيت ليلتي ما بين شك ويقين، هل ستأتي صباح الغد كعادتها في السابعة والنصف؟ وراهنت إن جاءت، فسوف تنجح خطتي.

في تمام السابعة والنصف كانت تدخل المقهى بخطواتها الجامدة نفسها، وبمظهر لم يكن مختلفًا، ولكن القتامة التي تبدو عليها بدت أخف.

اعتاد محل الزهور أن يقوم بجلب سلة كبيرة صباح كل يوم، ويقوم النادل بتوزيعها على مزهريات صغيرة موضوعة على كل طاولة.

في هذا اليوم استلمت من صبي محل الزهور السلة، وعندما لمحتها قادمة من خلف الفاترينة الزجاجية للمقهى بدأت في توزيع الورود بنفسي.

لم ألتفت إليها، ثم كما لو أنّ الأمر مصادفة، رفعت نظري إليها وابتسمت:

- صباح الخير.

وأنا أمد لها يدي بوردة بيضاء.

- إنها بلون قلبك. صحيح لم نتحدث كثيرًا، ولكني أشعر أني أعرفك منذ زمن، وأن قلبك بلون هذه الزهرة البيضاء، ولروحك عطرها.

ابتسمت ابتسامة واسعة، ودعتني للجلوس، ففهمت أن خطتي قد نجحت.

أمس قرأت التقرير، مرة أخرى ذُكر فيه أدق تفاصيل حياتها، ووجدت نفسي أضع خطوطًا حمراء تحت الأبواب المواربة فيها والتي سوف تمكنني من العبور إليها، صحيح أن المساحات كانت ضيقة جدًّا، ولكنها موجودة.

أهم شيء أنها عزباء، مات زوجها في حرب 1948، وخلال هذه المدة لم يدخل شخص حياتها.

امرأة في هذا العمر وحيدة، من المؤكد أنها هي بحاجة للحب والحنان. لو كانت تتمتع، ولو بنسبة قليلة من الجمال، ربما كانت ستجد من يهتم بها. ذكر التقرير أنها شخصية جادة، وكان ذلك حجر عثرة في طريقي، ولكنه تفتت عندما وضعت على وجهها ابتسامة، وبعينيها هذه النظرة، وهي تمد يدها لتأخذ الوردة، وتقول بصوتها الذي تشوبه بحة دافئة:

- شكرًا.

أزاحت المقعد، وجلست، وشاركتها الطاولة دون استئذان:

- لكن أين تذهبين في هذا التوقيت المبكر؟ أنثى جميلة مثلك لا يجب أن تغادر فراشها قبل العاشرة لتتمتع بالدفء والراحة.

- إن فعلت ذلك، فمؤكد أني سأموت جوعًا.

- فهمت، أنت تعيلين نفسك.

هزت رأسها، وفي عينيها نظرة أسف.

- مضبوط.

- ولكن أليس ذلك دور الزوج؟

- لم يعد عندي زوج.

- منفصلان!

- نعم، منفصلان، في عالمين مختلفين هو في عالم الأموات، وأنا هنا.

- آسف لسماع ذلك.

هزت رأسها، وشردت في مكان آخر.

انتهت من فنجان قهوتها، فأشرت للنادل ليحضر فنجانًا آخر.

- شكرًا، ولكن يجب أن أذهب الآن.

- لم ننهِ حديثنا بعد.

- أي حديث!

- لا أعرف، ولكني تملؤني الرغبة في التحدث معك، في معرفتك أكثر.

صمتت دون أن تتحدث، وكأنها تفكر في ما أقوله.

- أين مكان عملك؟

- عابدين.

- إذن يمكنني إيصالك إلى هناك؟

قلتها، وأنا أستعد للذهاب معها، لم أمنحها الفرصة للتفكير. سبقتني بخطواتها العسكرية، حاولت أن أسرع لأسير بمحاذاتها.

في الخارج كان الجو أكثر برودة، لفحت وجهينا رياح باردة، فوضعت يديها في جيبي معطفها.

- هل عندك أولاد؟

- لا.

نظرت إليّ بطرف عينيها دون أن تدير وجهها:

- وأنت؟

- أنا أعزب.

هزت رأسها، لم تضف حرفًا. كنت أشعر أني أسحب منها الكلام بخيط، كمحقق يحاول أن يجعل من متهم كتوم يعترف.

- في الواقع لم أجد الإنسانة المناسبة للارتباط بها.

- ماذا تعني كلمة مناسبة؟

- أحبها.

نظرت إليّ بطريقة غريبة، وكأني تلفظت بقول خطأ.

- ماذا؟ ألا تؤمنين بالحب؟!

- أكيد.

أمعنت النظر في رقم الأتوبيس القادم المنقوش على النافذة الأمامية.

- عليّ أن أركب هذا الأتوبيس.

أسرعت، لحقت بها وجلست بمحاذاتها، لم نتحدث، لم تلتفت إليّ حتى. عندما جاء المحصّل ألقى عليها ابتسامة خبيثة، وهو يلقي تحية الصباح. اكتفت بأن أومأت بوجهها، دفعت قيمة تذكرتين، شكرتني، ثم أدارت وجهها تنظر إلى الطريق عبر النافذة.

لم يكن خط الأتوبيس يصل إلى السرايا حيث تعمل، كان علينا أن نسير عشر دقائق. في ضوء الشمس كانت عيناها باردتين شديدتي السواد، ترتدي ملابس متدرجة من اللون الأزرق

الباهت، فكانت تبدو مصابة بحالة متقدمة من الاكتئاب.

قبل بوابة القصر سألتها:

- متى تنتهين من عملك؟

- في الرابعة.

- إذًا هل يمكننا أن نلتقي في (كازينو عابدين)، سأنتظرك في الرابعة والنصف. لم تجب، لم تقل نعم أو لا. اتسعت عيناها كما لو أنها تفكر في الأمر.

راقبتها، وهي تذهب مخلفة لي ظهرها، ومخلفة بي داخلي شيئًا غريبًا. لم تكن رائعة المظهر، بل لم تكن حتى جميلة، ولكن كان فيها شيء شهوانيّ، مثير، وخشن.

54

على متن مركب سيبحر إلى عكا

- منذ أن وطئت قدماي مصر، وبدأت في إلقاء دروس الدين، أصبحت شوكة في حلق البعض. كان على رأسهم (يحيى) رئيس الطائفة آنذاك، وكنت ضد طريقة تناوله الدين اليهودي وتفسيراته له والتي كان يشوبها الكثير من الخطأ والمغالطات، لذلك عندما وقفت له بالمرصاد حاول التخلص مني.

في ليلة باردة أثناء رجوعي إلى المنزل سمعت صوت خطوات تتبعني، وعندما نظرت خلفي لم أشاهد أحدًا. أثار الأمر ريبتي، أسرعت الخطى، فسمعت الخطوات تسرع لتلحق بي.

التفت مجددًا، كان الظلام دامسًا، فلم أرَ سوى شبح رجلين، هجم عليّ أحداهما من الخلف، وشد ذراعيّ بقوة، لم أستطع معها أن أتحرك، ولكني صحت صيحة مدوية.

اقترب رجلٌ آخر بنصل خنجره البارد ووضعه على عنقي، هززت رأسي بقوة، فلم يفلح في ذبحي. وقتها صاح أحد البصاصين (مين هناك؟)، وأنار ضوء قنديله الظلام، واستطعت أن ألمح خيال الرجلين. كانا يلفان أنفسهما بجوالين من الخيش.

الرجل الذي يشدني من الخلف كان يصيح في زميله: (هيا اقتله.. اذبحه)، ظل الخنجر على عنقي، ولكن يد الرجل كانت متحجرة، ولم يستطع أن يفعلها. اقترب صوت البصاص أكثر، ولاح الضوء أكثر وأكثر، فارتعشت يده، واختل الخنجر منه وكاد يقع، وعندها ركضا، انتظرت أن يقترب البصاص مني لأحكي له، ولكن الضوء تلاشى ومعه خياله، صحت (أنقذني)، ولكن لم يكن هناك من أحد.

لا أفهم تحديدًا، ما الذي حدث؟ هل ذهب في طريق آخر أم كان مجرد وهم؟!

- لكن لو كان وهمًا، لماذا هربا؟

- صدقيني، إلى يومنا هذا لا أعلم تحديدًا ما حدث؟ فصوته وضوء قنديله كانا على مقربة مني، بضع خطوات لا أكثر، وفجأة اختفى، لولا أني لا أصدق مثل هذه الأمور، لكنت تأكدت أنه شبح.

- أمر غريب حقًّا!

- لا أعرف كيف حملتني قدماي إلى منزلي! لا أصدق أنني كنت على حافة الموت، ومن ثم لم أمت! ما أفزعني حقًّا الطريقة التي كنت سأموت بها. كانت أوصالي ترتجف، ولكني بالرغم من ذلك جلست فور وصولي لأكتب الرسالة.

- لاحظت ذلك، وكأنها دونت على وجه سرعة، أو تحت تهديد سلاح، أو شعور بالفزع.

- استغاثة كتبتها وأنا أرتجف خوفًا، كنت لا أزال أشعر ببرودة معدن الخنجر على جلدي، وحدّة سنّه.

- ولكن لماذا كتبتها عن طريق الشفرة؟

- هذا النوع معروف لعدد قليل من رجال الدين اليهودي يعتمد على حساب الجمل واختصاراتها، ورئيس طائفة يهود عكا الحبر (يافث بن إلياس) كان على دراية بهذه الطريقة، ولخطورة الرسالة وأهميتها قررت أن أفعل ذلك.

- ولكن كيف بإمكانه أن يساعدك؟

- كان يملك سلطة قوية على جميع رؤساء طوائف اليهود، وكنت قد أرسلت له في السابق رسالة، حكيت له فيه عن مناقشتنا التي تطاول فيها عليّ، وأخبرته أنه يراقبني باستمرار، ويحاول أن يفسد عليّ عملي، ولن يتوانى في أن يتخلص مني، فأرسل يقول لي: لو تعرضت لإيذاء منه مرة أخرى، فسوف آخذ منه موقفًا حازمًا.

صمت لبرهة، وأضاف:

- عندما يوشك مركب على الغرق، فالبحارة يشعلون الضوء، ويطفئونه عدة مرات متتالية، هذه الإشارات الضوئية لمن يبعثونها، وليس هناك أية سفن على مقربة، والفنار البحري يبعد مسافات طويلة، وأن يراها أحد احتمال ضئيل جدًّا، وبالرغم من ذلك يستغيثون؟! هذا ما تصح فيه مقولة غريق يتشبّث بقشة.

في نهار اليوم التالي علمت أن هناك مركبًا سيبحر إلى عكا، فسلمتها لشخص كي ينقلها إليه، وكان من المفترض أن هذا الشخص أهل ثقة، ولكن للأسف خاب ظني فلم يقم بإيصالها، ومن المؤكد أنها وصلت لأعدائي، وفشلوا في معرفه ما تحتويه أو ربما عرفوا، وفي الحالتين أرادوا أن يتخلصوا منها للأبد، فقاموا بدفنها في مقابر الجينزا ليشاء القدر أن تقع في يدك بعد كل هذه القرون كما تزعمين.

دخل في تفكير عميق، ثم قال:

- بعد كل هذه القرون تصل الاستغاثة، تصل في زمن آخر، ولشخص آخر، إنه أمر غريب! والأغرب منه أنك تحاولين إنقاذي أيضًا! ها أنت تفتشين في تاريخي لمحاولة إنقاذي من الشائعات المغرضة التي تعرضت لها بعد وفاتي، وكأن هذه الرسالة بقيت محفوظة كل هذه القرون، ولم تفقد السبب الذي كتبت من أجله. يا له من قدر!

- نعم، صحيح، وسأبذل كل جهدي من أجل ذلك.

نظر إلى ساعة رملية على مكتبه، اليوم هو المولد النبوي الشريف، وهناك احتفال كبير بهذه المناسبة، وقد دعاني شيخ الإسلام لحضورها، وسوف ألقي خطبة بعنوان (التآخي بين الملل في ظل الحكم الأيوبي)، فيجب أن أذهب.

- لكن حديثنا لم ينتهِ بعد.

- يمكنك أن تنتظريني هنا.

صمت برهة، ثم أضاف:

- ويمكنك أن تأتي معي لتشاهدي الاحتفال.

ثم أخذ يتأمل مظهرها:

- سوف أجلب لك حبرة من زوجتي؛ لأنك لو ذهبت معي بهذه الملابس، ربما يعتقدون أنك هاربة من المارستان.

ضحكت:

- حسنًا، وأنا موافقة.

55

مفقود حرب

قبل الرابعة بقليل كنت هناك، اخترت لنا طاولة على ضفاف النهر، جلست في انتظارها بالشك نفسه في مجيئها كما كل مرة، كانت غريبة الأطوار لم أستطع التنبؤ بتصرفاتها.

شمس الشتاء توزع أشعتها الأخيرة قبل أفولها، بينما جهاز جارامفون يبث أغنية لأم كلثوم بقيت متوترًا في انتظارها، ولا أعرف السبب الحقيقي وراء ذلك! شيء متعلق بشعور خفي، لا يمكن تفسيره.

ثم جاءت، زفرت نفسًا عميقًا محملًا بقلقي وتوجساتي، وقفت في استقبالها. وأزحت لها المقعد لتجلس:

- المكان جميل. لم أكن أعلم أن فيه صالة صباحية، كنت أعتقد أنه ملهى ليلي فقط.

- هذا مكاني المفضل.. كما أن أكلهم شهي جدًّا.

قدمت لها قائمة الطعام التي وضعها الجرسون النوبي، وذهب

- لا أشعر بالجوع.

- عندما تشمين رائحة الطعام سوف يسيل لعابك.

ابتسمت، كانت المرة الأولى التي أراها تبتسم فيها:

- هذه المرة الأولى التي أراك تبتسمين. لماذا؟

ما إن تفوهت بذلك حتى تبدلت ملامحها للكمد مرة أخرى، وكأني أمسكتها متلبسة بجريمة شنعاء.

جاء النادل، فتكفلت باختيار الغداء، طلبت لنا أشهى ما يقدمونه حمامًا محشيًا بالفريك ومرقة لحم بالخضار.

- ماذا تعملين في القصر؟

- كلفة، أجفف كؤوس الشامبانيا.

ضممت حاجبي استغرابًا.

رفعت يديها، وفرقت بين أصابعها، وحركتها في شكل استعراضي:

- بفضلهم مُنحت هذه الوظيفة، كؤوس الشمبانيا ضيقة تحتاج لشيء يشبه هذه الأصابع.

بدت عليّ ملامح الاستغراب، فلاحظت ذلك:

- لا تستغرب، فبإمكان نقمتك أن تكون سببًا في نعمتك.

لم يُذكر في التقرير الذي جاء عنها أي شيء بخصوص كؤوس شمبانيا، فقط ذكر أنها خادمة في القصر.

- هل هذه هي وظيفتك؟ تجفيف كؤوس الشمبانيا أم أنك تعملين عملًا آخر؟

- كل ليلة تقريبًا هناك حفلات يقيمها الملك، توزع فيها كؤوس الشمبانيا طوال الليل، الكأس بعد الآخر، أذهب في الصباح لأجد تلالًا منها في انتظاري، أحيانًا أقوم بتجفيف أكثر من 500 كأس. كؤوس أصلية بحواف من ذهب، وموقعة بشعار أشهر مصانع الكريستال البوهيمي، وفي سمك ورقة السيجارة؛ لذلك أعمل بحرص شديد.

أخذت نفسًا عميقًا، ثم أضافت بصوت فيه الحسرة:

- إنه عمل مضنٍ، لا تستخف به.

- ولماذا أستخف به؟

- لأن ما من أحد أخبرته بمهنتي إلا وقد استخف بها.

- أنا لست مثلهم، على العكس أنا أحترم جهدك في سبيل إعالة نفسك.

صمتت لبرهة:

- وأنت ماذا عنك؟

خرجت الكلمات من فمي مشوبة بدخان السيجارة الذي نفثته:

- أنا أسعى لتحقيق أهداف معينة.

- مثل؟

- مكانة.

ردّت بصوت خافت:

- أنت صهيوني؟

- أنا يهودي ومصري.

- بعد 48 لم يعد هناك يهودي مصري، هناك ما يسمي بالصهيوني، بالإسرائيلي.

- من قال ذلك؟! أنا يهودي مصري، ولدت على هذه الأرض، هي أرضي وأرض أجدادي، سأعيش وأدفن في ثراها.

- حقًّا، جميل أني أسمع ذلك منك.

- طبعًا بلا شك. أنا ضد وعد بلفور، ضد الكتاب الأبيض، ضد الصهيونية، ضد إقامة دولة إسرائيل، ضد الحروب، ضد الموت والدمار.

- ليت جميعهم مثلك.

- لست وحدي الذي أؤمن بذلك، هناك الكثير من اليهود المصريين الذين يعتنقون هذه الأفكار.

كان صوتي مليئًا بالحماس، وكنت أحدثها بعزيمة، حتى أبث بداخلها راحة وطمأنينة؛ فثقة المصريين باليهود في هذا التوقيت كان قد انتهت.

- يؤسفني ما حدث لزوجك حقًّا، ولكن عزيزتي ألا ترين أن السبب الرئيسي في قتله هو صفقة الأسلحة الفاسدة؟

- نعم، كل من له يد في تلك الصفقة كان سببًا في موت زوجي. إن روحه معلقة في رقابهم جميعًا. قبل الحرب بعدة أسابيع قاموا باستدعائه، لم يكن له أية دراية بفنون الحرب، ولا حتى بكيفية مسك السلاح. لم يكن يخبر من فنون الحياة سوى الحياكة، مهنته التي تعلمها أبًّا عن جد، يومها ضمني إليه طويلًا، وكأنه كان يعلم أنه الوداع الأخير، راقبته من النافذة، كان يسير بخطوات بطيئة على غير عادته، عند منعطف الطريق التفت وأشار إليّ بقوة، شعرت حينها بغصة في القلب، وساورني شعور بأنها المرة الأخيرة التي أراه فيها.

لا أعلم ما الذي فتح شهيتها على البوح، وهي الكتيمة!

- في احد الأيام وصلتني رسالة من المكتب العسكري المكلف بأخبار عائلات الجنود، رسالة جاء فيها أن محمود عبد الغني البالغ من العمر 35 عاما، طوله 1,80 متر، ووزنه 73 كلغ، اسمر، متناسق الملامح، سليم الاسنان يعمل خياط قد فقد. لم يكتبوا أنه كان دمث الخلق، حلو المعشر، لا يكف عن القاء القفشات والنكات حتى في أصعب الأوقات وكانت هذه طريقته لدفع أذي الحياة. لم يخطوا على هذه الورقة أنه مفعم بالنشاط والحيوية يستيقظ باكرا يعد لنا وجبة الأفطار وأنه يحبني كثيرًا.

مكثت في انتظاره أيامًا وشهورًا، كنت أجلس بجانب الراديو لساعات أستمع إلى الأخبار. كما لو أني أتوقع سماع صوته يقول أنا مازلت حيا، أدير المؤشر ببطء شديد، بصعوبة ألتقط القناة، ومن بين الوشيش يأتي صوت المذيع، أستمع تارة للانتصارات وتارة للهزائم والخيبات، وفي أحد الأيام وأنا أدير المؤشر ببطء ومن بين وشيش قوي ألتقط صوته، نعم، كان صوته، قال: "أحبك".

وقررت أن أكتب له كل يوم رسالة لأوهم نفسي أنه حي يرزق في مكان ما على وجه البسيطة، أدون فيها كل شيء حدث في غيابه لنقرؤها معا عند عودته وهو لا يكف عن اطلاق قفشاته على تلك المقاطع المفعمة بالحب، ولكن مع الأيام لم أعثر على شيء يمكن أن أحكيه. كل شيء توقف بغيابه، عدا حنيني له الذي احتفظت به في داخلي، لأن ورق العالم كله لم يكن يكفيه.

كانت تحكي، وهي شاردة. الشمس تتوارى خلف النهر، وتتوارى معها الأحلام، ثم فجأة وكأنها انتبهت لوجودي:

- انتهت الحرب، وكنت أترقب عودته بين لحظة وأخرى، أقف في النافذة، أتخيله قادمًا من بعيد واضعًا وردة في جيب سترته، تمدد الوقت وطال ولم يأتِ، تمنيت أن يأتي حتى ولو محمولا على الأعناق لأودعه، ومن الحين والآخر أذهب لزيارة مقبرته، لكنه لم يكن في عداد الأموات، ظل ضمن قائمة المفقودين لوقت طويل حتى عثروا على بقايا منه، مجرد رفات.

- (Missing in actio) وتعرف باختصار بـ (Mia)

- وماذا يعني ذلك؟

- يعني مفقود حرب.

ضحكت بسخرية، ثم نظرت إليّ بازدراء:

- أحقًا هذا كل ما يعنيك اختصارها بالإنجليزية!

- آسف.. لم أقصد ولكن...

- صحيح، وما أدراك أنت بالألم الذي عشته أو بالألم الذي تعرض له هو؟!

- كيف لا أدري؟! لقد تعرضت لأقصى مستويات الألم والحزن، ليس في استطاعة إنسان أن يتحملها. قُتلت أختي وزوجها وأولادها في معسكر للنازية، هاجمتهم القوات ذات صباح، وأخذتهم لأحد معسكرات النازية، وهناك قتلوا بالغاز. إنه الظلم البشري في أقسى ظلماته.

كنت أريد أن أكسب ثقتها بأي شكل، لفقت هذه القصة، وأخبرتها بها واضعًا على وجهي تعبير حزن عميق مع نبرة أشبه بالبكاء.

كانت غايتي الحصول على معلومات منها بشكل غير مباشر، أحاول أن يتطرق الحديث إلى الملك والقصر والسياسة، ومن ثم كانت تلتقط حبل الحديث وتحكي كل شيء.

في أوقاتٍ كثيرة كنت أحاول استفزازها (كيف لكلفة أن تعرف كل هذه الأخبار؟! أو كيف لمجففة كؤوس شمبانيا أن يصلها كل هذه المعلومات؟!) فتتحدث بثقة قائلة:

- كل الأخبار تتناقل من الخدم والسفرجية والشماشرجية، وتصب في النهاية في المطبخ. نحن أيضًا نقوم بمناقشتها، ونبدي آراءنا عليها، أم أنك تعتقد أننا مجرد خدم لا رأي لنا ولا أهمية؟! من المطبخ تخرج إلى العالم كل أسرار القصر، قصصه ورواياته.

أحيانًا عندما نعلم عن علاقة غرامية جديدة للملك، ونريد أن تصل للملكة، نشيعها بالخارج، وفي وقت قليل تتردد على كل لسان حتى تنشرها الصحافة، ويبتسم السفرجي في خبث، وهو يضع الصحيفة على صينية الإفطار التي يحملها لها في فراشها.

كانت هذه المعلومة التي أخبرتني بها، وهي تمزح واحدة من أهم أسس التخطيط الاستخباري، (الشائعات) كان من السهل أن نثير الشائعات، لكنها عندما تخرج من بين جدران القصر الملكي فهذا معناه أنها موثوقة، لا يمكن لأيّ كان التشكيك فيها، من هنا أصبحت بالنسبة لي سكينًا ذا حدين، أعرف منها الأخبار، وفي المقابل أقص عليها أخبارًا مثيرة، وأنا على يقين بأنها ستقوم بنشرها على مسامع الخدم والموظفين بالقصر، أقص عليها أمورًا سيئة ومستفزة عن السياسة والحكم والملك لتجلب نقمة الشعب وغضبه.

أحيانًا كان شعوري تجاهها يجعلني أشعر باللوم لاستعمالها كهدف، كان يكفي ما هي فيه، ولكن كما أخبرتكم سابقًا، في سبيل ذلك في سبيل وطن لنا لا شيء يهم، وكانت هذه المهمة غاية في الأهمية.

قبل حريق القاهرة أخذت أردد على مسامعها في كل لقاء بيننا أقاويل مهولة عن ظلم الملك وفحشه، عن اضطهاد الإنجليز، عن الزيف والفساد، والقهر، والطبقية التي يعيش فيها المصريّون.

كنا نريد أن نؤجج الرأي العام والجماهير ضد القصر والحكومة، حتى عند وقوع الحريق الذي خططنا له، واشتركنا فيه مع عدد من العناصر والأحزاب الأخرى. يرتبك إصبع الاتهام، ولا

يعرف لأي جهة تحديدًا يوجه، فالشكوك كبيرة وواسعة.

وبالفعل توتر الأمر بعد الحريق بشكل كبير، وتبدلت الأوضاع داخل مصر، اهتزت هيبة القوى التقليدية المهيمنة، السراي وحزب الوفد، بينما زادت شعبية الأحزاب القادمة من رحم الطبقة الوسطى.

56
أسورة من الموسلين

تأملها في حبرة زوجته فابتسم، من الواضح أن زوجته كانت أقصر منها بكثير، فذيل الثوب كان يصل إلى بعد ركبتيها. كان سائس عربته التي تجرها الخيول يقف بانتظاره أمام بوابة المنزل.

أخذت العربة تشق بهما طرقًا وأزقّة متعرجة، أشار لسوق كبيرة (إنها سوق الحوائصيين) التي تصنع وتُباع فيها هذه الحياصة، وسميت هذه المنطقة باسمها. أدارت الكلمة في رأسها (حياصة)، إنها تعني الحزام ولكن كان ذلك اسمه قبل عدة قرون مضت. تخيلت، وهي تبحث عن حزامها ولم تجده، أن تصيح قائلة: (أين ذهبت حياصتي؟ لقد وضعتها هنا بيدي)، أو تخبر صديقتها (لقد اشتريت أمسِ حياصة جميلة ماركة بيار كاردان)، ابتسمت بينها وبين نفسها. على أي حال لم يختلف الاسم فقط ولكن الشكل أيضًا، كان عريضًا جدًّا ومصنوعًا من معادن مختلفة، نحاس، فضة، ذهب. حسب كل فرد وقيمته في المجتمع.

كانت تتأمل ما حولها في انبهار، هل هذه حقًّا هي القاهرة المدينة التي تسكنها؟ هناك شوارع ممهدة، والبيوت فيها مبنية على الطراز الفاطمي في العمارة بشكل ثري وأنيق، وهناك أيضًا أزقة ضيقة غير ممهدة، والبيوت فيها بنيت من الخشب والخوص، حقا لا أثر لقاهرة اليوم لا الشوارع ولا المباني ولا الطبيعة ولا حتى الطقس، كل شيء كان مختلفًا عدا التفاوت الكبير في الطبقات، من الواضح أنه قدر. الوجوه أيضًا لم تختلف وكان ذلك واضحًا جدًّا في الملامح التي رأتها. إنها نفسها ملامح المصريين وطباعهم التي تقابلها كل يوم في الشارع والعمل وفي كل مكان. هذا الشيء جعلها تشعر بألفة وحميمية، وبدد خوفها فهي بالرغم من كل شيء في بلدها.

تمر العربة مسرعة، وتطالع من مكانها السقّائين يضعون الأجربة الجلدية الممتلئة بالماء فوق ظهورهم، وتتداخل نداءاتهم المرتفعة مع نداءات بائعي الفاكهة والخبز المرشوش بالسمسم.

من نافذة المارستان تناهي الى سمعها صراخ أحد المجانين، سحب بخار الماء الحارة الرطبة تغلف الحمامات العامة، وتفوح من دكاكين الأرمن واليهود روائح النبيذ غير عابئين بسيوف الأيوبيين.

خيول عربية يقوم سائسوها بتنظيفها وفركها وتنشفيها. خيول للسباق، وخيول للمعارك والحروب، وفي خضم هذه الجلبة كان الجلادون ينادون بتنفيذ حكم إعدام على شاب أرمني.

على الرصيف مجموعة من الرجال، من الواضح أنهم مدانون بأحكام، كواحلهم مقيدة بالسلاسل، ويجلدهم الحراس بالسياط. كانت هذه المشاهد، وهي تمر بها مسرعة كأنها تشاهدها من خلف ستار أو شاشة عملاقة، شاشة تظهر العروض بتقنية شديدة، وهي على يقين أنها لو اقتربت منهم وحاولت أن تلمسهم، فلن تجد سوى سراب.

لاحظ ابن ميمون دهشتها التي تجزم أنها قادمة من عالم آخر لا محالة.

- الفسطاط إنها المدينة التي انبثقت من عبق التاريخ، الأرض التي مر بها موسى وعيسى. إنها عاصمة سلاطين الأيوبيين.

هذه المدينة يسكنها فرس وفرنجة وأرمن وأتراك وهنود وشوام وعرب. هذه المدينة فيها كل شيء. فيها حب وهناء. وفي المقابل فيها حزن وألم، فيها الطيّبون وفيها الأشرار. فيها المر وفيها العسل.

أخرج من جيبه سوارًا من الموسلين الأزرق، وطلب إليها أن تلفه حول معصمها، لم يمنحها الفرصة لتسأله ما هذا؟

- تشير إلى أنك في معية وضيافة شخصية لها مكانتها في المجتمع؛ لذلك سوف يخشى الفضوليون الاقتراب منك.

توقفت بهما العربة في ساحة الاحتفال. شادر كبير مزدحم بالناس في نهايته نُصب صوان، نقشت فيه آيات قرآنية بخط كوفي جميل وأسماء النبي والخلفاء.

رصت مقاعد لجلوس السلطان وحاشيته وضيوفه. كان يتوسط المكان بعمامته وأوسمته وثيابه الحريرية الباذخة، يقف على جانبيه مساعداه يتقلدان سيفين بحجمين مختلفين، نقش على مقبضهما بخط عريض اسم السلطان وآيات قرآنية لحفظه، حوله دائرة من الرجال البارزين زُينت أثوابهم الحريرية بأحجار من العقيق مطرزة بخيوط ذهبية، وكان كل منهم يرتدي عمامة كبيرة تتطابق مع لون ثوبه. انفرد شيخ الإسلام بالجلوس على مقعد في زوايا عالية، يرتدي عمامة كبيرة ورداء فضفاضًا، ويصعد إليه الضيوف لمصافحته وتهنئته.

كان ابن ميمون يسير الهوينى بجانبها، وعلى الدوام مستغرقًا في التفكير. يقبل عليه جمهور من النساء والرجال بأعمار مختلفة يصافحونه، ويلاحقونه بأسئلة يواصل الإجابة عليها دون كلل أو ملل، لا فرق بين قبطي ومسلم ويهودي. كان يمكن أن يقف طوال اليوم لمواصلة الإجابة عن الأسئلة، ولكنه اعتذر منهم وأخبرهم أن عليه الذهاب لتهنئة شيخ الإسلام.

لم يكادا يخطوان سوي خطوات قليلة حتى أسرعت نحوهم شابة جميلة. اقتربت من ابن ميمون وانحنت على يده تريد أن تقبلها، ولكنه شد يده ووضعها وراء ظهره. سألها عن حالها وحال والدها وصحته، ثم أشار إليها:

- هذه ضيفتي وهي غريبة عن المكان، سأتركها معك وأذهب إلى مجلس السلطان وعند انتهاء الاحتفال، نتقابل في هذا المكان لنعود أدراجنا.

- اطمئن، سوف أعتني بها.

قام بوداعهما وذهب لمجلس السلطان.

سألتها المرأة:

- أنا صبيحة. وأنت ما اسمك؟

- مانوليا

حاولت أن تنطق الاسم:

- م م ما ما.

- يمكنك أن تدعوني (مايا).

ابتسمت المرأة وهزت رأسها:

- من أي بلد أنت؟

ألجمها السؤال، ماذا بإمكانها أن تخبرها؟!

إنها من هنا، من هذا البلد، تعيش وتحيا على هذه الأرض؛ ولكنها جاءت بعدها بقرون طويلة.

قرون كانت قادرة على أن تبدل كل شيء إلا الشخصية المصرية، فهذه المرأة التي تحدثها تشبه كثيرًا زميلاتها في الدراسة. في العمل، تشبه جاراتها، تشبه خالاتها وعماتها. الابتسامة التي لا تفارق وجهها، ملاحقتها بالأسئلة، الاهتمام والدفء. أبدًا، الأمر ليس متعلقًا بملامح الوجه فقط ولكن الروح أيضًا.

ترتدي مثل معظم النساء اللواتي وقع نظرها عليهن، حجابًا حريريًا يتألف من قطعتين، القطعة الأولى تلتف حول خصرها على شكل تنورة، والقطعة الثانية تخفي ظهرها وكتفيها، وينسدل فوق جبهتها حجاب صغير من الشاش لا يظهر ملامحها ولا يخفيها، لكنه يجعلها أكثر غموضًا، وعلى المرء أن يبذل مجهودًا أكبر في التطلع إليها لكشف محاسنها.

هذا أمر النسوة العاديات، أمّا نسوة البلاط والنسوة الأكثر ثراء اللاتي كن يمررن بجانبها من آن لآخر، فيفوح منهن العطر وكأنهن سكبن قنينة كاملة على أنفسهن. تفنن في البهرجة والتزين، وضعن فوق رؤوسهن قبعات مزينة بخيوط الذهب يعلوها ريش بألوان مختلفة، ويرتدين جوارب حريرية مطرزة بالمجوهرات، ويضعن في أقدامهن أحذية معكوفة عند المقدمة مشغولة بخيوط من الذهب والفضة، وخلفهن يسير عبد أسود طويل وعريض، مفتول العضلات بعيون حمراء متوهجة كالجمر.

في باحة واسعة امتدت أسمطة طويلة، عليها قدور كبيرة من الطعام بروائح طيبة وشهية، وأسمطة أخرى خصصت للحلوى والمشروبات التف حولها جمعٌ من الناس.

قالت لها صبيحة بدهشة، وكأنها تخبرها باكتشاف مذهل:

- لقد ذبحوا اليوم 40 شاة، وتبرع التجار والأعيان والأثرياء بعدد لامتناهٍ من اللحوم، قاموا بذبح كل ما حلل أكل لحمه، وإلا فكيف كان يمكنهم أن يسدوا جوع كل هذه الجموع؟!

أشارت لشادر كبير:

- إنه شادر حلوى المولد. عرائس وأحصنة صنعت من السكر ومختلف أنواع الحلوى التي تصنع خصيصًا لمولد النبي محمد عليه الصلاة والسلام، والمرور بداخله الآن يعتبر ضربًا من المستحيل، يمكننا أن نؤجل ذلك إلى ما بعد انتهاء الاحتفال.

- وهل حلوى المولد كانت تصنع على زمانكم؟

- ماذا تعنين على زماننا؟

- اعذريني يا صبيحة، أنا قادمة من بلاد بعيدة.

- هي الشيء الوحيد الذي تبقى من احتفالات الفاطميين. كان الحاكم بأمر الله يتجول هو وزوجته في موكب كبير بسرادق المولد بصحبة إحدى زوجاته التي صادف في أحد الاحتفالات أنها ترتدي ثوبًا ناصع البياض، وتضع على رأسها تاجًا من الياسمين، فقام الحلوانية برسم الحاكم وزوجته في قالب من الحلوى، صوروا زوجته في هيئة عروس جميلة، وهو على شكل فارسٍ يمتطي جوادًا. بعدها أمر الحاكم بأمر الله أن تتزامن كل أفراح الزواج وعقد القران مع مولد النبي، فأخذ الحلوانية يصنعون كميات كبيرة من العروس الحلوى وتفننوا في تزيينها، وكانت توزع بالمجان على المحتفلين. ذهب العهد الفاطمي؛ ولكن بقيت بعض موروثاتهم، وكانت هذه واحدة منها.

كانت تريد أن تخبرها أن هذه العادة توراثها قرونًا بعد قرون وأجيالًا بعد أخرى.

بدأت الطبول والدفوف تدق، وتداخلت معها أصوات نافخي الناي. أشارت إلى خيمة كبيرة لعروض الحاوي والدببة والبهلوانات.

- هل تحبين الدخول؟

- لكن الزحام في الداخل كبير جدًّا.

- نعم. مصر كلها تستعد للاحتفال قبل الموعد بعدة أسابيع. الكل يخيط ملابس جديدة، ويهيئ مظهره ويتحمم، ويأتون من كل حدب وصوب يوم المولد منذ الصباح الباكر، ومن يسكن مدنًا بعيدة يأتي قبلها بيوم، وهناك من يأتي قبلها بعدة أيام للتبرع بصحته في المساعدة بتجهيزات الحفل.

- مدهش حقًّا يا صبيحة! هل أنت قريبة لموسى بن ميمون؟

- كيف أكون قريبته، وأنا امرأة مسلمة! أصيب أبي منذ عام بمرض شديد كان يخيل لي أنه يحتضر في كل يوم وكل ساعة وكل دقيقة، فلجأت للحبر موسى وقد بذل جهده لمساعدته على الشفاء؛ لذلك أكن له عظيم الشكر والامتنان.

في زاوية من الطريق جلست عدد من العرافات الغجريات، وضعن أمامهن أحجارًا بأحجام مختلفة وأشكالًا مختلفة، كحلن أعينهن بكحل كثيف، وتركن شعورهن الطويلة الصهباء والشقراء منفلتة، والتف حولهن عدد من النسوة.

رمقتها عرافة منهن بنظرة غريبة، نظرة أفزعتها، شعرت معها أنها اخترقتها.

ثم أشارت بيدها بما يفيد "تعالي ". تطلعت حولها، فلم تجد أحدًا سواها تشير إليه، سارت إليها كالمجذوبة دون أن تجيب حتّى على صبيحة عندما سألتها (هل تريدين قراءة البخت؟).

ركعت أمامها، فأمسكت المرأة بحجرين وقامت بضرب أحدهما بالآخر، ثم ناولتها واحدًا (وشوشي الحجر بما تريدين معرفته). أخذت الحجر منها وقربته من فمها..

ما الذي كانت تريد معرفته؟ لا شيء.. لا شيء أبدًا، كل الأمور أصبحت بالنسبة إليها مشوشة ومرهقة.

أين هي؟ ما الذي جاء بها إلى هنا؟ هل هي في حلم أم حقيقة؟

أخذت منها الغجرية الحجر، ووضعته على أذنها، وبصوت خشن أجش، صوت يشبه دهس ورقة شجر خريفية.

- أمرك غريب! لم أسمع في حياتي جلبة مثل هذه، وكأن آلافًا وآلافًا من الحجارة تصطك بعضها في بعض، تتخبط، تتصادم. من أين أنت؟ ومن الذي جاء بك إلى هنا؟ هذا ليس زمانك.. ليس زمانك!

شدتها صبيحة من كتفها: هيا فهذه المرأة من الواضح أنها جنت أو تخرف؟

أزاحت يد صبيحة من فوق كتفها بقوة، وسألت العرافة:

- ماذا تقصدين؟

- أقصد ما تفهمينه.

لاحظت صبيحة الخوف والارتباك الذي ظهر على ملامح ضيفتها، فحدثت المرأة بلهجة امرأة حادة:

- احذري يا امرأة، هذه ضيفة الحبر موسى، انظري إلى سوار الموسلين في يديها، إنها في حماه ومعيته.

لم تحاول الغجرية النظر إلى صبيحة، بل ظلت معلقة نظرها بعيون مانوليا

- احذري، عليك أن تحذري.

سألتها بصوت مرتجف:

- من أي شيء؟!

- منهم.

- منهم من؟

لم تجبها.

- من هم! انطقي من تقصدين؟!

أدارت رأسها في الاتجاه الآخر دون أن تجيبها.

- هيا بنا، سوف تبدأ الخطبة.

شدتها صبيحة بقوة من ذراعها، سارت معها تسحبها من يدها كطفل صغير متعلق بلعبة ما ولا يريد تركها.

الزحام كان يشتد كلما اقتربا من الصوان. أطفال صغار يركضون من بينهما، شحّاذون يعلقون طاسات نحاسية فوق صدورهم ويطلبون الصدقة، دراويش أطلقوا ذقونهم، يغمضون أعينهم ويمسكون مسابح طويلة، وهم يغمغمون بالتسابيح. بائعو الشربات والعرقسوس يوزعون مشروباتهم مجانًا. كانت الجلبة كبيرة، والفرحة تغمر الجميع.

على منصة الاحتفال وجدت ابن ميمون يجلس هو وحاخام اليهود بجوار الشيوخ والقضاة والعلماء والحكماء والفلاسفة والفقهاء والذين أخذوا يتكلمون بلا نهاية عن الأحاديث النبوية ومسائل الفقه.

فصاح فيهم السلطان:

- إلى متى ستسيرون على عكاز شخص آخر؟! فالأمور التي تتحدثون عنها، عن أقوال وأفعال النبي نعلمها ونحفظها، كتبها أشخاص من زمن آخر؟ أين أسراركم؟ أين كلماتكم أنتم؟!

ابتسمت وكانت تريد أن تخبره: لا تتعب نفسك، فحتى يومنا هذا هناك جدال ثائر حول تحديث الخطاب الديني.

بعدها تحدث ابن ميمون، بدأ حديثه بتهنئة السلطان وجموع الشعب والعالم الإسلامي كله بالمولد النبوي الشريف، (النبي محمد الذي يعتبر نبراسًا للنور والعلم والمعرفة أضاء العالم واخرجه من الظلام، وأنقذه من الجهل، واليوم يشرفني أن ألقي خطبة بمناسبة هذا اليوم الذي بدل الكثير من حياة الإنسانية...).

لم تصدق أن ما يحدث أمامها حقيقي! هل يجلس رجل دين يهودي وسط جمع من فقهاء ومشايخ المسلمين، ويمدح في سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، وهم ينصتون له بانبهار ويهزون رؤوسهم بالرضا؟!

كثيرًا ما سمعت عن الإخاء والمودة والتعايش ما بين اليهود والمسلمين في مصر سابقًا، ولكن بعد ما فعله الصهاينة كان هذا الأمر صعبًا تصديقه، وكأن ما يقال مجرد أساطير، ولكنه هو حقيقة وواقع يحدث الآن أمام عينيها.

بعد أن انتهى ابن ميمون من خطبته، صفق له الجميع بحرارة، تحدث بعدها عدد من الضيوف، ثم أشار السلطان بيده لبدء الاحتفال، فأطلقت المدافع من أعلى مدينة الفسطاط، طلقاتها التي أخذت تدوي الطلقة بعد الأخرى، ومنذ أن أطلقت ازداد الزحام وبدأت الموسيقا والأناشيد والأغاني.

تساءلت: هل رأى الشاعر صلاح جاهين هذا الحدث عندما كتب كلمات أوبريت (الليلة الكبيرة)؟! لقد وصف فيها كل ما يحدث هنا بدقة متناهية. حقًّا كانت الليلة الكبيرة وكانت الجموع كثيرة كثيرة جدًّا.

مجموعة من الدراويش يقدمون رقصتهم، يدورون ويدورون، هائمين في ملكوت آخر، ثم يفردون أجسادهم أرضًا الواحد بعد الآخر، يلتصقون كأعواد ثقاب، ثم يمر فوقهم رجل يمتطي حصانه، يمر بسرعة وقوة وعنف كأنه في حلبة سباق. وضعت يدها على فمها، وأغمضت عينيها وصاحت:

- كيف يحدث ذلك؟!

ضحكت صبيحة من رد فعلها:

- لا تقلقي، إنها الدوسة، وهو طقس لهؤلاء المتصوفة يقدمونه في مولد النبي احتفاء به. من نجا منهم فقد نجا، ومن مات فقد قدم روحه فداء للحبيب، والناجي يقر دائمًا أنه لم يشعر بشيء، فوقتها كانت روحه تسبح في مكان آخر.

تابعهم جمع غفير من الموجودين بأعين مفنجلة مندهشة وأفواه مفتوحة، بينما هي سحبت صبيحة من يدها:

- هيا بنا.

شعرت صبيحة التي كانت تتابع هذا الطقس بمتعة، ببعض من الضيق، فلم تكن تريد الذهاب، ولكن عندما تذكرت القدور المكتظة بالأرز واللحوم نسيت كل شيء. نسيت المتعة ونسيت الضيق.

- هيا نذهب لنأكل، أنا أتضور جوعًا.

وقفت امرأة جميلة مغرية في إحدى الزوايا، تصبغ حاجبيها بصباغ أزرق، وأبرز الكحل الثقيل جمال عينيها، ودعكت أسنانها بالذهب، فكانت تدوى وتبرق كلما ابتسمت، تضع حجابًا حريريًا، من خلفه تنسدل خصلات من شعرها، تمسك رقًا في يدها تضرب عليه وتغني بصوت دافئ.. شجي، بينما يتمايل جسدها برقة وعذوبة مع وقع الأنغام، وكل حركة كانت تأتي بها تكون مصحوبة برنين أساورها النحاسية.

- يمكنك أنت الذهاب، لا أشعر بالجوع، سأبقى هنا أستمع لهذا الصوت الجميل.

- حسنًا، لا تتحركي؛ لأني لن أعثر عليك إذا اختفيتِ وسط هذا الزحام.

كانت تنصت طربة لصوت المغنية وأنغامها، وفي الوقت الذي طرفت به بجنب عينيها لاحظت شابًا وسيمًا، يتأملها بعيون يملؤها الإعجاب ويبرم طرف شاربه.

خبطت صبيحة كتفها بكتفها:

- إنه معجب بك.

- وكيف عرفت؟

- عندما يبرم الرجل طرف شاربه هكذا، وهو يطيل النظر للمرأة فهذا تعبير عن إعجابه بها.

قالتها، وهي تمد لها طبقًا من الألمنيوم ممتلئًا بالفتة:

- هيا تناولي طعامك، يجب أن نذوق ذبائح المولد، كما أن الفتة شهية جدًّا، إنه أشهر طبق عند المصريين، أرز مسلوق تدفن فيه قطع صغيرة من الخبز، وبعد أن يسقي الكل بمرقة اللحم الدسم يسكب عليه صلصة الثوم المقلي. تركتها تقص عليه طريقة طبخ الفتة، ولم تخبرها أنه ما زال الطعام الذي يقدم في ولائم الأفراح والعزاء حتى اليوم.

- إنه شهي حقًّا، ولكن ما هي علامة المرأة عند الإعجاب؟

- تبتسم، أو تغمز له.

ضحكت مرددة:

- تغمز.

غمزت لها، وهي تقول:

- نعم، بطرف عينيها هكذا، لو كان مقصده شريفًا، فسيصل إلى بيت أهلها ويطلب يدها.

ردت بدهشة:

- هكذا بسهولة.

- وما الغريب في ذلك؟ ألا تجري الأمور هكذا عندكم؟!

- لا، إن الأمور عندنا مختلفة تمامًا.

أجابتها صبيحة بثقة، وقطعة كبيرة من اللحم تملأ فمها:

- نعم.. نعم..، أسمع أن هناك بلادًا لا تبارح فيها المرأة بيتها ولا يراها الرجال أبدًا.

ضحكت، وهي تفكر في رد فعلها لو أخبرتها كيف أن المرأة والرجل زمنها الآن يتعارفان عن طريق تطبيق هاتفي، وربما من خلاله أيضًا يتقدم هذا الشخص لأهلها ويطلب يدها.

كان الشاب ما يزال مسمرًا نظره عليها:

- من الواضح أنه معجب بك كثيرًا. إنه شاب وسيم، ومن علية القوم، ربما هو ابن شهبندر التجار أو ابن شيخ من شيوخها.

- وكيف عرفتِ ذلك أيضًا؟

- انظري إلى أكمام ملابسه فهي طويلة وواسعة، وكلما كانت الأكمام طويلة واسعة، دلت على مركز صاحبها الراقي.

كما أنه يلف رأسه بتخفيفة موشاة بماء الذهب، والقباء الذي يرتديه مبطن بالفرو، وحياصته مرصعة بالجواهر.

- انتظري، أنا لا أفهمك. أي قباء، وأي حياصة؟!

- الأقبية، الأقبية التركية ألا تعرفينها؟!

- أخبرتك أني من مكان بعيد.

- التخفيفة هذه القطعة من القماش التي يلفها على شكل عمامة فوق رأسه، والقباء المعطف الذي يرتديه فوق عباءته، أمّا الحياصة فهي الحزام العريض من الذهب الذي يلفه حول خصره.

ثم وضعت يدها على فمها حتى لا تظهر ضحكتها، فبدت كطفلة صغيرة.

- ولكن من الواضح أنه أغرم بك، فلم يكف عن عقد طرف شاربه.

- دعك منه.

- ولماذا؟ إنه وسيم جدًّا، لو أنه معجب بي أنا، فما كنت تركته.

- إذن تفضلينه، فأنا متنازلة لك عنه.

رمقتها صبيحة بنظرة امتنان.

- وأنت صبيحة ماذا تعملين؟

ردّت باستغراب:

- أعمل.

- أقصد كيف تقضين يومك، حياتك؟!

- لا شيء، في بيتنا عدد لا حصر له من الجوراي، لذلك لا أفعل شيئًا. أذهب للحمام الشعبي وللتسوق أو التريض في حدائق الفسطاطية، ومرات نستقل ذهبية ونأخذ جولة بالنهر، من حين لآخر أُدعى لحفلات خاصة تنظمها جارة أو قريبة، نأكل ونرقص ونستمع للأغاني، هذا طبعًا بخلاف حفلات الحناء والخطوبة والأعراس والطهور التي لا تنتهي.

تنهدت وأضافت:

- هكذا، ما باليد حيلة، أجلس في انتظار ابن الحلال، زوج المستقبل.

فكرت أن الحياة في هذا الزمان بالنسبة للفتيات والنساء هي مأساة بعينها، ليس عليها أن تفعل شيئًا سوى انتظار ابن الحلال.

- هيا بنا صبيحة، أعتقد أن الحبر يقف في انتظارنا.

- وهذا المعجب الولهان. ما مصيره؟!

رمقته بنظرة، فاكتشفت أنه وسيمٌ حقًّا.

- ربما في زمن سابق كان مصيره معي سيكون مختلفًا.

وهي تهم بالذهاب، اقترب رجل يحمل مبخرة في احدي يديه، وبالأخرى يحمل قنينة من ماء الورد، وأخذ يدور حولها بالمبخرة 7 مرات، وهو يتلو آية الكرسي والمعوذتين، بعدها فتح القنينة وأخذ يرشها بماء الورد.

لوحت له بيدها:

- توقف، ما الذي تفعله؟

ابتسمت صبيحة.

- لقد بعثه لتبخيرك، وهو عربون محبة، ورش ماء الورد يفيد بأنه يريد الزواج بك.

كانت مشغولة بتجفيف ملابسها بمنديل، فرمقتها بنظرة غيظ.

- حقًّا، ومن يرد الارتباط بأحد، يغرقه بالماء!

- إنه ماء معطر بالزهر، ربما أغدق على الرجل بالدنانير، لذلك تفانى في رش الماء عليك.

قالتها، وهي تضحك؛ ما جعلها وهي في فورة غيظها تشاركها الضحك.

وجدتا ابن ميمون ينتظرهما في نفس المكان، ابتسم عندما قابلهما، وشكر صبيحة على اهتمامها بضيفته، ثم ودع بعضهم بعضا وذهب كل منهم في طريقه.

راقبتها، وهي تسير أمامهما متجهة إلى مصيرها الذي يفصلها عنها بقرون وقرون، بخطوة رشيقة واسعة، يتطاير حجابها خلفها، فتتساءل كيف جمع بينهما الزمن؟! وأية معجزة تلك التي دبرت لهما هذا الموعد؟!

يركض الجواد سريعًا بالعربة، وتركض بها زوبعة من أفكارها، بعد أن غادرتها الدهشة وبقيت وجهًا لوجه أمام الحقيقة التي يصعب تصديقها، فماذا لو ظلت عالقة هنا في هذا الزمن البعيد؟! ماذا لو لم تعد مرة أخرى؟ شعرت بأنقباض في الصدر عندما تذكرت ابنتها، ودوي بداخلها صدى صوت الغجرية الأجش، وهي تقول لها (احذري).

في الكثير من الأحيان نتمنى أن يرجع بنا الزمن للوراء، ونحيا هناك بعيدًا عن تكنولوجيا هذا الزمن وحداثته ورفاهيته، لكن عندما نجد أنفسنا وجهًا لوجه أمام الحقيقة سنفضل العودة إلى زماننا حيث كل شيء مبسط، مرفه ومتاح.

لاحظ ابن ميمون شرودها، فسألها:

هل هناك شيء؟

- أخشى ألّا أستطيع العودة إلى زماني.

57

قالت السيدة دالاواي: إنها ستشتري الزهور بنفسها

لقاء بعد آخر توطدت علاقتنا. لن أنكر أنني تعلقت بها، ولم تعد بالنسبة إليّ مجرد هدف، كانت مبعث راحة كبيرة، وكنت بالنسبة إليها لمسة ود تجعلها ثابتة وسط مصائب الحياة.

أصبحنا نلتقي تقريبًا يوميًّا بعد انتهاء عملها، نتريض في الطرقات دون هدف معين، كنا معًا وكان هذا يكفينا. نجد متنزّهًا عامًّا، فندخل لنجلس فيه بعض الوقت. وإذا شعرنا بالجوع، ندخل أول مطعم في طريقنا. أيام عطلتها كنا نلتقي في جروبي، نطلب الكاستا وبعدها نشرب الشاي ونأكل الجاتوه. لم يعد يشغلني شيء، سوى وجودنا معًا.

مؤكد ستستغربون كيف لإنسان بلا قلب مثلي فجأة أن يخفق قلبه بالحب؟! من حقكم أن تستغربوا، فأنا نفسي أستغرب ذلك. حبها طغى على كل شيء وكأني كنت أدخره لها وحدها، وأصبحت معها أتخلى عن كل شيء، وأنسى كل شيء، فقط أكون حرًا طليقًا.

بعد أن مرّت لهفة اللقاءات الأولى، وتعمّقت علاقتنا وأصبحت أكثر ثباتًا، لم نعد نركض في الطرقات دون هدف، اتفقنا أن نلتقي في حديقة الأزبكية بعد أن تنتهي من عملها.

كانت ترفض دعوتي لها على الغداء، يصيبها القرف من أكل المطاعم، في رأيها إنهم لا يقومون بغسل الخضروات والدجاج بشكل جيد.

كانت تحضر معها غداء من القصر، الفائض من الموائد العامرة، وعندما أخبرتها أني لا آكل فائضًا من أحد، أصبحت تأتي بطعام طازج، فعلاقتها القوية بالطهاة جعلتهم يعطونها بسخاء.

عادة كنت أسبقها إلى هناك، أراقبها، وهي قادمة بقوامها الفارع، المسطح، ضامة شعرها للخلف على شكل ذيل حصان أو كعكة ممسوكة بدبوس، كانت ترتدي دائمًا تنانير واسعة من البلاسيه، وقمصانًا من الكاروهات، فوقها بلوفرات تريكو في الغالب ألوانها كحلية، وتزينها نقوش لطيور صفراء أو زهور حمراء بارزة.

في يدها عمود نحاسي، وفي اليد الأخرى حقيبة بلاستيك تضع فيها الصحون، ومفرش من مربعات الأحمر والأبيض، وبعد أن تصافحني تفرد المفرش على العشب، ترص الأطباق، وتضع الشوك والملاعق، وتحرص على وضع زهرة في مزهرية صغيرة. تفعل ذلك بشغف واهتمام كمن ينظم طاولة بيته بأناقة فائقة لاستقبال ضيوف مهمّين. ونحن نأكل تقص عليّ أخبار القصر، من جاء ومن ذهب ومن ضيوف حفل الليلة، وتختم كلامها دائمًا بزفرة حسرة، وهي تقول:

- إنهم يعيشون في معزل عن العالم. عندما ألج إلى داخل القصر أشعر أني انفصلت عن الحياة، وأني في دنيا أخرى، وكل ما يحدث في الخارج لا علاقة له بما يحدث هنا. الفقر، المرض، الحوادث، الحروب، كل ذلك يحدث في عالم آخر بعيد كل البعد عن القصر، حيث كل شيء رائق وهادئ وجميل.

وهي مسمرة نظرها تجاه اللامدى، قالت بنبرة يشوبها البؤس:

- أدخل من باب مكتوب عليه (للخدم فقط). نعم، هذه الكلمة التي يصطدم بها نظري عند دخولي كل صباح؛ لتنبهني أنني مجرد خادمة، وعليّ ألّا أعيش أوهامًا كبيرة داخل هذا المكان.

ثم نظرت فجأة، وكأنها تذكرت وجودي:

- ولكن ألا تجد أن تجفيف كؤوس الشمبانيا هي مهنة فريدة ومميزة، يجب أن يخصصوا لها بابًا منفردًا، تعلق عليه يافطة (لمجففة كؤوس الشمبانيا).

خلعت قفازها الذي لم تكن تخلعه أبدًا شتاءً أو صيفًا، وباعدت بين أصابعها، وحرّكتها وكأنها تقدم عرضًا.

- كم مخلوقًا في هذا العالم يملك أصابع مثل هذه؟!

اقتربت منها، ضممت أناملها بين يدي، أخذت أفرق بينها، كمن يفرق بين بتلات زهرة وأداعبها. مالت برأسها فوق كتفي، ثم غمست وجهها في عنقي.

تمتمت قائلة:

- حتى أصل إليك، يا له من طريق طويل كان عليّ أن أسلكه!

أجبتها بلهفة:

- حقًّا.

ابتسمت:

- إنها جملة قرأتها في رواية قديمة.

كانت مثقفة تهوى قراءة الروايات الفرنسية والإنجليزية. تخرجت من مدرسة راهبات الراعي الصالح، وكانت هناك تدرس بجانب الفرنسية عدة لغات أخرى، وهذا هو ما الذي منحها الفرصة لتعمل كلفة في القصر الملكي. دائمًا هناك رواية بحقيبتها، بعد أن ننتهي من تناول الغداء تصب لنا كوبين من الشاي، وتقرأ بصوت عالٍ، متقمصة أدوار الأبطال، وتنغّم نبرة صوتها في الحوارات المشتركة بينهم.

ذات مرة كانت تقرأ رواية (السيدة دالاواي) من تأليف المؤلفة الإنجليزية (فرجينيا وولف)، أحبتها وتعاطفت مع قصة حياتها، أخبرتني أنها بكت عندما علمت خبر وفاتها منتحرة بعد أن أثقلها المرض النفسي، فأثقلت جيوب معطفها بالحجارة ورمت نفسها في النهر.

أستمع إليها مأخوذًا بتفاصيل انغماس روحها في قراءة النص؛ يدها على الورقة، أنفاسها، ارتعاشها الدائم، دهشة العينين، أشياؤها المبعثرة على الأرض كأحلامها.

اقترب منها، لربما قليلٌ من الحنو أو قبلة مسروقة يمنحانها شيئًا من التوازن إلا أنها كانت تبتعد وتبدو أكثر اضطرابًا. أبدًا لم تكن تحتاج لي، كان يكفي أن تقرأ الروايات، ليس هناك ما يهون

عليها ما هي فيه إلا القراءة والتماهي مع عوالم أخرى، ذلك فقط هو الربيع الذي يزهر في حياتها القاسية.

أتذكر جيدًا نبرة صوتها يومها، وهي تقول العبارة التي افتتحت بها الرواية (قالت السيدة دالاواي: إنها ستشتري الزهور بنفسها)، بعد كل نص تلقيه عليّ، كانت تشرد وتهيم في عالم آخر، عالم الرواية وحيوات أبطالها.

وبينما كانت هي أسيرة لعوالمها الخيالية، كنت أنا أسيرًا لها. إحساسي بها شعور بهبوط منحدر على متن عجلة دون كوابح، ينتابنا شعور بنشوة وسعادة دون التفكير أننا نتدحرج بقوة، باتجاه الهاوية، وسوف نصطدم في النهاية بشيء عنيف وقاسٍ، وبالرغم من ذلك نستمر في التدحرج.

نسيت أني أستخدمها، نسيت غايتي منها، نسيت أنها مسلمة وأنا يهودي، ولكني لم أنسَ أن زوجها قُتل، وهو يحارب ضد قيام الدولة الإسرائيلية، ضد قيام الدولة التي ظللت أحلم بقيامها، وعملت منذ أعوام طويلة مضت على إنشائها، ومن الذي قتله؟ الصهاينة الذين تتلمذوا الحقد والكراهية على يدي، وكان هذا الأمر يقض مضجعي.

في عصر يوم شتوي مشمس ونحن نتناول الغداء، كان بعض العمال يضعون ملصقًا على أعمدة الإنارة لحفل لأم كلثوم، كانت ستقدمه على مسرح الحديقة في الساعة التاسعة من يوم السبت. نظر كل منا للآخر، وبإيماءة من رأسينا اتفقنا على حضوره.

58
ضلالة الحائرين

عندما عادا مرة أخرى إلى البيت كان البرد قد اشتدّ وكانت ترتجف، كان في طريقه إلى غرفة المكتب:

- أراك ترتجفين، تعالي لنجلس هنا حول الكرسي.

ضحكت.

- لماذا تضحكين؟

- لأنه في زماني كنا نجلس على الكرسي، وليس حوله.

أخذها إلى غرفة واسعة، تتوسطها طاولة طويلة وواطئة عريضة مكسوة بالبسط، وطلب منها أن تمد قدميها تحتها، وتقربها من الموقد لتستمد منه الدفء.

- هذا ما نطلق عليه الكرسي.

- للأسف، فهذا الاختراع الجميل لا يوجد في زماننا.

راحت السماء تمطر، ومن أعماق الرواق تناهى إلى المسامع صوت حفيف ورقة وهي تقلب. شعور سعيد بالراحة، وهي تجلس بصحبة هذا الرجل محاطة برائحة الحبر والورق والخبز الطازج.

شعرت تجاهه بإحساس مختلف. لم يصف حقيقته أي من الذين كتبوا عنه. كان طيب الروح، عزيز النفس، سمح التقاسيم، وهذه الروح التي تمتع بها جعلت له جمهورًا كبيرًا ليس من اليهود فقط، ولكن من اليهود والنصارى والمسلمين، رأت ذلك بعينيها، لو أنّ أحدًا ممن عاصروه وصف ما رأته اليوم، فلن تصدق، كما أنه يبدو وسيمًا في التقاء حاجبيه كسهمين أسودين، وعينين مغمضتين نصف إغماضة، وفم دقيق يعلوه شارب ثقيل.

- في الواقع المكانة التي رأيتك عليها اليوم، وحفاوة الناس بك، تتنافى تمامًا مع الظلم والافتراءات التي لحقت بك، ليت هؤلاء كانوا معنا هنا ليروا بأعينهم.

حدثها بثقة:

- دعك منهم، لقد علمتني الحياة ألّا أصغي إلا لعقلي فقط.

- ولكنك لم تخبرني منذ متى بدأت التدوين؟

- بدأته في ألمرية بالأندلس، وذلك قبل بلوغي العام الثالث والعشرين من عمري، كانت أول رسالة لي (في حساب الميقات للأعياد اليهودية)، وضعتها بطريقة سهلة وجذابة عن كيفية معرفة الأشهر العبرية القمرية من السنة الشمسية لتعيين الأعياد اليهودية. وثاني رسالة لي وكان لها بليغ الأثر، وضعتها لعلماء اليهود ذوي الإلمام بالأدب العربي الذين يحتاجون لمعرفة علم الفلسفة والمنطق الإسلامي، كتبتها باللغة العربية ووضعت فيها ما يقرب من خمسة وسبعين ومائة مصطلحًا.

- نعم، وثم نقلها إلى العبرية (شموئيل بن طمبون) وهو واحد من علماء جنوب فرنسا، وذلك بعد وفاتك بفترة طويلة، ولها ترجمة أخرى وضعها العالم يوسف لوركي وذلك عام 1370.

- وفي تلك الأثناء وقبل سفري إلى المغرب، بدأت في تدوين شرح لبعض أسفار التلمود البابلي، وللأسف ذهبت أغلب صفحاته أدراج الرياح نظرا لتنقلاتي الكثيرة قبل استقراري في مصر، كما وضعت تفسيرًا مفصلًا لكتاب (المشنا)، بدأته في وقت مبكر؛ ولكن نظرًا لما حل بي من متاعب أكملت تفسيره في وقت متأخر كان ذلك عام 1168، وكنت أتممت عامي الثالث والثلاثين، وأسميته كتاب (السراج)؛ لأنه كان بمثابة نبراس نور لتعاليم التوراة المعتمة. فالمشنا تشتمل على قوانين

وشرائع مدونة بأسلوب موجز دقيق لا يؤدي للغموض والإبهام. اعتقدت أن هذا الكتاب سيلقى رواجًا كبيرًا بين يهود الشرق، ولكن ما حدث هو العكس، أقبلوا عليه إقبالًا عظيمًا في بلاد الأندلس والمغرب الأقصى وجنوب فرنسا، وبدأ شمويل بن تبون، ويهودا حريزي يترجمان بعضًا من أجزائه.

كان هذا الكتاب وحده يكفي لتخليد اسمك في تاريخ اليهود، ولكنك واصلت التدوين.

- بحر العلم أغراني للإبحار فيه أكثر وأكثر. كان دائمًا يمنحني متعة لا أستطيع الفكاك منها، اعتقدت دائما أن عليّ قول شيء وإيضاح وتفسير أشياء ذات قيمة وأهمية؛ لذلك جاء كتابي (تثنية التوراة)، الكتاب الذي أحدث ثورة اجتماعية في حياة اليهود الدينية.

اليهود كانوا يدرسون التلمود دراسة علمية كالمناهج الدراسية والمعادلات الرياضية؛ لذلك رسخت في عقولهم تعاليمه، وظهر تأثيرها في جميع نواحي حياتهم الدنيوية والدينية دون تفكير أو إيعاز للمنطق وللزمن وللحياة والكون من حولنا.

عشر سنوات وأنا أبحث وأفحص وأفسر وأشرح حتى أكملت في النهاية هذا المجلد، وقدمت لليهود ديانتهم مبسطة وميسرة ومسايرة للعقل الحديث والمسار الزمني والكوني؛ لذلك وضعت هذا الكتاب دون إشارة لمصادر أو مذاهب أو أسانيد، لأن ليس ذلك جوهر ما كنت أبحث عنه، جوهر ما كنت أبحث عنه هو الكون الشاسع من حولي.

- ولاموك في ذلك، يقولون إنك في هذا العمل تستند إلى نفسك.

- ما جاء في تثنية التوراة كان من التلمود البابلي والتلمود الأورشليمي ومخطوطات أخرى من الآداب اليهودية، وجدت في المعابد اليهودية القديمة بالفسطاط، كل قضية ناقشتها فيه، كل تعليم وكل نهج هو نتيجة أبحاث منطقية مجردة من الشعور والميول الوجدانية.

- وغاظهم أكثر منك أنك استخدمت الأساليب النثرية العربية المألوفة عند علماء المسلمين، وانتهجت أفكارهم. وقد انتقد (إبراهيم بن داود) هذا الأسلوب، ويرى أنك شوهت اللغة العبرية، وحرّفت أساليب الأحبار، وأن عملك يشتمل على الاستعارات والمجازات في غير مواضعها المألوفة.

قهقه بسخرية:

- بالنسبة إليهم كيف يكون كتاب عن التوراة، وأستخدم فيه نهج علماء الإسلام؟! هؤلاء ظلوا يرددون أفكارهم العقيمة على عقول اليهود على مر الزمن بأنهم شعب الله المختار، وخدعة أرض الميعاد، و.. و.. إلى آخر ما لا نهاية له من هذه الشعارات. هذه الأفكار كانت سببًا في ارتفاع الأنا العليا عند الشخصية اليهودية، ومؤكد أن هذا الإحساس بالتفرد والاصطفاء سيؤدي حتما في النهاية إلى عواقب وخيمة.

- بالفعل لقد أدى.

- حقًّا، ما الذي حدث؟

ظهرت على ملامحه مشاعر الاهتمام والترقب، تراجعت عن إخباره، ماذا عليها أن تقول له؟ إن اليهود أُبيدوا في الهولوكست، أم تخبره عن التجني والقسوة والظلم واغتصاب الأرض الذي فعلوه في فلسطين؟! وهل يمكن لعقله أن يستوعب ذلك الحديث؟! معرفته لن تغير أو تفيد في شيء، فلن تخبره، ولتجعله سعيدًا في زمانه الوردي.

- من الأفضل ألّا تعرف، معرفتك لن تبدل من شيء، هذا حدث بعد موتك بقرون طويلة.

- على أي حال انتشر هذا الكتاب انتشارًا كبيرًا، وجاء النساخون إلى الفسطاط من أنحاء العالم كافّة لنسخه، وكانوا بعد نسخهم للمخطوط يعرضونه عليّ، لأقوم بالتوقيع بعد أن أقر بصحة النسخ وذلك لتعتمده الطوائف اليهودية.

- أعتذر لو أحبطتك وأخبرتك أن هذا الكتاب الذي تفخر به كان بداية لفتنة انقلبت على مر الزمن إلى عاصفة شديدة، قسمت اليهود إلى فئتين؛ واحدة تناصرك، والأخرى تنتقدك، والفئة التي كانت ضدك انضم لها نخبة من علماء اليهود بزعامة العالم إبراهيم بن داود الذي ألف كتابًا لنقدك، وانهال عليك بالتهم، ونعتك بنعوت قاسية؛ لحذفك أسانيد الرواية التلمودية، ويرى أن ذلك النقص هو تجاهل لأسماء عظماء دونوا التاريخ اليهودي.

بنبرة عصبية:

- وما الذي نعتني به؟

قرأت من الجهاز:

- مثلًا (هذا تهويش وتخليط - ليس له في الحق نصيب - خلط في النظريات - كلام صبياني كتبه ناشئ قليل المعرفة - ليس هذا من أساليب الحكماء بل من أساليب ذوي الحسد الطائش).

قهقه فاهتز جسده:

- كلام صبياني...! في هذا العمل أنجزت فأوجزت، واختصرت وأفدت. لا أعلم حقيقة ما حدث بعد وفاتي، ولكن أثناء حياتي أقبل الناس على هذا الكتاب إقبالًا ليس له نظير في تاريخ الأدب الإسرائيلي، وأصبح قضاة مصر والشام والعراق يفصلون في القضايا وفق ما جاء فيه. هل هناك أكثر من ذلك؟!

- حسنًا، دعنا من تثنية التوراة بالنسبة لكتاب (إجابات موسى بن ميمون)، هذا العمل ظهر منه عدة طبعات كان أولها بعد اختراع المطبعة مباشرة، نُشر دون تحديد مكان طبع أو تاريخ. والطبعة الثانية منه نشرت في قسطنطينة وذلك عام 1520، ثم طُبع في أمستردام تحت عنوان (زينة العصر) عام 1765، ونُشر في ألمانيا عام 1859 باسم مجموعة من مراسلات موسى بن ميمون وإجاباته.

هزّ رأسه بثقة:

- شيء عظيم!

- بالنسبة لعلمك الأهم (دلالة الحائرين) الذي يعتبر ذروة التفكير اليهودي الفلسفي في القرون الوسطي، هل تخبرني عنه؟

- فكرة الكتاب في البداية كانت إلحاحًا من تلميذي (يوسف بن عقنين)، لقد طلب مني أن أكتب شيئًا مختلفًا، أصب فيه حصيلة علمي التي اكتسبتها على مدار العمر. كتبته له بعد أن سافر إلى العراق والشام من 1186 إلى 1190، وأخذت في إرسال أبواب وأسفار منه.

كتبته باللغة العربية بالحروف العبرية كعادة هذا الزمان، وسردت آراء (ابن عزرا - سعديا الفيومي - ابن فقودا - سليمان بن يحيى - يهودا اللاوي شاعر اليهود الأكبر بالأندلس -

إبراهيم بن حيا)، ودونت أيضًا آراء أرسطو - أرسطاطاليس التي شرحتها بوساطة المصنفات العربية الإسلامية مثل: كتب الغزالي - وأبو بكر الصائغ - وابن طفيل - وثابت بن قره - والقبيصي - وابن أفلج الإشبيلي - ومحمد بن زكريا - وأبو بكر الرازي والفرغاني والحراني والفارابي والمتكلمين.

- جاء في مقدمة كتابك إلى تلميذك يوسف (أيها التلميذ العزيز لما مثلت بين يدي وقصدت إليّ من أقاصي البلاد للقراءة عليّ، عظم شأنك عندي لشدة حرصك على الطلب، ولما رأيت في أشعارك ومقاماتك التي وصلتني، وأنت مقيم في الإسكندرية، وقبل أن أمتحن تصورك قلت: لعل شوقه أقوى من إدراكه، فلما قرأت عليّ من علم الهيئة وما تقدم لك مما لا بد منه، زدت بك غبطة لجودة ذهنك وسرعة تصورك، ورأيت شوقك للتعليم عظيما، فتركتك للارتياض فيه؛ لعلمي بمأملك، فلما قرأت عليّ ما قد قرأته من صناعة المنطق تعلقت آمالي بك، ورأيتك أهلًا لأن تكشف لك أسرار الكتب النبوية حتى تطلع منها على ما ينبغي أن يطلع عليه الكاملون، فلما قدر الله الافتراق وتوجهت إلى حيث توجهت، أثارت فيّ تلك الاجتماعات عزيمة كانت قد فترت، وحركتني غيبتك لوضع هذه المقالة لك ولأمثالك، وجعلتها فصولًا منثورة، وكل ما يكتب فيها يصلك أولًا فأول وأنت سالم).

- كان الغرض من هذا الكتاب النقل عن الفلاسفة، لم أكن أريد أن أؤلف شيئًا في الطبيعة، أو ألخص معاني العالم الإلهي، وما كان قصدي أن أقتضب هيئة الأفلاك، كان همي أن ألقي بضوء من أنوار الفلسفة والمنطق والعلم على الإيمان والشعور بالصلات الخفية بيننا وبين الله. لطالما كان منهجي هو التوفيق بين العقل والدين، إضفاء الصبغة التوحيدية المتجاوزة، أي التي ترى أن الله واحد متجاوز للطبيعة، والتاريخ، والإنسان، وهذا ضد النسق الفكري اليهودي المتجمد.

انهالت الطلبات من الشرق والغرب تطلب نسخًا معتمدة من الكتاب، وأرسل إليّ من فرنسا تاج العلماء (شموئيل بن يهودا التبوني) يطلب ترجمة كتابي، فأذنت له، فقام بهذا العبء الثقيل بمقدرة فائقة وهبها الله له. كان يرسل لي كل ما يقوم بترجمته لمراجعته، وبعد ذلك أوقع على صحة ما ورد فيه.

- ترجمها أيضًا للعبرية شخص يدعى يحيى بن سليمان بن شاؤل أبو زكريا الحريزي من مدينة طليطة الإسبانية.

- نعم، وهو الذي ترجم لي كتاب السراج.

- وترجم مقامات الحريري للعبرية، ولكن بعد موتك اتهمه ابنك بأنه شوّه عملك، وأصدر منشورًا يبين فيه أن ترجمة الحريزي فاسدة، وتخالف ما جاء في كتابك، فبرأ نفسه بتقديم شهادة أفادت أن يهود روما اجتمعوا وألحوا على العلامة اليهودي (سليمان أدرث) بالأندلس بتكوين لجنة لتقوم بترجمة جميع أجزاء دلالة الحائرين للعبرية، وعهد بدوره للجنة مكونة من أحبار من رجال العلم بذلك، وترجم الكتاب للغة العبرية الإسبانية، ونقل الحريري هذه الترجمة إلى العبرية. أما عن أصل الكتاب الذي قاموا بالترجمة منه، فقد اختفى تمامًا واختفت بعده الترجمات الأولى للعمل، وأصبحت هذه الترجمة هي الوحيدة الموجودة، وهي النسخة التي ترجم عنها الكتاب للكثير من اللغات، وأعيدت طباعتها آلاف المرات.

- هل تقصدين أن دلالة الحائرين الذي يتداوله الناس الآن هو نسخة مزورة؟ وأين اختفت النسخة الأصلية؟ وماذا عن الترجمة التي قام بها شموئيل التبوني؟ وكيف صمت إبراهيم على مهزلة كتلك؟!

تبدل صوته لنبرة مختلفة هذه المرة، نبرة تحمل شيئًا من المرارة:

- في الواقع ليس هناك الكثير من المعلومات عن هذا الموضوع، لكن أثناء بحثي علمت أن ابنك اتهم الحريزي بأن ترجمته كاذبة، ودافع الحريزي عن نفسه بهذا الرد، وأضاف أنه سبق وترجم لك كتاب السراج، ويعلم تمامًا أفكارك؛ ولذلك وهو يترجم الكتاب شك في بعض ما جاء فيه، فحاول أن يتوصل للنسخة الأصلية أو الترجمات الأولى ولكن لم يعثر على أي منها.

مؤكد أن هذه اللجنة من الأحبار لم ترضَ عن أفكارك، فحاولوا أن يبدلوا منها لتتوافق مع أفكارهم، وخاصة بعد النجاح والشهرة اللذين حققهما كتابك خشية من تأثير ذلك على المجتمع اليهودي، لذلك اختفت النسخة الأصلية والنسخة المترجمة عنها للتبوني تمامًا.

أصبحت ملامح وجهه كمن وقعت عليه صاعقة، شعرت بالندم لأنها أخبرته بذلك، فحاولت أن تهوّن عليه الأمر.

- على أي حال لقد قرأ الكتاب عدد كبير أيضًا من المسلمين والنصارى، ووضع الإمام التبريزي وهو عالم إسلامي كبير شرحًا مطولًا لبعض فصول الكتاب، وكتب المؤرخ المقريزي عنه (لما نبغ فيهم موسى بن ميمون القرطبي، عوّلوا على رأيه وعملوا بما في كتاب الدليل وغيره من كتبه، وهم على رأيه إلى زماننا).

ولم يتوقف الأمر على ذلك، فالعالم اليهودي يعقوب الأنطولي، والفيلسوف المسيحي ميخائيل سقوطي قاما بترجمة الكتاب للإمبراطور الألماني فريدريك الثاني، واستخدم عضو من أقطاب جماعة الفرنسيسكان عام 1245 اسمك في الكثير من مؤلفاته الهامة، وكان يطلق عليك الحبر المصري، وذكرك وينسنس دي بوفيه 1264 رئيس حركة الدومينيقيين في أحد مؤلفاته واستشهد بما كتبت. كذلك اقتبس زعيم فلاسفة القرن الثالث عشر ألبرت الأكبر 1280 من أفكارك في مدوناته، ولم يقل هذا التأثير على علماء القرون الأخيرة مثل الفيلسوفين (جوتفريد ليبنتس، وهيجل)، وقال العالم فرنتس دليتش إن ما جاء من مبادئ الأشعرية والمعتزلة في كتاب دلالة الحائرين يوضح لنا مذاهب المدارس الفلسفية الإسلامية، ويعطي لنا تفاصيل أكثر مما وردت في أمهات المصنفات العربية.

- كل ذلك جيد، ولكن أن تزوَّرأفكارك لماذا؟ ولمصلحة من؟ لم أفكر في ذلك أبدًا، كان كل ما يقلقني أن يثير هذا الكتاب فتنة بين الجماعات الإسلامية.

- هو لم يثر فتنة بين الجماعات الإسلامية، ولكنه تسبب في ثورة عنيفة بين اليهود أنفسهم.

ضيق من حدقتيه:

- ثورة عنيفة؟!

- أعداؤك يرون أنك وضعت أرسطو في مرتبة عليا في كثير من الأمور، وهذا بالطبع في نظر رجال الدين غير مقبول؛ لأنه يشكك في الكثير من النظريات الدينية عامة، كذلك التحليلات المنطقية التي شرحت بها وجود الله، وتفسير أغلب القضايا الدينية بنهج الفلسفة الإغريقية، واستشهادك في الكثير من الكتاب بالفلسفة الإسلامية، كل ذلك أثار امتعاضًا لدى رجال الدين اليهودي، بالإضافة إلى أن أنصارك بدؤوا في تأويل الكثير من نصوص التوراة على الطريقة الفلسفية، وأظهروا بعض الأمور الدينية بمظهر السخرية فانتشرت الفتنة.

- ولكنك تقولين إن أحبار روما قاموا بتحريف أفكاري وفقًا لمبادئهم اليهودية العقيمة، فكيف لاقى الكتاب كل هذا العنف؟!

- ربما لم يغيروا الكثير من الأشياء، وحاولوا فقط التغيير في حدود المعقول. لقد اتصل زعيم المتمردين على دلالة الحائرين بـ..

قاطعها:

- انتظري، هل تقولين زعيم المتمردين؟!

- نعم، أثار الكتاب انقسامًا كبيرًا بين اليهود، وكل فئة كان لها زعيم. الحبر (سليمان بن إبراهيم) من مدينة مونبليه كان زعيم المتمردين، قام بالاتصال برؤساء الدين في شمال فرنسا، وطلب منهم إعلان لعنة الحرمان على كل من يدرس هذا الكتاب أو يقرؤه أو يتداوله.

سألها بدهشة:

- حقيقي لا أصدق، هل وصل الأمر للعنة الحرمان؟!

- ولكن ما هي لعنة الحرمان؟

أجاب بأسى:

- إنه نوع صعب وقاسٍ من العقاب، يحرم الشخص من الصلاة والذهاب للمعابد، ولا يتصل بالناس، وإذا مات يُدفن في مكان خاص.

- من ناحية أخرى أخذ عالم يهودي يُدعى (داود قمحي) يطوف في أمصار فرنسا والأندلس لنشر الدعوة للكتاب، ووقعت بسبب ذلك مخاصمة بينه وبين ألد أعدائك (يوسف الفخار) الطبيب الطليطلي. الصراع بين الطرفين كاد أن ينتهي؛ لولا حدوث ما لم يكن في الحسبان.

أثار حديثها دهشته وسخطه في آن، فكان ينصت إليها في منتهى الاهتمام.

- اتصل عدد من المعادين لك بالدومينيقيين، وحرضوهم على مصادرة جميع أعمالك لاحتوائها على أفكار ضد المسيحية. وقتها كان الدومينيقيون واضعين يدهم على زمام الحكم في فرنسا،

وكان لهم كلمة عليا ومخافة ومهابة كبيرتان، فأمروا بجمع مؤلفاتك جميعها، وأحرقوها في مدينتي مونبيليه وباريس وسط جمع غفير من الناس.

ضرب المكتب بقوة بقبضة يده:

- هل أنت متأكدة مما تقولين؟ ما أدراني أن هذه الأخبار صادقة؟ أيعقل أن أصدق هذه القطعة من الحديد؟

هذا تاريخ مسجل ومؤرخ في الكتب، الجهاز ليس له علاقة به، فليس هو من دونه.

- لا أصدق أن مؤلفاتي التي أفنيت عمري في تدوينها تُحرق. وما يستفزني أكثر أنها خالية من كل هذه الافتراءات.

- احتج على حرق كتبك طوائف من يهود المغرب، والأندلس، وفرنسا، وأرسلوا خطابات تدل على سخطهم لهذه الفعلة الشنعاء، والغريب أن الذين أمروا بإحراق الكتب أردوا أن يعتذروا ويظهروا استياءهم وتراجعهم عما فعلوا، فأمروا بالقبض على زعماء المعارضة، وقطعوا ألسنتهم.

- حرق وقطع ألسنة لمَ كل هذا؟ ومن أجل ماذا؟ كتاب!

- على أي حال حرق كتابك كان سببًا في انتشاره بصورة أكبر في جميع أنحاء العالم، وخاصة بعدما قام ابنك بنشر رسالة بعنوان (الكفاح في سبيل الله) ذكر فيها أسباب تأليفك لدلالة الحائرين، وذكر أسباب محاربة الرجعيين للفلسفة، ورد على التهم التي وجهها أعداؤك، وختم هذه الرسالة قائلًا: (إن كان بإمكانهم حرق الكتب، فليس بإمكانهم حرق النور، وتعاليمك قبس من نور؛ لذلك لم تتمكن النار من إطفائه بل زادت في إضاءته).

عند سماعه هذه الكلمات بسط ملامحه، وأنفتح ثغره عن ابتسامة رضا.

- انتشر الكتاب وانتشر الكثير من الكتب تشرحه وتفسره، (يوسف كسفي الأندلسي) هو واحد من أشد أنصارك، بعد قرنين من الزمان من موتك جاء مصر لزيارة معبدك، ووضع شرحين للكتاب عرف الأول باسم (الأساطين الفضية)، والثاني باسم (المسابك الفضية) وهناك غيره الكثير.

- في الواقع لا أستطيع أن أعرف هل عليّ أن أسعد أم أحزن؟!

- دعك من هذا كله، وانتبه لما سوف أقوله، حدث شيء عظيم للكتاب في أواخر القرن التاسع عشر عندما تمت ترجمته للغة العربية على يد العالم (سليمان مونك)، بحث مونك عن النسخة الأصلية الموجودة في المكتبات الأوروبية، ووجد أن فيها أجزاء كثيرة ناقصة، فرجع للنسخ الأخرى المترجمة، وجد أن فيها أفكارًا تخالف آراءك، والكثير من التحريف والتغيير، فبدأ في البحث والدراسة والتدقيق، وقرأ ترجمات الكتاب بلغات كثيرة؛ وذلك لمقاربة النسخة الأصلية، وأدّى ذلك لأن يفقد جزءًا من بصره قبل أن يطبع الجزء الثالث من الكتاب، ولكن ذلك لم يجعله يتوقف، بل أصر على إكماله، وتم نشره عام 1866، وبعدها مباشرة فقد بصره تمامًا وتوفي على الفور.

كان على وجهه تعبير غريب، امتنان، اعتزاز، فخر، ثقة، أو ربما كل ذلك معًا.

- غالبًا هذا كل شيء عن دلالة الحائرين.

قالتها، وهي تنظر في جهازها، ثم رفعت يدها تعتذر:

- عذرًا، هناك نقد هام له من العالم عبد اللطيف البغدادي الذي وصل إلى مصر سنة 1191، يقول ما نصه: (كان قصدي في مصر ثلاث أنفس: ياسين السمياني، والرئيس موسى بن ميمون اليهودي، وأبو القاسم الشارعي، وكلهم جاؤوني... وجاءني موسى، فوجدته فاضلًا في الغاية، قد غلبت عليه الرياسة، وخدمة أرباب الدنيا...، وعمل كتابًا لليهود سماه كتاب الدلالة، ولعن من يكتبه بغير القلم العبراني، وقفت عليه فوجدته كتاب سوء، يفصل أصول الشرائع والعقائد بما يظن أنه يصلحها).

ظهرت على ملامحه الدهشة:

- هل ما تقولينه صحيح؟! هل دون عبد اللطيف البغدادي ذلك الكلام؟!

- نعم، هذا ما جاء في كتاب له بعنوان (عبد اللطيف البغدادي في مصر)، وقد طبع بمطبعة المجلة الجديدة بالقاهرة.

تبدلت ملامح الدهشة على وجهه إلى حزن عميق:

- هل هناك شيءٌ؟

أجاب، وهو يعبث بذقنه الطويلة:

- كنا أصدقاء أو هكذا حسبت، وقد كان حكمه قاسيًّا، لم تغلب عليّ الرياسة يومًا، لقد تفانيت في خدمة وعلاج جميع طبقات الشعب، لم أفرق بين غني وفقير، مسلم أو قبطي أو يهودي، شحاذ أو صاحب صيت.

- يؤسفني أن أخبرك أن له نقدًا لاذعًا آخر لك: (عمل كتابًا في الطب، جمعه من ستة عشر كتابًا لجالينوس، ومن خمسة كتب أخرى، وأراد ألّا يغير حرفًا إلا أن يكون واو العطف أو فاء الفصل، وإنما ينقل فصولًا يختارها).

- كيف لي أن أزيد أو أنقص على تجارب جالينوس؟! كما أني انتقيت منها ما يفيد أهل الطب ونقلتها إليهم.

- ليس هو فقط من انتقد هذا الكتاب، ففي كتابه المختصر يقول القفطي: (وصف موسى مختصرًا لواحد وعشرين كتابًا من كتب جالينوس، فجاء في غاية الاختصار ولم يحمل أية فائدة).

- أتعلمين كم عدد مؤلفاتي الطبية؟

قبل أن تجيب.

- عشرة مؤلفات تجمع بين مقالة ورسالة، بدأت في تدوينها عام 1167 في مصر، واستمر ذلك لسنوات طويلة، ونُقلت من العربية للعبرية ومن ثم للاتينية.

أهمها رسالة (فصول موسى) هذه الرسالة وضعت فيها خلاصة خبرتي الطبية، ولعل الذين انتقدوني أني لم أزد أو أنقص في كتابي عن جالينوس كانوا ذكروا أن فصول موسى احتوت على 1500 قانون طبي من مصنفات جالينوس وغيره من أطباء الإغريق، وأضفت عليها اثنين وأربعين تعليقًا ونقدًا وتحليلًا. تعمدت أن أبدأها بـ (قال موسى) حتى لا يثير خلطًا ما بين قوانينهم وتعليقاتي وإضافاتي عليها. الكتاب مكون من خمسة وعشرين فصلًا، ولم يترك داء إلا وصف له دواء، وفيه أهم ما ورد في الطب العربي.

- نعم، وذكرت فيه ثلاثة أطباء من المسلمين كان منهم (ابن زهر)، وهو واحد من أهم أطباء المسلمين في القرن الحادي عشر للبلاد، وهذا الكتاب أصبح مرجعًا أساسيًا يعتمد عليه الأطباء منذ القرن الثاني عشر، وتوجد منه نسخة خطية نُقلت من يوسف بن عبد الله ابن أختك، وترجم للغتين الإيطالية واللاتينية.

59
طبيب السلطان

- أخبرتني أكثر من مرة أن العداوة والشائعات التي طالتك في ردتك عن الإسلام كان القصد منها زعزعة الثقة بينك وبين البلاط السلطاني من ناحية، ومن ناحية أخرى إثارة البلبلة والتساؤلات حول استعانة صلاح الدين بطبيب يهودي. هل يمكنك أن تخبرني عن ظروف توليك منصب طبيب السلطان؟

- صيتي في الطب ذاع في طول البلاد وعرضها، وعندما مرض القاضي الفاضل البيساني وزير صلاح الدين مرضًا شديدًا جدًّا احتار فيه الأطباء.

قاطعته قائلة:

- ولكن لو أن صيتك كان في طول البلاد وعرضها، فلماذا لم يلجأ إليك فور مرضه؟!

- لأنه قاضي الإسلام وأنا يهودي، وكان من العيب وقتها أن يلجأ شيخ الإسلام وقاضيه وزير صلاح الدين الأيوبي لطبيب يهودي ليداويه، ولكن عندما يئس ووجد أنه ليس باليد حيلة، أمر بجلبي، ومنذ أن فحصته وأخبرني بشكواه علمت موضع دائه، ووصفت له الدواء، وشفي من أول جرعة منه، ومن يومها تمسك بي، وعينني طبيبه الخاص.

وكأنه كان يستعيد الزمن في خياله، فقد أزاح رأسه للخلف ورفعه للأعلى، وهام في ذكرياته وبعينين مغمضتين نصف إغماضة:

- طلبني الناصر صلاح الدين للقائه، فذهبت إليه، اجتزت ممرًّا طويلًا تحفه أشجار سرو، وعلى ممر الدرجات القليلة المفضية إلى المبنى الرئيسي كان يمتد شريط ضيق من زهور الزنبق.

جاء السلطان لاستقبالي، وقد أحاط عينيه بكحل غامق، واضعًا معطفًا من فرو الثعلب فوق عباءة من الصوف بلون الياقوت.

في البداية لم أصدق أني اقف على بضع خطوات من الناصر صلاح الدين الأيوبي. صافحني، وهو ينظر إليّ من قمة رأسي إلى أخمص قدمي، بعدها نطق بصوته الذي يشبه صنفرة شيء معدني على سطح أملس، صوت لا يمكن نسيانه.

- يسعدني لقاؤك أيها المفكر والفيلسوف والطبيب الماهر، إنّي أغبطك يا رجل على عقلك المتقد بالفكر والمعرفة.

عندما سمعت منه هذه الكلمات، ترقرقت عيناي بالدموع، فعندما يمدحك رجل بمكانة الناصر صلاح الدين سلطان السلاطين تشعرين بأن العلم الذي أفنيت عمرك في تحصيله لم يذهب هباء، وتعلمين كم كانت تافهة الخطط والمشاكل والعواقب التي وضعها لك الحاقدون لتكون عثرة في طريقك، عدة كلمات فقط تفوّه بها الناصر صلاح الدين محت من الذاكرة سنوات طويلة، سنوات من الاضطهاد، والإقصاء، والتعسف، والتعصب. والآن عندما أستعيد ذكرى هذا اللقاء أكاد أنسى ما سمعته منك عن الكذب والخداع وتزييف أعمالي والتهم التي رموني بها، يكفي أن يشيد بي الناصر صلاح الدين، لتبقي كلماته ذكري لا يمحوها الزمن.

- نعم، إنه شيء عظيم!

عندما سمعت منه هذا الكلام، ازددت تواضعًا وانحنيت بين يده أكثر وأكثر حتى كادت رأسي أن تلامس الأرض.

ذهبنا إلى غرفة مكتبه في رواق فسيح، تمتد فيه الكتب من الأرض إلى السقف، على رفوف من خشب الزان. كتب في الطب، والفلك، والفقه، والقانون، شمعدانات نحاسية معلقة على الجدران لإنارة منضدة القراءة الطويلة التي تتوسط المكان، بينما الأرضية كانت مكسوة بسجاد غزل من صوف خراف. كان المكان هادئًا هدوءًا غريبًا، ونسمات رطبة تهل من وقت لآخر.

أمرني بالجلوس ثم سألني، وهو ينظر إليّ بعين متفحصة:

- ها وقد أفنيت عمرًا طويلًا في البحث والدراسة، هل لك أن تخبرني في كلمات موجزة بخلاصة إفادتك؟

- حيرني سؤاله أكثر مما فاجأني! فكيف أستطيع أن أصب له خلاصة تجربتي من العلم في كلمات موجزة؟! وهي التي كتبت فيها ملايين الكلمات. كنت أعلم أنه ذكي، ويقصد أن يضعني بسؤاله هذا في موضع التجربة أكثر من الفهم.

عندما تمعنت في السؤال تأكدت أنه ليس هو وحده من يختبرني، فقد جعلني أختبر نفسي أيضًا بسؤاله الذي أثار فكري، وجعلني أتساءل بعد كل هذه السنوات: ما خلاصة كل ذلك؟

أصبت بالحيرة والارتباك، وتفكرت لبعض الوقت، ثم برقت الإجابة في رأسي: (مولاي المعظم السلطان الهمام الناصر صلاح الدين، ما تعلمته من كل ذلك أنه كلما كان الشخص أكثر رياضة لنفسه، كان أقل انفعالا في جميع الأحوال، أعني في حالتي النعمة والنقمة، حتى إذا نال خيرًا كبيرًا من خيرات الدنيا، وهي التي يسميها الفلاسفة الخيرات المظنونة، لا تعظم عنده ولا تفسد نفسه ولا يبطر. وكذلك إذا نال شرًا عظيمًا من شرور الدنيا، وهي التي يسميها الفلاسفة الشرور المظنونة، لا يهلع ولا يجزع بل يصبر صبرًا جميلًا. أعظم الخيرات لو دامت مع الإنسان عمره كله لا تمثل قيمة؛ لأنها شيء منقطع عن الإنسان بموته كسائر أنواع الحيوان، وكذلك أعظم شرور الدنيا لو قيست بالموت الذي لا بد منه تكون لا قيمة لها مقارنة به، فلذلك يقل التأثر.

لذلك خيرات الدنيا وشرورها هما خيرات وشرور مظنونة، لأنّ ما يظن أنه خير يكون شرًّا في الحقيقة، وما يظن أنه شرٌّ يكون خيرًا بالحقيقة.

كثيرًا ما امتلك إنسان مالًا وملكًا، وكان ذلك سببًا لغروره وفساد بدنه واعتلال نفسه، وكم من ملك أو مال سلب من شخص، فكان ذلك سببًا في صلاح بدنه وتجميل نفسه بالفضائل وتقريبه من بارئه بإقباله على أفعاله!

وأنهيت كلامي قائلًا:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت

ويبتلي الله بعض القوم بالنعم

وفي الآخر ما قد يعتقده البعض سعادة قد يكون شقاوة بالحقيقة).

كان ينصت لي بإمعان شديد، ويفكر بعمق في معنى كلماتي، بعد أن أنهيت حديثي هزّ رأسه بما يفيد عن الرضا.

دعاني على الغداء، فذهبنا إلى غرفة الطعام، امتد هناك سماط طويل، رص خدامه عليه ما لذ وطاب، شعرت براحة كبيرة، فكان من المعروف عنه أنه لا يتناول غذاءه مع أحد إلا إذا كان حظي بثقته واحترامه.

ومنذ ذلك اليوم، وهو بين الحين والآخر يرسل في طلبي لنتسامر ونتجاذب أطراف الحديث. كان رجلًا ذا فكر متقد، وعقلية لم أرَ مثلها من قبل.

صمت لبرهة، ثم واصل كأنه يتحدث إلى نفسه:

- أبدًا، لم يكن للأمر علاقة بصيت أو سلطان، كان لجسارته ولحماسه، لتمرده ولجرأته التي تدفعه لاحتقار وزهد العالم، ولشجاعته، شجاعته الفائقة التي كانت تجعله يحمل السيف دائمًا في يده عازما على أن يحمي سكان العالم كله.

- وماذا عن الأقاويل بأنك استغليت وظيفتك في البلاط الأيوبي لصالح اليهود؟

- لم أفهم حديثك، ما الذي تقصدينه لصالح اليهود؟ في عهد صلاح الدين كانت كل طوائف المجتمع وملله تعامل معاملة واحدة، لا فرق بين شخص وآخر، ولم يكن هناك وقتها من داعٍ لاستغلال أي نفوذ.

- يقولون: إنه عندما فتح صلاح الدين فلسطين، علاقته الوثيقة مع ابن ميمون جعلت ابن ميمون يقنعه بالسماح لليهود بالإقامة في القدس بعد تحريرها من الصليبيين الذين كانت محظورة

عليهم الإقامة فيها.

ضحك بسخرية:

- هل قلتِ إني أقنعت صلاح الدين الأيوبي؟! هل في اعتقادك أو اعتقاد أيّ كان أن صلاح الدين الأيوبي يمكن لأحد كان أن يقنعه بفعل شيء، أو يعرض عليه فعل شيء، أو حتى يطلب منه فعل شيء؟!

هذا لم يحدث، لم نتطرق يومًا لمثل هذه الأمور، صحيح كان يطلبني كثيرًا لأجالسه، ولكننا كنا نتسامر ونتناقش في أمور فلسفية وفكرية بعيدة عن السياسة والدولة والحكم. ويجب أن تتأكدي أن صلاح الدين الأيوبي لم يكن ليفعل شيئًا إلا إذا كان مقتنعًا به تمام الاقتناع.

وكأنه تذكر شيئًا:

- مؤكد هذه الشائعات خرجت بعد موتي، لأنني حتى اليوم لم أسمع بها، ولم يجرؤ أيّ كان على التفوّه بها في حياة صلاح الدين وبعد وفاته أيضًا، بالرغم من أنّه كان هناك الكثيرون من الحاقدين الذين حاولوا هدم هذه العلاقة.

- لا أعلم تحديدًا متى خرجت هذه الشائعات، ولكن في الغالب المقصود بها تشويه صورة صلاح الدين.

لقد أحببت السلطان المعظم صلاح الدين، وتفانيت في عملي بالبلاط الأيوبي سواء للقاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني أو لأبناء صلاح الدين الأيوبي.

- سمعت أن صلاح الدين مرض مرضًا شديدًا قبل موته، فلماذا لم تعالجه؟

- مرض صلاح الدين الأيوبي عام 1185، كان يبلغ وقتها من العمر 47 عامًا، مرض مرضًا شديدًا استمر لشهرين، وقتها لم أكن طبيب البلاط الأيوبي ولم أكن التقيت به بعد، ولم يستدعني أحد لرؤيته، وفي عام 1190 تدهورت حالته الصحية مرة أخرى، وتعرض لحمى شديدة حينها، هرعت لرؤيته، وجدت حالته سيئة جدًّا، لم يكن يستطيع أن يصلب طوله، كلما هم بالوقوف

خذلته قدماه، حزنت عندما رأيت السلطان الذي يتمتع بقوة وصلابة في هذا الشكل، وعاهدت نفسي وجاهدتها أن أقوم بصناعة وصفة دوائية ليعود من خلالها لحالته الطبيعية، وبالفعل وفقت في ذلك.

السلطان نفسه، وحاشيته، وبلاطه، الذين كانوا اعتقدوا أنه لا أمل في شفائه، أصابتهم المفاجأة عندما وجدوه بينهم واقفًا على قدميه، وهو في قمة قوته وبهائه.

يومها كانت سعادتي باسترداد صحته تفوق سعادة أي شخص في الديار المصرية، الأمر لم يكن له علاقة بأن ذلك سيزيد من صيتي في الطب والدواء، أبدًا، أحببت هذا الرجل وتمنيت شفاءه حقًّا.

شكرني، وأخبرني أنه ممتن لي كثيرًا على ذلك، أجبته أن الرب أراد لك الشفاء لتواصل فتوحاتك وانتصاراتك، وتعلي راية الإسلام أكثر وأكثر. ابتسم يومها عندما سمع مني هذا الكلام، مازحني قائلًا: (بدأت أشك في إسلامك حقًّا).

ثم سافر إلى دمشق، وهناك مرض مرضًا شديدًا، لم يصلنا أمر مرضه هنا في الفسطاط إلا بعد اشتداده. أول ما سمعت بالخبر جمعت أغراضي، وهيأت نفسي للسفر، ولكن للأسف جاء خبر وفاته. حزنت لفراقه أشد الحزن، وخرج الجميع، الرجال يبكون والنساء ينحن، ورفعت الراية السوداء فوق القلعة، وارتدت مصر جميعها الحداد.

بموت صلاح الدين تغيرت الكثير من الأشياء، عندما يحكمك حاكم عادل شجاع مغوار صادق يمنحك هذا شعورًا بالثقة، هذه الثقة تمنحك الطمأنينة التي بها تتعاملين بسلام.

لا فوضى ولا جريمة ولا كذب ولا خداع. ليست عيون الله وحدها هي التي تراقبنا، إنها ضمائرنا أيضًا، وجوده كان كافيًا لينعم الجميع بالعدل والمساواة.

- وما حقيقة البئر التي كنت تعالج من مياهها صلاح الدين؟ وهل هي فعلًا مياه مباركة؟

- أية بئر تقصدين؟!

- بئر هنا في منزلك.

- ليس لهذا الحديث أيّة صحة، إنها بئر كأية بئر.

-    هل تعلم أنه بعد وفاتك أصبح لهذا السرداب شهرة كبيرة في التبرك للشفاء من الأمراض؟ المرضى يأتون من كل مكان في مصر ومن خارج مصر أيضًا، يبيتون ليلتهم على أمل أن تظهر لهم في رؤياهم ليلا، ويشربون من ماء البئر، ويتبركون بزيت طاهر، وكل ذلك تحت إشراف الحاخامات.

ضيّق من حدقتي عينيه، وظهرت على وجهه علامات التعجب:

-    وهل الحاخامات تركوا مهامهم، وأصبحوا يشرفون على هذا الدجل؟! من الواضح أن الأمور قد رجعت بعد وفاتي لسابق عهدها، بالرغم من أني عملت بإخلاص لأحرر اليهود من هذه الأفكار التي تسكن عقولهم.

-    ربما لأن صيتك الكبير وتفوقك في الطب جعل الناس يعتقدون أن هناك قوة خفية وراء ذلك.

-    ولكن حتى لو كان ذلك حقيقيًا، فهذه القوة ستذهب بذهابي.

-    في الحقيقة لا أعلم كيف انتشرت تلك الشائعة، من الممكن أنّه زار أحدهم معبدك بنية الشفاء، وبالمصادفة قدر له أن يشفى، ومن هنا جاءت الأسطورة.

ظهرت على وجهه علامات الإنهاك.

-    هناك سؤال أخير، أريد أن أحصل على إجابة منك، خاصة لأنه أثار الكثير من التساؤلات والشكوك والأقاويل.

-    من الواضح أن حياتي كلها أثارت الشكوك والأقاويل. لقد أجهدتني أيتها المرأة.

أشار لها بإصبعه كعلامة اتهام، وظهرت على وجهه سيماء البطش، ثم قهقه بصوت عالٍ:

-    أمزح معك، على العكس، لقد سعدت بهذا اللقاء الذي لم أفهم حقيقته حتى الآن، من أنت؟ ومن أين جئت؟ وهل أنت حقيقة أم خيال؟ ما هو سؤالك الأخير؟

-    هل تقابلت مع الفيلسوف ابن رشد؟

أخذ برهة في التفكير:

- وماذا قالوا بخصوص ذلك؟!

60
غلبت أصالحك

في الداخل كانت الصالة مزدحمة بالجمهور من الطبقات كافّة. حرص الجميع أن يأتوا متأنقين، وكل منهم على ذوقه وعلى مستواه الاجتماعي، بشاوات البلد ارتدوا السموكينج، والهوانم تدثرن بفراء المنك. أعيان الأرياف ارتدوا عباءات صوفية، ولفوا رؤوسهم بالعمامة، وحرص الموظفون أيضًا أن يظهروا بشكل لائق في حفل الست، فأرسلوا بذلة المناسبات الوحيدة لديهم ليقوم صبي المكوجي بكيها وفرد تجعيداتها.

كان المسرح مفعمًا بمزيج من الروائح المختلفة، يمكنك أن تستنشق جميع أنواع العطور؛ الفرنسي، والمصري، وكولونيا اللافندر وعطور شعبية، من تلك التي تُباع في الموالد.

بصوت عميق قدم المذيع الحفل (الآن تظهر سيداتي سادتي على المسرح المطربة أم كلثوم)، بعدها صوت وقع الطبول، إيذانًا برفع الستار. ينقسم الستار الأحمر إلى جزأين لتظهر أم كلثوم ووراءها فرقتها، تلتهب الأيادي من التصفيق الذي طال لأكثر من خمس دقائق متواصلة، وكلما خف يتزايد مرة أخرى، ويعلو ويعلو ولم يتوقف إلا عندما أشار المايسترو للفرقة للبدء في العزف.

عندها انسابت الألحان، وانسابت معها أرواحنا في ملكوت آخر. نستمع، ونحن مكتومو الأنفاس خشية أن نفسد هذا الجمال.

من حين لآخر كنت أنظر إليها، فأجد عينيها تلمعان ببريق غريب.

انتهى الحفل، ولم ينتهِ شدو أم كلثوم الذي استمر ساكنًا فينا، ليفتح القلوب على الحب، ويجعل العيون لا ترى إلا الجمال. يختفي القبح والكذب والحقد، ويتوحد العالم. هذا ما يفعله الفن بنا.

كانت تردد بصوتها القوي الشجي الحنون (غلبت أصالحك في روحي عشان ما ترضي عليك من بعد سهدي ونوحي ولوعتي بين إيديك... معرفش أيه اللي جنيته بعد ما رضيت بالحرمان).

وكنت أذوب معه كذوبان الثلج في الدفء الأول من فصل الربيع، ذابت بداخلي تلك المشاعر التي طالما سكنت فيّ، مشاعر الكراهية والحقد والغيرة، وللمرة الأولى شعرت بسلام نفسي، شعرت بالرضا، شعرت بالمحبة.

قبحي الذي لازمني منذ طفولتي، ولّد لديّ هذه المشاعر، التي أخذ يغذيها بعد ذلك كل شيء من حولي. تلك الحارات التي وسمونا بالعيش فيها، الفصول المخصصة لتلاميذ اليهود، رفض العالم لنا كأننا كلب أجرب يجب التخلص منه. هذه الأشياء مجتمعة ولدت بداخلي شعورًا بالكراهية تجاه كل شيء وتجاه العالم أجمع، وهذه الكراهية الشديدة كنت أبثها في عقول وقلوب الشباب الذين انضموا للوكالة. هذا الشباب الغض البريء كنت أملأ قلبه بالحقد والسوداوية تجاه كل شيء من حوله؛ الأسرة، والمجتمع، والدولة، والعالم.

كنت أملأ آذانهم (نفور - نبذ - كراهية - تنمُّر)، هذه الكلمات التي كنت أحشو بها رؤوسهم، تجعلهم يفقدون الثقة في كل شيء ويكرهون كل ما يحيط بهم، ومن أجل كل هذا الدمار بداخلهم كان بإمكانهم فعل أي شيء، حتى التقيت بها وتبدل كل شيء.

نعم، كان يكفي أن ألتقي بها، لأصبح شخصًا آخر بعد كل هذا العمر.

أحببتها، حدث ذلك. أنا الذي لم يخفق قلبي بالحب سابقا. هي المرأة الأقل جمالًا، الأقل أنوثة، لكنها دون شك كانت الأكثر ذكاء. نعم، الأكثر ذكاء، لتوقعني في شباكها، لم تكن كلمة لقاء هي ما حدثت يومها، أبدًا، هذه الكلمة ليست هي اللفظ الصحيح، لقد اندسست في شباكها، شباك غير مرئية لعنكبوت.

61

من موسى إلى موسى لم يأتِ إلا موسى

- في كتابه (معجم البلدان) لياقوت بن عبد الله الحموي الرومي وشهرته ياقوت الحموي، وهو مؤرخ وواحد من أئمة الجغرافيين، أشار إلى أنك قابلته، ولكن الأصفهاني، وهو مؤرخ وأديب وشاعر وُلد في أصفهان، وعاصر الدولة النورية والأيوبية، ودوّن أخبارهما، ورافق صلاح الدين الأيوبي في معاركه، وبعد وفاته اعتزل بمنزله وعمل في التأريخ حتى وفاته عام 1201 م، وكان أيضًا معاونًا للقاضي الفاضل في الكثير من الأمور، نفى ذلك. وآراؤهما المتضاربة أثارتا الكثير من الشكوك لدى الناس، وخاصة أنهما عاشا في الفترة نفسها التي وُجدتَ فيها.

- لقد التقيت بهما، ولكن لم يسألني أحدهما عن علاقتي بابن رشد، وإذا ما كنت التقيتُ به أم لا؟

- منهجك في التوفيق بين العقل والدين كان يظهر تأثرك بفلاسفة الأندلس وعلمائها، خاصة ابن حزم، وابن رشد؛ ولأنك عاصرت ابن رشد رسخ في عقول البعض أنك التقيت به فعلًا، وهناك فلاسفة من العصر الحديث مثل بروكر والحسن بن محمد الوزان أكدوا أنك كنت تلميذًا مباشرًا له.

كان يداعب ذقنه، ويسألها:

- وأنت ماذا تعتقدين؟

- سأكون صريحة معك، في الواقع لم أهتم يومًا بالفلسفة، ولا أعرف الكثير عن ابن رشد، كما كانت معرفتي بك قبل العثور على الوثيقة مجرد معلومات عامة؛ لذلك لا أستطيع التكهّن بشيء.

شرد بأفكاره بعيدًا:

- أذكر ذلك اليوم جيدًا، يوم لقائي (بأبي الوليد محمد بن رشد) في أحد أيام الشتاء القاسية بمدينة ألمرية. كنت وقتها شابًا صغيرًا ينهل من العلم نهلًا، ومن كثرة ما سمعت عنه تولد لديّ شعور أنه إله للعلم والمعرفة.

ذهبت لحضور إحدى حلقات دروسه، فهالني ما وجدت من علم وفصاحة. كنت أنصت إليه وكأني أستمع للغة أخرى مختلفة عن كل لغات العالم، لغة جرسها الموسيقي هو الفهم والإدراك لما هو أبعد من حدود العقل. يجلس على مقعد من المخمل الأحمر عالي الظهر، ويتدثّر بمعطف من الفراء يضعه فوق كتفيه، وبملامحه الودودة وصوته الدافئ يولد لدى المرء شعورًا بالعظمة والإلفة معًا.

- ولكنك لم تذكر ذلك في كتبك، وأعتقد أن التتلمذ على يد فيلسوف كبير مثل ابن رشد شيء يدعو للفخر.

- صعب عليّ تدوين الكلمات على الورق لأصف هكذا ببساطة معلمي الفاضل، الرجل الذي دخل حياتي، ولم أكن قد بلغت العشرين من العمر ولم يغادرها أبدًا، الرجل الذي جعل علمه وفلسفته تعبيرًا خالصًا عن العلم والحكمة. كيف يمكنني أن أقول ذلك أو أُعبّر عنه؟! ولكن للأسف لم يمهلني القدر أن أحضر له إلا عددًا قليلًا من الدروس. كان علينا أن نغادر المرية بعد أن عظم اضطهادنا هناك بعد حكم الموحودين، ولكن هذه الكلمات التي سمعتها منه في حلقات العلم التي حضرتها له، كانت كقطرات الحليب الأولى التي يشربها الرضيع من ثدي أمه فور ولادته، فيها فائدة كبيرة لتمنحه قوة على مجابهة الحياة. نعم، هذا ما حدث، فتعاليمه وأفكاره منحتني قوة خوض معترك الحياة للبحث عن الحقيقة.

- وهذا يفسر أوجه التشابه بينكما في الروح والفكر التي تصل إلى التطابق أحيانًا.

- أهم هذه الأوجه أننا نقدم تفسيرات جديدة للدين وللحياة من منظور خارج عمّا هو تقليدي.

- وكل منكما أيضًا نال قدرًا كافيًا من التقدير والاحترام من مؤيديه، والإساءة والتوبيخ من معارضيه.

- تتحدثين كما لو أننا في حرب! لا أعرف لماذا تحولت الأمور إلى مثل هذا الشكل! إنه اجتهاد فكري في المقام الأول؛ من يعجبه فإنّه مرحّب به، ومن لا يعجبه يبتعد في هدوء.

- لأنكما فيلسوفان كبيران تؤثران في الفكر البشري. لعلهم لهذا يقولون أنك أسلمت!

ابتسم:

- أفكاري عن وحدانية الإله تشبه ما جاء في الدين الإسلامي، لذلك يقولون ذلك.

- لاشك أن تتلمذك على أيدي فلاسفة وعلماء مسلمين، وعيشك وسطهم جعلك تتأثر بالدين الإسلامي.

- لا أستطيع أن أنفي ذلك، ولكن في حقيقة الأمر اليهودية تشبه في تعاليمها بعضًا من تعاليم الدين الإسلامي، اليهودية الحقيقية ليست تلك التي اخترعها الحاخامات.

- آمن بعض علماء المسلمين بك وبعلمك حتى أنهم أطلقوا عليك الفيلسوف الإسلامي، ولكن هناك فئة عارضتهم بشدة مستشهدين في ذلك بما وصفك به عبد اللطيف البغدادي (يريد أن يفسد أصول الشرائع والعقائد بما يظن أنه يصلحها).

- يشرفني أن يلقبوني بهذا اللقب.

فجأة سألها بنبرة خفيضة عن المعتاد:

- ولكن هل بقي لي الكثير من العمر أم أني أوشكت على الرحيل؟

نظرت في جهازها، وقرأت هذه العبارة (وفي يوم رحل ابن ميمون، وقد ارتفع العويل، وعمّ الصمت أرجاء المكان، وقيل فيه الكثير من الرثاء، ومن أشهرها (من موسى إلى موسى لم يقم مثل موسى)، ووُضع جثمانه في تابوت مقفل جملة سنين إلى أن نُقل إلى فلسطين، ولا تزال العامة من الناس تأتي بالمرضى للمبيت في السرداب الذي وضع فيه جثمانه؛ اعتقادًا منها أن هذا المكان المبارك يشفي من كل داء).

- أعتقد أنه من الأفضل ألّا تعرف موعد رحيلك، ولكنّ هناك أمرًا متعلقًا بجثمانك أثار الكثير من الأقاويل.

قال باستسلام:

- حتى جثماني لم يُرحم من أقاويلهم، هيا هاتي ما عندك...

- وُضع جثمانه في تابوت مقفل جملة سنين في سرداب منزله إلى أن نُقل إلى فلسطين، وفي كتاب تاريخ الحكماء للقفطي شكك في أن يكون ابن ميمون قد حُمل من مصر إلى فلسطين ليُدفن هناك، ويستدل على ذلك أن جميع مدونات معاصريه لم تذكر هذه الحكاية مطلقًا، وهو يعجب من أن يكون قد نُقل جثمانه من الفسطاط إلى طبرية، ولم يأتِ لهذا الحادث أي ذكر في كتاب عبري أو رسالة يهودية ظهرت في سنة 1204 أو 1205، ويشير إلى رحالة يهودي يُدعى (شموئيل بن شمشون) زار طبرية في سنة 1210، ثم لحق به بعدها بعامين رحالة يهودي شهير آخر يُدعى (يعقوب بن ثنائيل)، والاثنان لم يذكرا قبر ابن ميمون أبدًا، والغريب أن أول من ذكر قبره بين قبور أولياء اليهود سائح زار طبرية سنة 1258، أي بعد مرور خمسين سنة ونيّف على وفاته، ولكن جميع مدونات النصف الثاني من القرن الثالث عشر تثبت أن وجود قبر ابن ميمون بطبرية، كما أن حفيده داود ابن إبراهيم حضر اجتماعًا على قبره في ذلك الحين. وقد نُقش على قبره: دُفن في هذا القبر (معلمنا موسى بن ميمون مختار الجنس البشري)، ولكن أعداءه لم يرضوا عن هذه الكتابة، فطلبوا من أحد الكتاب وهو معروف بسليمان قصير القامة بأن ينقش على قبره كتابة أخرى نصها (دُفن في هذا القبر موسى بن ميمون الطريد والمحروم والكافر).

ردّد وراءها بتأثر ملحوظ:

- الطريد والمحروم والكافر!

شعرت بالندم لأنها أخبرته بذلك، فحاولت أن تلطّف من صنيعها:

- دعك من هذا. هناك مقولة مهمة وقيمة انتشرت عنك فور مماتك، وأخذت تتردّد في أنحاء العالم.

نظر إليها دون أن ينطق، وكأن الحزن ألجم لسانه.

- (من موسى إلى موسى لم يأتِ إلّا موسى).

أخذ يتأمل في معنى العبارة لبرهة، ثم انشرحت أساريره وردّدها خلفها:

- (من موسى إلى موسى لم يأتِ إلّا موسى).

تمددت الكلمات.. تطاولت.. صار لها صدى مدوٍّ، وهي تخرج من فمه بعاصفة من الرياح، دوامة ابتلعت في جوفها كل شيء، ابتلعت المكتب.. المكتبة.. الأثاث..، البساط، ابتلعته، صفير رياح شديد يصم الآذان، التفت حول نفسها، تقوقعت، كم بقيت على ذلك؟ دقائق قليلة ولكنها مرت كدهر، ثم ساد الهدوء.

رفعت رأسها الذي وضعته بين ركبتيها ببطء ونظرت حولها، لم ترَ شيئًا. كان المكان مظلمًا إلا من شعاع بسيط من الضوء ينبعث من أعلى الدرج، في هذا الضوء الشحيح تحسست ما حولها حتى وجدت هاتفها وأضاءت الكشاف، كان المكان خاليًا تمامًا، لا أثر لشيء، لا لموسى بن ميمون، لا أثر للكتب، لا أثر للأثاث.

كان هناك فقط السرداب والبئر المعطلة والغبار الذي يكسو المكان.

عندما خرجت من السرداب كاد ضوء الشمس الساطع أن يخطف بصرها بسبب حدة الظلام في الداخل. نظرت في ساعتها لتعرف كم مرّ عليها من وقت، كانت الساعة الثانية عشرة والنصف، تحيرت! هل لم يمر عليها داخل هذا المكان سوى خمس عشرة دقيقة أم تراها الثانية عشرة والنصف من اليوم التالي؟!

سألت حارس الأمن:

- عفوًا، ولكن في أي يوم نحن؟

نظر إليها الرجل بريبة وأخذ يتأملها، يحاول أن يفهم من هيئتها أي شيء يكشف جنونها، ولكنه لم يجد أمامه سوى امرأة على قدر كبير من الأناقة والجاذبية.

- اليوم الخميس.

هل يمكنك أن تخبرني كم مرّ عليّ من زمن، وأنا بالداخل؟

- حوالى خمس عشرة دقيقة، ولكن أخبريني: هل هناك أمر ما؟

- ربما!

تركته يضرب كفًا بكف، وهرولت باتجاه سيارتها. جلست تفكر في ما حدث لها، وكيف لم يمر على وجودها داخل المعبد سوى خمس عشرة دقيقة فقط، وحديث موسى معها الذي قص عليها فيه قصة حياته، والاحتفال الذي حضروه الذي دام عدة ساعات، كيف كل ذلك يكون مرّ في خمس عشرة دقيقة فقط؟! هل كل ما مرت به كان وهمًا؟!

(لا، لم يكن وهمًا، وبإمكاني التأكد من ذلك، فقد سجلت صوته. نعم، لديّ دليل). انتشلت الهاتف من حقيبتها مسرعة، كانت البطارية قد فرغت تمامًا.

أعراض غريبة تشعر بها، وشيش حاد يكاد أن يشق رأسها إلى نصفين، انفلات في أعصاب جسدها، بصعوبة كانت تتحكم في مقود السيارة، عدم تركيز جعلها تسلك طريقًا مختلفًا في عودتها إلى المنزل.

هرعت تشحن هاتفها، وتناولت حبة من الدواء لتسكين هذه الأعراض، وقفت تحت الماء الدافئ ربما يساعدها ذلك على استعادة هدوئها، فكان صوته يسري في أذنها كسريان الماء على جسمها بقوة واندفاع ليؤكد أن ما حدث لها لم يكن حلمًا.

كأنها انقسمت إلى نصفين، نصف يؤيد أن ما حدث محض وهم، والآخر يؤكد أن ما حدث حقيقي. جمعت شعرها المبلل بالمنشفة، وارتدت روب الحمام وخرجت مسرعة تبحث عن التسجيل على هاتفها.

قفز قلبها، وكاد أن يخرج من بين أضلعها عندما وجدته. قامت بتشغيله، لم يكن هناك صوت، لم يكن سوى وشيش كوشيش الموجات الإذاعية عندما نحرّك مؤشر الراديو لالتقاط قناة ما. مدة التسجيل تجاوزت الساعتين، وعلى مدارهما لم يكن هناك شيء سوى الوشيش، راجعت تفاصيل التسجيل فلم تجد أية معلومات عن الوقت أو التاريخ، كان الوقت والتاريخ مصفرين.

بأنامل مرتجفة بحثت في تسجيلات الفيديو، مسّها الأمل عندما وجدت التسجيل، لكن تبدد سريعًا عندما لم يظهر في الصورة سوى طيف دخاني أبيض غير واضح تمامًا.

62
خزعبلات

كانت تحكي له بصوت يتناوب فيه قلق وخوف وارتباك، وكان ينصت لها باهتمام حتى أنهت قصتها.

وبعد فترة صمت قال بنبرة يشوبها الهدوء:

- أخبرتني أنك منذ وفاة زوجك تتناولين حبوبًا مهدئة، فهل مثلًا زدت الجرعة دون استشارة الطبيب؟!

رمته بنظرة قاسية:

- هل حقًّا ما تقول؟! من الواضح أني أخطأت عندما اخترتك من بين الجميع لأحكي له.

ثم غادرت بخطوات مسرعة. هرع وراءها، وجذبها من ذراعها:

- أرجوك، انتظري.

- لتسخر مني؟!

- أبدًا، أنا لا أسخر منك، ولكن أحاول أن أجد تفسيرًا لهذه الخزعبلات.

- خزعبلات!

- آسف، ولكن ماذا يمكنني أن أسميها؟! لو جئتك يومًا، وأخبرتك أني بالأمس، وأنا في زيارة الأهرامات قابلت الملك خفرع، فما الذي سيعنيه لك حديثي وقتها؟!

زفرت بعمق ويأس ثم ابتسمت، وهي تجيبه:

- خزعبلات!

- ضحكت، وضحك. أصابتهما هستيريا من الضحك، كان يشير إليها ويعيد جملتها (لقد التقيت موسى بن ميمون وتحدثت معه)، وكانت تضحك أكثر وأكثر.

ثم عندما انتهت نوبة الضحك أخرجت هاتفها، وفتحت الفيديو الذي سجلته. شاهد التسجيل باهتمام أكثر من مرة، لم يظهر فيه سوى طيف دخاني لثوانٍ، واختفى بعدها لتعود الشاشة إلى بياضها.

- راجع تفاصيل الفيديو، لن تجد تاريخًا أو وقتًا.

- غريب حقًّا ولكن!

- نعم، أنا معك، إنّه شيء لا يصدق، ولكنه حدث. عندما عثرت على هذه الوثيقة مسني شعور غريب تجاه هذا الرجل.

عندها تذكرت الوثيقة، بحثت عنها في حقيبتها فلم تجدها، بعثرت محتويات الحقيبة على الأرض، وأخذت تبحث كالمجنونة.

- هل هناك شيء؟ عمّ تبحثين؟

- عن الوثيقة.

- أية وثيقة!

أجابته بلهفة:

- وثيقة الاستغاثة التي كتبها موسى بن ميمون، لقد أعطيتها له لأثبت أني قادمة من زمن آخر، وعدم وجودها في الحقيبة يؤكد صدق كلامي، وما تصفه بخزعبلات هو حقيقة.

- ربما وضعتيها في حقيبة أخرى.

- لا، هذه هي الحقيبة التي ذهبت بها إلى المعبد، وعندما رجعت إلى البيت تناولت منها الهاتف، ووضعتها على المقعد، وحملتها معي صباح اليوم للعمل.

لملمت أشياءها مسرعة:

- سأذهب لأبحث عنها في البيت.

ثم ركضت ذاهبة.

63

هل عيناك لوزيتان قاتمتان؟

كانت تقود بسرعة جنونية على غير عادتها، مؤشر سرعتها في أعلى معدلاته لم يتعدَّ التسعين كيلو مترًا، ولكن عدم وجود الوثيقة يؤكد أن ما حدث حقيقة، وليس ضربًا من الجنون؛ لذلك كان يجب أن تسرع لتتأكد قبل أن تفقد عقلها.

تركت السيارة بجوار الرصيف، وركضت إلى المنزل ولم تهتم حتى بأن تغلق الباب، قلبت غرفتها رأسًا على عقب فلم تجدها.

أخذت تفتش في المنزل كله هي ورحمة، ثم بحثت في السيارة فربما سقطت منها هناك، ولكن لا أثر لها.

تناولت هاتفها واتصلت به. كانت تريد أن تثبت لأحد، أيًّا كان، أن ما حدث لها لم يكن وهمًا.

- لم أجد الوثيقة، وليس هناك أثر لها.

صمت، لم يجد ما يجيبها به، كيف بإمكانه أن يحبط تلك الدهشة الممزوجة بسعادة التي تحدثه بهما؟!

- لماذا لا تجيب؟

- أفضل أن نلتقي ونتحدث. هناك تفاصيل أحتاج أن أعرفها منك.

- في المقهى الملحق بالفندق بعد انتهائي من العزف.

- سأنتظرك.

كانت متعبة ومرهقة، فردت جسدها على الشيزلونج وأغمضت عينيها، وبين كل الأفكار المربكة المرتبكة التي يتشابك بعضها مع بعض، بعضها فوق بعض، سطع تساؤل وسط كل هذا: لماذا هو تحديدًا من لجأت إليه لتقص عليه حكايتها؟!

هي وحيدة بالرغم من كل هذا العالم المحيط بها؛ زملاء، أصدقاء، أقارب، جيران، الأمر لا يعدو أكثر من كونه زيفًا. نعم، هذه الحقيقة التي كشفتها الفاجعة التي مرت بها، وحدها الفواجع والكوارث الكبيرة تكشف معادن الناس.

قائمة هاتفها تقارب الخمسمائة رقم، وللأسف ليس بينها رقم واحد في استطاعتها أن تتّصل به لتخبره بما تشعر به، وبما تحتاج إليه. ليس هناك منهم أحد تستطيع أن تطلب منه أن يشاركها همومها، وتلقي برأسها المتعب فوق كتفه.

يقولون: علينا تصديق الفكرة الأولى لأنها وحدها تشبهنا، فماذا عن الشخص الوحيد الذي نهرع إليه عندما نشعر أننا في حاجة للبوح؟!

في هذا المساء عزفت مقطوعة الوداع رقم 45 لجوزيف هايدن. تحب هذه المقطوعة وكل مرة تعزفها تطفو معها ذكريات مبهجة. لقد اعتاد عازفو الأوركسترا عند عزفهم هذه السيمفونية أن يتركوا المسرح العازف تلو الاخر. وذلك تقليدا للموسيقار الذي لحنها خصيصا للأمير (نيكولاس استيرهاز). وهذا التقليد تعبير عن الاحتجاج على بقاء عازفي الأوركسترا في بيت الأمير الصيفي لفترة طويلة بعيدا عن عائلاتهم. الاحتجاج يظهر في الحركة الأخيرة، والتي كما العادة في أعماله تبدأ بإيقاع سريع ثم بطريقة مفاجئة تنقطع، ليبدأ جزء جديد بإيقاع أبطأ. ويعتبر الانتقال المفاجئ وتقسيم الحركة شكل غير معتاد في الموسيقي الكلاسيكية. في نهاية الجزء الثاني يقوم كل عازف بعزف فقرات صولو، على أن يستمروا في العزف حتى يتركوا المسرح الواحد بعد الآخر. ومنذ ذلك الوقت كلما عزفت هذه المقطوعة يغادر اعضاء الأوركسترا المسرح بنفس الطريقة. تذكرت اخر مرة عزفتها في مسرح برلين وخرجت على وقع تصفيق الجمهور الذي كان يحب كثيرا هذه النهاية.

- هل عيناك لوزيتان قاتمتان أم رماديتان؟

- وهل تمزح؟ هل هذا وقت ملائم لطرح مثل هذه الأسئلة؟!

- نعم، لأن هذا الأمر كثيرًا ما شغلني.

كان يريد أن يلطف الجو، أن يجعلها تستعيد هدوءها وسلامها النفسي اكثر فمن الواضح أنها فقدتهما بالرغم من محاولتها الظهور برباطة الجأش عن قبل.

- أشعر بالحزن، لأن التسجيل لا يعمل، فهذا الرجل ظُلم في حياته وبعد مماته. انهالت عليه الشائعات كما لم تنهل على أحد من قبل، ومن لاموه وعنفوه هم بنو جلدته أنفسهم من اليهود؛ لأنه انتهج الأفكار الإسلامية، ووصل بهم الأمر إلى اتهامه بأنه ألّف دينًا جديدًا وفق أهوائه وأفكاره التي يراها البعض ضالة. حتى كتبه زُيفت ودُسّت فيها أفكار ومقالات ليست له، للبخس من حقه.

توقف أمام جملتها الأخيرة: كتبه زُيفت. أليست مهمته هي معرفة أين ذهبت النسخة الأصلية من كتاب دلالة الحائرين؟!

- تقصدين أية كتب؟!

- كتابه (دلالة الحائرين) اتهم إبراهيم ابنه مترجم كتابه بأن ترجمته مشوهة وفاسدة، وتخالف ما جاء في كتاب والده، فكان رده بأن ترجمته من النسخة التي ترجمها مجموعة من الأحبار برئاسة العلامة سليمان أدرث، وعندما حاول الوصول إلى النسخة الأصلية لم يعثر عليها، فقد اختفت تمامًا.

- وتعتقدين أين ذهبت هذه المخطوطة؟

- لا أعلم.

- هل تعتقدين أنها دُفنت في مقابر الجينزا؟

- احتمال.

- ما الذي تعنينه باحتمال؟

كان أشبه بمحقق، وهو يلقي عليها الأسئلة. لقد فقد إلفته، وأخذ يؤدي مهمته التي هو هنا من أجلها.

- لماذا أشعر أنك تحقّق معي؟

انتبه إلى أنه تجرد من الدور الذي يتقمّصه، فاصطنع ابتسامة على وجهه:

- أبدًا، لكنه أمر مثير.

- ما المثير؟ أتقصد لقائي به أم اختفاء المخطوطة؟!

كان في سؤالها نبرة ثقة بما يفيد (ها قد صدقتني).

- دعينا نتحدث بصراحة، وأرجو ألّا يسبب كلامي لك ضيقًا.

هزت رأسها بما يعني موافقة.

- لقد مررت بتجربة سيئة في الفترة الأخيرة، وفي أحيان كثيرة يلجأ العقل البشري لخلق واقع مزيف كبديل عن واقعه المؤلم الذي يعيش فيه، وغالبًا يكون هذا الواقع المُتخيَّل مليئًا بالإثارة والدهشة ليستطيع معهما أن يهرب وينسى ما حدث له.

- تصوّر جميل جدًّا. من الواضح أنك تقرأ كثيرًا في كتب علم النفس والتنمية الذاتية.

- هذه هي الحقيقة.

- حسنًا، وما تفسيرك لهذا الطيف الأبيض الذي يبدو كدخان يتلاشى شيئًا فشيئًا، وهذا الأزيز الخفيف في التسجيل الصوتي الذي يبدو كالذبذبات التي نسمعها عند التقاط إذاعة أجنبية، والوثيقة التي لم أعثر عليها؟!

- بالنسبة للوثيقة ربما تكونين فقدتها في المعبد عندما ذهبت إلى هناك.

- بالرغم من أني واثقة من عدم حدوث ذلك، ولكني سأذهب غدًا للبحث عنها، وماذا عن التسجيلات؟

أشعل تبغه، ودخل في تفكير عميق، وفجأة برقت عيناه كمن عثر على فكرة. أمسك هاتفه وأجرى اتصالًا تحدث فيه بالألمانية، ولم تفهم أية كلمة مما قال.

انتظرت حتى أنهى مكالمته ليخبرها ما الذي حدث، ولكنه لم يتحدث. أشار للنادل بهدوء وطلب منه فنجانًا آخر من القهوة، ثم أخذ يدندن بأغنية بينما كانت تستشيط غيظًا.

- هل المكالمة التي أجريتها الآن لها علاقة بالتسجيل؟

- نعم.

- إذًا لماذا لم تخبرني ما الذي يحدث؟

- لأعوّدك على التحكّم في النفس الذي من الواضح أنك تفتقدينه تمامًا.

- وهل هذا وقت تدريبات على التحكّم في النفس؟! اسمع، أنا أعصابي لا تحتمل مثل هذه التصرفات والألعاب الصبيانية.

قالتها، وهي تأخذ حقيبتها وتستعد للذهاب. شدّها من يدها:

- انتظري، ما الذي حدث لكل هذا؟! كنت أمزح معك لأخلق جوًا لطيفًا بعيدًا عن هذا التوتر.

- وهل هذا وقت مزاح؟! عليّ أن أثبت أن ما حدث لي حقيقة، وليس جنونًا، وأنت تمزح!

ربّت على يدها، وبنبرة حنونة:

- سامحيني. هذا صديق لي مهندس يعمل في الإلكترونيات والشفرات وما إلى ذلك، ونلجأ له في الكثير من الأحيان لفك شفرات معقّدة، وقد حدّثته عن الأمر وسوف يساعدنا.

ضيّقت من حدقتي عينيها:

- لكن أيّة شفرات معقدة؟ ومن أنتم الذين تلجؤون إليه؟

وجّه إليها نظرة مباشرة ثابتة، كما لو أن مقلتيه تجمدتا كعادته في مثل هذه المواقف:

- أحيانًا أثناء عمليات البحث في المراكز العلمية، تقابلنا تسجيلات تالفة بفعل الزمن أو لعدم جودة التسجيل.

- نعم، فهمت.

نعم، هي فهمت. لقد أقنعها بكذبته، هذه الكذبة التي لفقها عقله سريعًا، وحاول أن يكون ثابت المراس عندما يتحدث بها. لم يكن الأمر صعبًا بالنسبة إليه، لم يتحمحم أو يزغ بصره أو يظهر على وجهه تعبيرات مرتبكة، فقد تدرب على ذلك واستخدمه مرارًا وتكرارًا.

- طلب إليّ أن أرسل له التسجيل، يمكنك أن ترسليه لي لأرسله إليه.

- أرسل لي بريده الالكتروني، وأنا أرسله مباشرة.

مرة أخرى بدون قصد منها توقعه في فخ، وبخبرته المحنكة يخرج منه:

- ليس من عاداته استقبال ملفات من أشخاص لا يعرفهم، كما أني أخبرته أن هذا العمل تابع للمركز ليوافق.

ساد صمت، كلّ منهما انشغل بأفكاره، يفكر في التقرير الذي عليه إرساله لرئيسه، وتفكر في سبب اهتمامه بأن يساعدها، أتراه صدقها؟

كان عليه أن يحصل منها على أي شيء مفيد يوافيه في تقريره، حاول أن يفعل ذلك دون أن تشك، فبدل من نبرة صوته:

- الذي أستغربه حقًّا أن النسخة المتداولة فيها تزوير، ولكن لماذا لا تبحثون في مقابر الجينزا، ربما النسخة الأصلية دُفنت فيها؟

- لا نستطيع؛ لأن هناك تلالًا من الوثائق والأوراق، وحتى لو أنّ هذه النسخة دُفنت هناك، فمن المؤكد أنه أصابها التلف. إلقاؤها من خلال فتحة ضيقة أعلى الحائط بطريقة عشوائية غير منظمة وغير مرتبة سيؤدي حتما لتجزئتها إلى كسرات يصعب الإلمام بمحتواها.

عندما تأكد أنها لم تشك في شيء واصل استدراجها:

- وما أهم الوثائق التي عثرتم عليها؟

- الكثير من الوثائق التي تؤكد نية اليهود في تأسيس وطن لهم، بالرغم من التفاوت الكبير في التواريخ هناك وثائق ترجع إلى القرن الخامس حتى القرن التاسع عشر، وجميعها تدعو لجمع الشتات في أرض واحدة.

- أتعلمين أن التمكن الأول لليهود في العيش في فلسطين كان الفضل فيه لصلاح الدين الأيوبي؟! بعد طرده الصليبيين من القدس سمح لليهود بالتوطّن هناك.

- لقد تحدثت معه بخصوص ذلك.

- مع من؟

- مع موسى.

ابتسم وظهرت على ملامحه السخرية، رمته بنظرة حادة فتبدلت ملامحه للجدية:

- أخبرته بأن أكبر تهمة وُجهت لصلاح الدين هي السماح بتوطين اليهود في القدس، وأنه كان وراء ذلك الاقتراح.

- وبمَ أجابك؟

- سخر مني أو بالأحرى سخر ممن لفق هذه التهم التي يراها ساذجة وتافهة، لأن صلاح الدين لم يكن من هذا النوع من الرجال الذي بإمكان أحد أن يؤثر عليه أو يقنعه بشيء.

- أعتقد أن الأمر ليس فقط لأن صلاح الدين لا يأخذ برأي أحد، ولكن في هذا التوقيت بالذات لم تكن هناك تلك الفرقة والإيديولوجيا، ولم يكن اليهود يثيرون كل هذه الكراهية. المجتمعات العربية كانت تتقبلهم وتتخذهم جيرانًا وأصدقاء. والدليل على ذلك أن صلاح الدين الأيوبي اتخذ اليهودي ليكون طبيبه ومستشاره الخاص.

- نعم، هذا حقيقي، وكان من الممكن أن تسير الأمور على ذلك النهج، لولا قيام الكيان الصهيوني القبيح.

- باعتقادك ما الذي أدّى لقيام هذا الكيان الصهيوني القبيح؟ أليس ما تعرض له اليهود من ذل ومهانة واستعباد واستبعاد؟!

- لا تتحدث عن ذل ومهانة و.. و...، فمنذ الأزل وهم يحيكون المكائد، ويدبرون الخطط. اليوم هم ينددون بالهولوكست والجرم الذي اقترفه هتلر، وما فعلوه في الفلسطينيين أليس هولوكست أيضًا؟! هل يأخذون ثأرهم من أطفال ونساء وشيوخ ابرياء؟!

- لا أفهمك حقًّا! لماذا تعمّمين؟!

- أنا التي لا أفهم مبررات دفاعك عن هذا الكيان المحتل، الذي يقتل ويدمر. أيعقل أن تتعاطف معهم بعد كل تلك المجازر التي ارتكبوها في حق أبرياء؟!

مظهره الذي كان يعكس الهدوء بدا عصبيًّا ومتوترًا، استغربت عندما لاحظت ذلك:

- ما بكَ؟! بدأت أشك أنك يهودي.

قالتها، وهي تضحك، فلم يكن منه إلّا أن يبادلها الضحك. ودعته وذهبت بعدما اتفقا على إمداد كل منهما للآخر بالمستجدات.

بقي مكانه مشوش التفكير، مرتبكًا، كيف كان سيفضح نفسه بهذه السهولة؟! هو الذي كان دائمًا منضبط النفس متحكمًا في انفعالاته، ولكن معها بدا الأمر مختلفًا، كان يريد أن يقنعها بوجهة نظره، ويبدل رأيها عن بني جلدته. أية حماقة هذه!

سهر لوقت متأخر يكتب تقريرًا مفصلًا لرئيسه، وبالطبع لم يأتِ فيه على ذكر أية هلوسات مما أخبرته به. أطفأ سيجاره بعصبية في المطفأة، وهو يقنع نفسه أنه ليس هناك من داعٍ، فهو يفهمه جيدًا، ومتأكد أنه سيترك كل شيء ويتشبث بهذه المعلومة، وسيظل يواصل بحثه عنها، ولأنه لم يقترب منها كما اقترب هو، ولم يشعر بها كما شعر، فلن يفهم الظروف التي أوصلتها إلى ذلك.

كانت قد قاربت الظهيرة عندما استيقظ في اليوم التالي، وجد على هاتفه رسالة تخبره فيها أن جميع محاولاتها لنقل التسجيل وإرساله باءت بالفشل، وأنها في طريقها إلى المعبد لتبحث عن الوثيقة.

64
ذات العظام اليابسة

بعد حفل أم كلثوم دعتني لاستكمال السهرة في منزلها، كان منزلًا بسيطًا يشبهها.، أريكة مبطنة من المخمل الأحمر، طاولة منخفضة عنها، إضاءة خافتة، وموسيقى.. أحضرت زجاجة شمبانيا من النوع الفرنسي الفاخر، سألتها ونحن نتجرع كأسًا بعد أخرى:

- مؤكد أنها كلفتك الكثير!

ضحكت بسخرية:

- من الواضح أنك نسيت أن وظيفتي هي تجفيف كؤوس الشمبانيا. تذكر جيدًا، ليس تقديمها أو جمع الكؤوس الفارغة، وظيفتي أنبل وأرفع من كل ذلك، فأنا أجفف الكؤوس، وكما يقولون: مجفف كؤوس الشمبانيا عليه أن يتذوقها.

كانت تتحدث، وهي شبه مترنحة بفعل جرعات الشمبانيا التي تجرعتها تباعًا ودفعة واحدة.

اقتربت مني، وضعت رأسها فوق كتفي، وتشبّثت بذراعي، رفعت عينيها إليّ؛ كانت فيهما تلك النظرة التي حركت كل شيء بداخلي، وبنبرة أقرب إلى التوسل.

- أنا في حاجة إليك، لا تتركني.

ضممتها إليّ أكثر:

- لماذا تقولين هذا؟

- لأني أعلم أنك عاجلا أو آجلا ستتركني وتذهب، وسأبقى وحيدة. هل ستصدقني لو أخبرتك أن ليس لي أحد سواك؟ أنا أكره الجميع، جميعهم دون استثناء كانوا سببًا في قتل زوجي. هؤلاء الذين خرجوا يطالبون الجيش أن يشارك في الحرب، وظلوا يضغطون عليه أكثر وأكثر حتى أعلن النفير العام، وأخذ في استدعاء المجندين السابقين، وكان زوجي واحدًا منهم.

كان في زمن سابق جنديًا مجرد المكوث في معسكر لتأدية ما يسمى بالخدمة العسكرية، ولكنه لم يمسك خلالها سلاحًا أبدًا، فكيف يزجون به في حرب؟! أحيانًا كثيرة أشعر بالتشفي منهم، وبأن هذه الهزيمة التي ألحقها بهم الصهاينة كانوا يستحقونها.

شعرت بالاطمئنان عندما قالت ذلك. كنت واقعًا في هواها، ومن حين لآخر كان يتملكني شعور لأصارحها بحقيقتي. أبدًا، الأمر ليس سذاجة مني إنه أكثر من ذلك بكثير، إنه الحاجة للاعتراف للشخص الذي تحبه بحقيقتك، مهما كانت هذه الحقيقة، وعليه وقتها الاختيار ما بين الاستمرار معك أو الابتعاد عنك.

- إذًا، تعالي معي.

ما بين اليقظة والخدر سألتني:

- إلى أين؟

- إلى إسرائيل.

انتفضت من خدرها:

- هل ستذهب..؟ هل كنت سترحل دون وداعي؟.. أيّ عذاب هذا الذي كنت تعده لي..؟! أنت مثلهم، لا تختلف عنهم في شيء.

أجهشت بالبكاء، ضممتها إليّ، شعرت وقتها أني أضم طائرًا منهكًا وضعيفًا، كنت أستطيع أن أحصي عظام جسدها البارزة، كانت حقًّا كما يقولون جلدًا على عظم.

ثم انتشلت نفسها مني:

- أنا لا أفهم شيئًا.. لم أعد أفهمك. من أنت؟ وماذا تريد مني؟ لفرط ما أنت لغز بالنسبة إليّ، أحيانًا أتساءل: هل أنت موجود حقًّا أم مجرد سراب متولد من حالة الوحدة القصوى التي أمر بها؟!

ضممتها إليّ أكثر، وربّت على ظهرها بحنان:

- ماذا يمكنني أن أفعل لتطمئني؟

طرحت السؤال بصوت عذب لأدخل الاطمئنان إلى قلبها، وكنت أعني ذلك، ولم أكن أدعيه في منتصف هذه الليلة الباردة من هذا الشتاء.

ثم قامت وخلعت فستان السهرة الذي ترتديه، كانت ترتدي تحته كنزة صوفية، تحتها كنزة أخرى، ثم خلعت قورنلة الفستان السلك الذي ترتدي أسفله لتمنحه منظرًا منفوشًا كالطاووس. خلعت ذلك كله، وبقيت أمامي بقميصها الداخلي.

لم أصدق ما رأته عيناي، كان بإمكاني أن أحصي عظامها البارزة من تحت جلدها الخفيف. كان بإمكاني أن أرى عروقها، لم تكن جلدًا على عظم، بل كانت عظمًا على عظم. كانت تتدثر بالكثير من الملابس الصوفية الثقيلة والتنورات الواسعة المنفوشة، حتى تخفي نحافتها المفرطة، حتى تخفي عظامها، حتى تخفي عاهتها.

- والآن كيف تراني؟ شبح امرأة. صحيح، هم من فعلوا بي ذلك.

ذهبت إلى كمودينو موضوع في زاوية من زوايا الصالة، فتحت أحد الأدراج، مدت يدها والتقطت صورة من ألبوم الصور، وأخذت تتأملها:

- كنت في السابق امرأة جميلة، ممتلئة بالأنوثة. انظر كيف كنت؟!

لم أصدق حقًّا أنها هي. من الواضح أنها فقدت أكثر من خمسين كيلو جرامًا من وزنها. كانت تبدو مثيرة القوام في لباس بحر مقلم من الأبيض والأسود، تستلقي على الرمل، ويجاورها رجل في منتصف العمر تقريبًا.

أخذت مني الصورة، وتأملتها كأنها تراها للمرة الأولى:

- لم نكن يومًا سعداء مثل سعادتنا في تلك اللحظات، كنا ننزل إلى البحر، ثم نخرج ونبحث عن مساحة صغيرة حرة لكي نتمدد فيها. رواد الشاطئ يشاركوننا سعادتنا، أطفال من حولنا يبنون القصور الرملية، الباعة الجوالون يتخطون الأجساد ببضاعتهم من صناديق الفريسكا والآيس كريم. يومها لمح سعادتنا مصور الشاطئ، اقترب منّا مرددًا (صورة.. صورة)، بصوت واحد أجبناه (نعم).

ليتني يومها قلت (لا) أو كنت أدرت وجهي للاتجاه الآخر، ولكنه فعلها. فعلها ليشعرني بفداحة ما أنا فيه الآن. هذه الصورة هي دليل قاطع بأنني كنت سعيدة في هذا اليوم الحار من شهر أغسطس.

وضعت الصورة مكانها، ثم أشارت إلى الباب: والآن يمكنك الرحيل.

- لكني لا أريد أن أرحل. سأبقى معك لأبد الدهر، سآخذك معي إلى إسرائيل، هناك حيث ينتظرنا مستقبل مشرق.

- كيف يمكنك أن تأخذني للعيش في الأرض التي قتل زوجي، وهو يدافع عنها ضد مغتصبيها؟! كيف يمكنني أن أعيش وسط من قتلوه؟!

- لا يا عزيزتي، من قتل زوجك هم من قادوه إلى الحرب، من قادوه إلى حتفه.

ضحكت بسخرية:

- وأي مستقبل مشرق هذا الذي ينتظرنا في بلد لم يعمر بعد؟! وما الذي سوف تعمله هناك؟ أعامل بناء أم مزارع؟!

- لا.. لا، الأمر ليس كذلك أبدًا، هناك الكثير من الأمور تجهلينها... سأخبرك بها في الوقت المناسب.

- أي وقت مناسب؟ وكيف تضمن أنه سيأتي الوقت المناسب؟ ربما لن نلتقي مجددًا. خرج زوجي يومها، وهو يعدني بأنه سيأتي ولم يأتِ أبدًا! أريد أن أعرف الآن ما السر الذي تخبئه عني؟ هل في حياتك امرأة أخرى؟!

بصوت متهدج كأني أحاول أن أبرئ نفسي من إثم كبير:

- ليس هناك امرأة، لم تدخل أية امرأة حياتي سواك.

كيف تبدلت هكذا وقتها الأدوار؟! أنا عزرا كوهين، لطالما كنت القوي المهيمن المسيطر، أصبح هكذا بين يدي هذه المرأة الضعيف المسلوب! كيف استطاعت ذات العظام اليابسة أن تمسك هي اللجام؟!

هزمتني عاطفتي. لم أخفِ شيئًا، لم أحتفظ لنفسي بشيء، كدفق محصور حان له أن يتحرر.

كانت تستمع لي دون أي اندهاش، عيناها متسمرتان على وجهي، وملامحها متيبسة كمن رأى شبحًا أمامه. انتظرت حتى أنهيت حديثي وأخذت تسألني أسئلة غريبة، لم أتصور لفرط ثقتي بها، أو ربما لفرط غبائي أنها تستدرجني في الكلام.

كان تركيزها منصبًّا على خلية الجاسوسية، حاولت أن تحصل مني على معلومات دقيقة عنها، كيف لم أشك فيها، وهي تسألني بصوتها المبحوح عن عدد أفرادها وأسمائهم؟! متي وأين نلتقي؟! ما هي العمليات التي قمنا بها، وما العمليات التي سوف نقوم بها؟!

وأخبرتها بكل شيء، أخبرتها عن شفرة مورس، عن الجهاز الذي أخبئه في الدور المسحور، استرسلت في الكلام دون حذر من شيء، بعدها أيقنت أن من يهزم جبروت وقوة الرجال ليس عدوًا أقوى منه، إنه الحب.

عشق أنطونيو كليوباترا أدّى لهزيمته وسقوط إمبراطوريته. حب بونابرت لجوزفين جعله بائسًا مريضًا، وخيانتها كانت أحد أسباب هزيمته في حملته على مصر والشام. عشق هتلر لإيفلين جعل خططه الحربية في نهاية الحرب ضعيفة منهكة مترددة. وأنا من أكون مقارنة بهؤلاء حتى لا يهزمني الحب ويقضي عليّ؟! نعم، لقد قُضي عليّ بسبب الحب.

بعد أن أنهيت حديثي:

- والآن حكيت لك عن كل شيء، وهذه المعلومات في غاية الخطورة؛ لذا أرجو منك...

وضعت يدها فوق فمي وقالت:

- نحن الوحيدان من الآن فصاعدًا اللذان يعرفان هذا السر.

فاطمأنّ قلبي وقلت: كوني على ثقة بأنه ينتظرنا هناك كل ما هو جميل. وعدني القادة بوظيفة قيادية مهمة، وبراتب كبير، ومنحوني بيتًا كبيرًا بحديقة.

- يا لهم من كرماء!

أخبرتها بثقة وفخر:

- هذا أبسط شيء يقدمونه لي، فقد تم تكوين الوطن على ساعدي.

بقيت صامتة.

- والآن ماذا قلت؟ هل ستأتين معي؟

- متى تنوي الرحيل؟!

- في أسرع وقت، وجودي هنا أصبح يمثل خطورة كبيرة عليّ.

- وكيف أذهب معك؟ لن يسمحوا لي بالتأكيد.

ضحكت بسخرية.

- اتركي ذلك لي. سوف أرتب لك أوراق هوية يهودية. كل ما عليك هو أن تجهزي نفسك، ربما نستقل قطار منتصف الليل (القنطرة - تل أبيب) الأسبوع القادم على الأكثر.

كانت شاردة. فكرت أنها بالتأكيد تفكر في عرضي، وكنت وقتها على يقين أنها ستقبل، فهي تحبني وهي وحيدة ولا تشعر بالأمان في هذه الأرض.

65

صوت قادم من زمن آخر

ارتاب فيها رجل الأمن هذه المرة، لم يمر على زيارتها إلى المعبد 48 ساعة، وها هي واقفة أمامه مجددًا تطلب الدخول.

رماها بنظرة غريبة.

- لقد فقدت أشياء مهمة، وأعتقد أنها هنا في السرداب.

- حسنًا، سأصطحبك.

- ويا ليتك تجلب معك كشاف ضوء لأن المكان مظلم.

كان الدرج متهالكًا جدًّا، فانتظر حتى هبطت، ولحق بها حفاظًا على سلامتهما. إنارة الكشاف القوية استطاعت أن تضيء المكان كله. عندما دخلت استرجعت كل شيء، كل شيء كان يدور في عقلها كمشاهد من فيلم، قشعريرة سرت في بدنها، صدى صوته يعبرها، ورائحة الورق والحبر والبخور.

تأملت الجدار، كان طلاؤه متقشرًا، تليه طبقة متهدمة من الحجارة، ومن تحته طبقة أخرى وأخرى، ومثل الطبقات المتعاقبة من الحجارة كان ذلك المكان يحرك فيها ذكريات أبعد من الزمن، أبعد من الزمن بكثير.

تطلع الحارس حوله في أرجاء المكان، ثم بلهجة غير مريحة بعدما وجدها متيبسة في أفكارها وزائغة ببصرها في آفاق بعيدة، ولم تحاول أن تنظر حولها لتعثر على ما فقدته:

- لا أثر لشيء هنا.

سلط كشافه على البئر وانحنى ينظر فيه:

- ولا يوجد شيء هنا أيضًا، ثم إنك لم تخبريني ما الذي فقدته؟

- أوراق مهمة.

فتح ذراعيه على وسعهما كأنه يطوق المكان:

- ليس هناك شيء يا أستاذة، والآن هل يمكنك الانصراف؟ فهذا المكان ممنوع دخوله لأيٍّ كان، وبهذه الطريقة ستعرضينني للعقاب.

عندما صعدا إلى الأعلى سألته بعدما وضعت في جيب معطفه مبلغًا ماليًّا.

- منذ متى وأنت حارس هنا؟

- منذ عدة سنوات أتناوب على حراسته أنا وزميل لي.

- هل لاحظت شيئًا غريبًا خلال هذه الفترة؟

- ماذا تقصدين بشيء غريب؟

يقولون إن هذه الأماكن الأثرية القديمة ربما تكون مسكونة بأرواح أو أشياء من هذا القبيل.

- غريبة أنت! الأستاذة المتعلمة ترددين ما يقوله بعض الجهلة، على أي حال طوال فترة حراستي للمعبد لم يصادف أن حدث شيء من ذلك.

- وما الذي يقولونه؟

- أبدًا، يرددون شائعات بأنهم يسمعون أصواتًا، ويرون ظل رجل يتجول في المكان، مؤكد هذه الشائعات قد راجت منذ كان هذا السرداب يُستخدم للشفاء من الأمراض. أعجبت اليهود هذه

الفكرة، وأخذوا في ترديدها ليظهروا أن رئيسهم الذي كان يقيم هنا ذو أهمية كبيرة وله كرامات. إنها عادة اليهود، ألم تسمعي الشائعات التي رددوها مؤخرًا بأنهم أصحاب الحضارة الفرعونية، وهم من بنوا الهرم؟!

تركته وذهبت، وهي تتساءل هل حقًّا هي مجرد شائعات؟!

بخروجها من المكان التقط هاتفها الشبكة، فتلقت اتصالًا على الفور:

- حاولت الاتصال بك كثيرًا، لكن هاتفك كان خارج الخدمة.

- كنت في السرداب أبحث عن الوثيقة، وهناك لا توجد تغطية للهاتف.

- هل وجدتها؟

- لا، بحثت جيدًا أنا والحارس الذي أكد لي أنه لم يدخل أحد المكان منذ زيارتي له؟

بعد برهة من الصمت:

- هل تودين أن نلتقي؟

- أريد أن أكون لوحدي، أشعر بتشوش.

صفت سيارتها، وأخذت تتجول سيرًا على الأقدام على ضفاف النهر، وتفكر:

- هل يمكن أن يكون كلام أديب حقيقيًّا؟! هل أحاول الهروب من واقعي برسم واقع مختلف أكثر إثارة؟! لكن كيف، وأنا واثقة تمامًا أني قابلت هذا الرجل، ولكن أي عقل يمكنه استيعاب وتصديق ذلك!

أتكون حالة من حالات الانفصام، وفيها يكون بمقدرة الشخص أن يؤدي دورين في الحياة، وينتقل بين شخصيته الحقيقية وتلك المزيفة التي لطالما حلم أن يعيشها في عقله الباطن، ولكن لو كان هذا ما حدث، فما تفسير اختفاء الوثيقة وتلف التسجيلات على هاتفي؟!

أمسكت رأسها بيدها، وصاحت:

- يا الله! أكاد أجن.

سيدة عجوز تبيع الزهور، مدت لها يدها بزهرة حمراء، تمتمت بينها وبين نفسها:

- هذا آخر ما ينقصني. ليس وقت زهور أبدًا.

- دائمًا هو وقت الزهور عزيزتي.

عندما نظرت إليها شعرت بالسكينة من تلك النظرة التي رمقتها بها، رفضت أن تمد يديها وتأخذ المال:

- اعتبريها هدية مني.

اقتربت منها، ضمتها، ربتت المرأة على ظهرها بحنان، وهي تدعو لها قائلة: (ربنا يصلح حالك).

- كم أنا في حاجة لهذه الدعوة!

راقبتها، وهي تغادر بظهر منحنٍ وبخطوات بطيئة، وفكرت من أين لها بهذه الطاقة الإيجابية؟! في الوقت الذي كان من المفترض أن تمنحها هي هذه الطاقة، لكن للأسف كانت منكسرة، مهزومة. نعم، هزمتها الحياة في معركتها معها، وها هي قاب قوسين أو أدنى من الجنون.

في تلك الليلة ضمت ابنتها إليها وباتت برفقتها، كانت مشغولة البال والفكر عليها، ماذا لو كانت مريضة فعلًا، وتطور هذا المرض إلى حد أن تودع في مصحة؟ ما مصير ابنتها وقتها؟!

كل يوم كان يمر عليها لم يكن يبعد بينها وبين ما حدث، بل كان يقربها منه أكثر، كل يوم كان يجعلها تفقد الثقة في نفسها، كيف يمكن أن تصدق أنّ هذا الرجل قد عاد بعد أن تلاشت آثاره وأن يظهر مرة أخرى من العدم؟! حتى الإثبات الوحيد الذي تملكه، التسجيل على هاتفها تبدو صورته فيه كطيف لا قوام له، دخان لا يكثف أبدًا.

بعد لقائه معها المرة الأخيرة شعر بأنها غير طبيعية، تبدو مذهولة من أمر ما، متقوقعة داخل نفسها، مشتتة مبعثرة. لم يذكر أنه سمعها تتحدث بجملة واحدة مفيدة، وفجأة اعتذرت بأنها تريد

الذهاب، فاتخذ قراره بمساعدتها، هو يؤمن بنسبة 99 في المائة أن ما أخبرته به مجرد وهم اخترعه عقلها، ولكن الواحد في المائة الباقية يحتم علينا أن نبحث فيها.

اتصل بزميله، وطلب إليه أن يأتي إلى مصر في مهمة عمل سريعة وسرية، وطلب إليه ألّا يطلع عليها أحدًا، وسيتكفل هو بمصاريفه كافّة.

بعد أن تأكد من موعد قدومه اتصل ليخبرها، انتابها شعور بالقلق، وهي الممتلئة بالحماس لمعرفة الحقيقة، ولكن ماذا لو كانت هذه التسجيلات التي تكمن فيها نجاتها لا وجود لها؟! كيف يمكنها أن تواجه هذا الأمر؟!

في غرفته بالفندق اجتمعوا ثلاثتهم، كانت تعتقد أنها سوف تقابل برفيسورًا في علم الإلكترونيات في العقد الرابع أو الخامس من العمر على أقل تقدير بنظارة طبية وبملامح صارمة ونبرة جادة، لكنه لم يتجاوز الخامسة والثلاثين، يرتدي ملابس كاجوال، ويجمع شعره الأشقر في ذيل حصان بشريطة من ألوان قوس قزح، ويضع قرطًا في أحد أذنيه، وعلى ذراعيه وشم لطائر مجنح. أبدًا، لم يكن مظهره يوحي بأنه خبير في الإلكترونيات أو خبير في أي شيء إلا عندما فتح حقيبة معداته، كانت تبدو حقيبة عادية، ولكنها مقسمة لأدراج بعضها فوق الآخر، تحتوي على أجهزة وأدوات دقيقة جدًّا.

لاحظ أديب الدهشة على وجهها، وليدهشها أكثر أخبرها:

- هذه الحقيبة تساوي ملايين الدولارات!

- مظهره لا يوحي بذلك أبدًا.

بالرغم من أنها كانت تعلم أنه لا يفهم العربية إلا أنها خفضت من صوتها.

- إنه واحد من بين خمسة أو ستة من أذكى وأمهر خبراء الإلكترونيات في العالم.

مؤكد أن علاقتك به قوية جدًّا ليوافق أن يقدم لنا هذه الخدمة المجانية.

من الجيد وقتها أنه كان يدير لها ظهره يصب كأسًا، وإلا كانت ستلمح ابتسامته الساخرة. هذه الخدمة المجانية التي تتحدث عنها كلفته الكثير، فالخبير الذي لا يشي مظهره بأي شيء من الخبرة لم

يوافق على المجيء إلا عندما تأكد من دخول المال في حسابه البنكي. كان بإمكانه أن يضيف تكلفة هذه الخدمة على حساب المنظمة لتدفعها هي، ولكنه لم يفعل ذلك لأن وقتها كان عليه إخبارهم بكل شيء، ومعرفتهم بذلك كانت ستعرض حياتها للخطر. (يا لك من ذي قلب عطوف أيها الجاسوس!) قالها في سره، وهو يرفع كأسه ويشرب نخب ذلك، نخب قلبه العطوف.

أوصل التسجيلات بأجهزته، وأخذ ينصت ويشاهد ويدقق ويسجل، وكانت تراقبه وهو يعمل في صمت وبدقة متناهية، وحدها ملامح وجهه كانت تعبر عما يدور.

كانوا يجلسون مقابل بعضهم الآخر، على ضوء خافت يتبادلون النظرات من وقت لآخر في جو يسوده الارتباك والترقب، وبعد مرور ما يقرب من الساعتين، خلع السماعات وتحدث، وعلى وجهه تعابير إحباط ويأس شديدين.

- في الحقيقة هذه أول مرة يصادفني عمل مرهق وغريب بهذا الشكل.

رمقها بنظرة شك:

- هل يمكنك أن تخبريني بأمر هذه التسجيلات التي على هاتفك؟

تبادلت النظرات هي وأديب الذي لاحظ ارتباكها، فناب عنها بالرد:

- هذه تسجيلات قام زوجها بتسجيلها لها قبل وفاته، وفيها أشياء مهمة.

- للأسف لم أستطع التوصل لأي شيء مفيد، ولا أعرف ما السبب في ذلك، خاصة أن التسجيل غير تالف، فالأجهزة لم ترصد لي أي تلف. كل ما توصلت إليه صوت لرجل يكرر العبارة نفسها بوتيرة واحدة، ولكني لم أستطع التقاط الكلمات.

ضغط على زر:

- أنصتوا.

خرج الصوت مجسمًا من الأجهزة، وشيش طاغٍ يتخلله صرير وأنفاس مختنقة، وبين الحين والآخر صوت رجل يكرر الجملة نفسها كجزء في أسطوانة مشروخة، أصوات تتداخل مع هذا

الصوت، أصوات تأتي من بعيد كما لو أنها أحاديث تدور بين أناس من عوالم أخرى، عوالم بعيدة، عوالم ما وراء الزمن.

- في الحقيقة لا أجد أي تفسير، يبدو الأمر كما لو أنها أصوات قادمة من عالم آخر.

اتسعت عيناها دهشة، وكانت ستهم أن تقول شيئًا، فلحق بها أديب:

- ربما بعثها لها زوجها من العالم الآخر.

- في هذه الحالة فأنتم تحتاجون إلى فرقة الكشف عن الأرواح، وليس لي.

قالها وهو يضحك، وبادله أديب الضحك. بينما شعرت هي بقلق وغبطة في آن. هذا دليل أن ما حدث لها حقيقة وليس وهمًا، هناك صوت رجل في التسجيل، رجل يكرر الجملة المبهمة نفسها، رجل قادم من عالم آخر.

سألته في صوت متردد:

- وبالنسبة للفيديو.

- الأمر أسوأ من التسجيل الصوتي، على الأقل هنا استطعنا أن نسمع صوتًا، ولكن في الفيديو لا شيء سوى تكاثف من حين لآخر لهذا الشكل الذي يبدو كطيف يرتدي البياض.

قام بتوصيل الصورة على شاشة، ومن ثم قام بتكبيرها ليظهر شكل، ولكنه غير واضح تمامًا.

- أعتذر لأني لم أستطع أن أساعدك، ولكن الأمر في غاية الصعوبة.

ابتسمت له شاكرة، وهي تقر بينها وبين نفسها بأنه ساعدها، فقد أثبت بأن هناك شيئًا ما في التسجيلات، وهذا يكفي. أما ما أخبرها به الحبر موسى، فهو مسجل في عقلها بجودة عالية.

جمع الخبير أدواته، وصافحها مودعًا، اصطحبه أديب إلى المصعد، وهما في طريقهما كانا يتحدثان بالألمانية التي لا تفهمها.

كانت مرهقة، تمددت على الشيزلونج، وأغمضت عينيها، أخيرًا شعرت باطمئنان وراحة، استسلمت لغفوة سريعة، أفاقت منها لتجده يجلس أمامها على حافة الفراش يتأملها.

دارت بعينيها في أنحاء المكان كمن تحاول أن تتذكر أين هي؟ وما الذي حدث في اللحظات الأخيرة؟ وعندما تذكرت شعرت بسعادة عندما ترددت عبارة الرجل في أذنها (وكأنه صوت قادم من زمن آخر).

وبنبرة أقرب إلى الهمس:

- الآن هل صدقتني؟

- نعم.

- أتعلم أنني في الأيام الماضية كان سيصيبني الجنون بمجرد التفكير في أن ما حدث لي كان من اختلاق عقلي؟

- نعم، لاحظت. وهذا هو السبب الذي دفعني إلى أن أطلب منه أن يحضر لنتأكد من الأمر، وتطمئني.

أخبرها بذلك بصوت خفيض يشوبه الحنان.

- ولكن ما السر في اهتمامك؟

66

إلى الذين يحبون الجاز

الإضاءة الخافتة في الغرفة، والموسيقا الهادئة التي تبثها إذاعة الفندق الداخلية، وهذه النظرة في عينيه التي كانت تضم كل شيء فيها دون أن تضمها فعليًّا. كان كل شيء دافئًا من حولها.

- لأنك لجأت إليّ، وأنا لن أخذل أبدًا من يلجأ لي.

هزت رأسها:

- يا له من رد!

- من الواضح أنه لم يعجبك، حسنًا، ما الذي تريدين أن أخبرك به؟! هل لو قلت لك إني واقع في حبك، فستصدقينني؟!

- لا.

- لذلك لم أقلها.

تحدثت بصوت خفيض، وهي ساهمة في شيء ما، كلحن متلاشٍ في حلم بعيد:

- في الخامسة عشرة من عمري ربطتني علاقة قوية بأبي، علاقة صداقة قائمة على حب كبير واحترام، كنت أفضي له بجميع أسراري، وأهرع إليه عندما أقع في مشكلة، من المفترض في هذا العمر أن تلجأ البنت لأمها، ولكني كنت عكسهن.

في أحد الأيام بعدما قام بتوصيلي إلى المدرسة ودعته وذهبت، كنت في طريقي عندما تذكرت أني نسيت كيس طعامي، ركضت لعلني ألحق به، ثم وجدت سيارته مرصوفة في الاتجاه الآخر من الطريق، اقتربت لأجده في وضع حميم مع معلمتي.

وقتها تبدل كل شيء.. في نظري، كل شيء انهار كجرف، المعتقدات التي طالما بثها في عقلي عن الخير والشر، عن الحلال والحرام، عمّا يجوز وعن المنهيّ عنه.

لم أحدثه في الأمر، ولم أذعن لما حاول أن يخبرني به من ادعاءات كاذبة، بأنها مجرد نزوة ولن تتكرر، وأنها كانت تطارده ولم يستطع الفكاك منها، وكلام تافه عن أزمة الرجال في منتصف العمر التي لم يستوعبها عقلي وقتها بالتأكيد.

حاولت أن أؤذيه كما آذاني، تمردت على ما حاول في عمره أن يعلمه لي. كذبت، وخدعت، وظلمت، وقسوت، صادقت من كان دومًا ينبهني إلى عدم مصادقتهم، الشلة الأكثر فسادًا في النادي، وجربت معهم كل شيء.

وفي أحد الأيام كنت عائدة في وقت متأخر من الليل، ورائحة الدخان تعبئني، عنفتني أمي وقامت بصفعي، فصرخت فيها:(أكرهك.. أكرهكم جميعًا)، فردت عليّ: (أعلم أنك أنانية، وتكرهيننا جميعًا، ولا تحبين إلا نفسك، أخبريني شيئًا أجهله).

وعلى أثر الصفعة وبصوت مخنوق ومن بين دموعي، وأنا أضع يدي على مكان الصفعة:

- حسنًا، تريدين شيئًا تجهلينه، لديه عشيقة، إنه يخونك.

لم تبدِ أي رد فعل، واصلت بذات النبرة: (لم أطلب منك أن تخبريني شيئًا أجهله عني، بل عنك أنت). تركتها وركضت إلى غرفتي.

استيقظت يملؤني الشعور بالذنب راسمة في عقلي عدة سيناريوهات، ستكون جمعت ملابسها وذهبت إلى بيت جدتي، ستطلب الطلاق، وعلى أقل تقدير سأجدها قد تشاجرت معه، وربما تكون قد جرحته بأظافرها الطويلة، ولكن ما حدث كان عكس ذلك، في صباح ذلك اليوم كانت أكثر تألقًا وفي كامل أناقتها، تقف في المطبخ تعد الفطور قبل خروجها للعمل، قدمت لأبي طبق الأومليت

الخاص به، وضعته أمامه، وهي تخبره بالإضافات التي تحبها (جبن وفلفل وطماطم)، ثم ناولتني طبقي، وهي تقول هذا لك دون إضافات كما تفضلينه، والابتسامة نفسها على وجهها.

بعدها بعدة أيام كنت في غرفتي أكتب فروضي، دخلت ومعها سلة تجمع فيها الملابس المتسخة، ودون أن تنظر لي وكأنها تتحدث إلى نفسها: نعم، أعلم.. أعلم أنه يخونني، وماذا بعد؟! ماذا تريدين أن أفعل؟ هل أطلب الطلاق؟

ثم نظرت إليّ وبلهجة حادة:

- لن أفعل ذلك. هذا ليس عدلًا، لأنني أعمل جاهدة حتى أحافظ على ترابط هذه العائلة لنكون عائلة سعيدة، لا أستحق أن أخسر كل شيء لمجرد أن والدك لا يمكنه التحكم في شهواته.

ثم أخذت في البكاء، ومن بين دموعها قالت في تحدٍّ:

- اتفقنا، لا أستحق أن أخسر، لأني لم أقترف أي خطأ.

وقتها كنت أصغر من أن أستوعب ما قالته، ولكن مع مرور الوقت فهمت حقيقة الأمر، فهمت كيف بإمكان المرأة أن تتحمل، أن تضحي، حتى لا تهد كيان أسرتها، هذا الكيان الذي صنعته من صميم روحها وقلبها.

أخذها هذا الحديث إلى بعيد، لم تعد تعرف أين هي، ومن هذا الشخص الذي لا تعرف شيئًا عنه، وتحكي معه عن سرها الذي لم يعلمه أحد، ولكن هذا لم يعد مهمًّا.

بنبرة خافتة ردّد:

(في أي يوم نحن؟

نحن كل الأيام يا صديقتي

نحن كل الحياة يا حبيبتي

نعشق بعضنا ونعيش

نعيش ونعشق بعضنا).

رددت معه بذات النبرة الخفيضة الهامسة:

(ولا نعرف ما هي الحياة

ولا نعرف ما هو اليوم

ولا نعرف ما هو الحب)[1].

من الإذاعة الداخلية للفندق التي تبث موسيقا وأغاني جاء صوت مذيع: (إلى الذين يحبون الجاز إليكم هذه المقطوعة لتوني جارمان).

بوق يعزف نغمة بطيئة ساكنة، كرفرفة نورس فوق شاطئ منعزل عند المغيب.

قام إليها، قبلها، تبخر خجلها وحياؤها، وبادلته القبلات، ولم يزعجها أنه لم يطفئ الضوء بل ودّت لو يصبح أقوى ليطرد الظلال، ظلال عمرها.

67

اليقين الكاذب

استعدوا لما سوف أقصه عليكم الآن، لأنه أمر في غاية... في غاية ماذا.. الأهمية؟ ولكن لم يمثل هذا الأمر أية أهمية لأي شخص سواي. يجب عليّ أن أفيق من أوهامي، فأنا لست سوى رجل شديد الغباء. نعم، عليّ الاعتراف بذلك. فلنقل إذًا إن الأمر الذي سوف أقصه عليكم الآن هو دليل على أنني في غاية الغباء.

بعدها بيومين، يومين فقط حدث كل شيء، اقتحم البوليس السياسي مقرنا ومنازلنا، وقبضوا على عدد كبير منا، رمونا في زنزانات مظلمة باردة عفنة.

تفتح صباحًا ليلقي لنا السجان صحنًا فيه كسرة خبز جاف منقوع في ماء. لم يهمني أي شيء، لم يهمني القسوة التي أعامل بها، ولا المصير الذي ينتظرني، كل ما كان يؤلمني أن عظامي ترجف من شوقي إليها.

حتى في أحد الأيام فتحت الزنزانة، وقادني السجان ومعه رجل آخر إلى دور علوي، اعتقدت أنهم سيأخذونني إلى مكتب للتحقيق، ولكنهم وضعوني في حجرة فارغة من أي شيء بإنارة خافتة.

سمعت وقع خطوات قادمة، وقع خطوات أحفظها جيدًا، كانت هي لا يمكن أن أخطئ وقع خطواتها.

أدخلها رجل، وقبل أن يوصد الباب أخبرها أمامك عشر دقائق لا غير، نسيت وقتها كل شيء، نسيت أين أنا، وما الذي قادني لهذا المكان، وركضت إليها، فرجعت للوراء عدة خطوات، ومدت يدها كحاجز بيني وبينها.

- حبيبتي ما بك؟

ضحكت بسخرية، ضوء المصباح ينعكس على وجهها فبدت وكأنها أخرى، نظرة الانكسار تبددت، زالت، كان في عينيها نظرة أخرى، نظرة قاسية، متشفية:

- ليس أمامي الكثير من الوقت، هل تعلم أنه كان من المستحيل أن أقابلك؟! لولا أن الملك فاروق بنفسه تدخل في الأمر، ألم أخبرك بألّا تستخف بمجففة كؤوس الشمبانيا؟!

قالتها، وهي تحرك أصابعها بحركتها المعتادة.

- ولماذا هذا الاستقبال الفاتر؟ ألم تشتاقي إليّ؟

ضحكت بسخرية:

- أنت آخر شخص في هذا الكون يمكنني أن أشتاق إليه. كيف تصورت أنني يمكن أن أحبك، وكل هذا الغل والحقد والكراهية التي تملؤك تجاه وطني وشعبي؟! كيف يمكن أن أحبك، وأنت سبب أساسي في قتل زوجي، وقتل الآلاف من الأبرياء، وتهجير أصحاب الأرض من منازلهم؟!

كيف استطعت أن تصدق أن ما فعلته على مدار عمرك كله هو بطولة؟! أبدًا، لم يكن بطولة، كان خسة ونذالة. أنت وحش، ولست بشرًا.

جئتك اليوم لأخبرك شيئًا واحدًا، أن الذكاء الذي تعتقد أنك تتمتع به هو في الحقيقة منتهى الغباء، لقد أوقعت بك بسهولة فائقة، لم أحتج للكذب، أو تلفيق قصص وحكايات، كنت معك في منتهى الصدق، كنت معك على حقيقتي.

حبك لي كان بدافع شفقتك لما حدث لي بسببك، بسبب خستك وإجرامك، كنت عاهتك التي تحاول أن تخفيها بشعارات وأوهام كاذبة، ظللت ترددها على نفسك طوال عمرك لتؤمن بها.

حاولت أن تقنعني بعجزك عمّا لا تستطيع أنت أن تصدقه، حاولت أن تقنعني أن من تسبب في موت زوجي، هم الذين زجوا به في الحرب، لكني اليوم سوف أفاجئك، وأخبرك أنه هو الذي تطوع في الجيش، تطوع فداء لعروبته، تطوع أملًا في أن يقضي على هذا الكيان الدنيء، تطوع ليحرر الأرض ممن اغتصبوها، لينجد أهلها الأبرياء من مذابحكم.

كنت أستمع لها في ذهول، هل حقًّا مديحة هي التي تتحدث؟! هل التي تخطب أمامي الآن هي نفسها المرأة المترددة الخجولة؟!

بالرغم من كل شيء هناك شعور غامض مسني، شعور لا أستطيع تفسيره، ربما هو الفخر من أجلها، الزهو بها. أبدًا، لم أحقد عليها ولم أكرهها.

بعد أن انتهت من حديثها قمت بالتصفيق لها (برافو)، مؤكد أنها لم تفهم أنني لم أكن أسخر، وأنني كنت أقصد ذلك فعلًا، أقصد أن أحييها على فعلتها التي لم يفلح أحد أن يفعلها طوال هذه السنوات، فلم يعرف أحد سري.

بالرغم من أن الصهيونية كانت في البداية تُدار تحت سمع وبصر الجميع، إلا أني كنت دومًا حريصًا على إخفاء هويتي، إخفاء عملي ونشاطي، كان هناك دومًا شعور خفي بداخلي بأني أفعل شيئًا خطأ، شيئًا لا حق لي أن أفعله، شيئًا أخفيه تحت يقيني الكاذب بأن أرض فلسطين حقّ لنا.

وهي تمسك مقبض الباب بيدها تسمّرت لثوانٍ، ثم التفتت برأسها:

- دعني أخبرك أمرًا مبهجًا، بفضلك رقيت، ولن أدخل مجددًا من الباب المكتوب عليه عبارة (للخدم فقط).

68
الأعرج

استعادت في الأيام اللاحقة جزءًا من نشاطها وثقتها بنفسها التي كانت قد فقدتها، انكبت على العمل بروح مختلفة، فهذه الوثائق لم تكن مجرد أوراق كُتبت في زمن سابق، هي جزء من الزمن، بل هي الزمن نفسه، خطابات الغرام، الألم، الوجع، كانت لأناس عاشوا هنا يومًا، ولو بحثنا فسنجد أن غرامهم وأحزانهم وأوجاعهم باقية وممتدة إلى ما لا نهاية.

وهي في خضم اهتمامها بعملها وبيتها وابنتها نسيت أنه مضى ثلاثة أيام، ولم تتلقَّ منه أي اتصال ولم يكن ذلك من عاداته. اتصلت به، فوجدت هاتفه خارج نطاق التغطية، عاودت الاتصال مرات، وفي كل مرة كانت نفس الرسالة.

مرت على الفندق، وطلبت من موظفة الاستقبال أن تتصل لها بالغرفة.

- لكن هذه الغرفة خالية.

- هل تقصدين أن النزيل غادر؟

ابتسمت:

- مؤكد طالما الغرفة خالية، فالنزيل غادر. عن أي اسم تبحثين سيدتي؟

- شخص يدعى أديب.

تفحصت الموظفة جهاز الكومبيوتر أمامها، ثم أخبرتها:

لم يشغل هذه الغرفة شخص يدعى أديب، ولكن ما اسمك؟

- اسمي أنا.

- نعم.

- لكن لماذا؟!

- لأن نزيل الغرفة السابق ترك رسالة، وطلب إلينا تسلميها لسيدة في حال جاءت تسأل عنه.

- مانوليا

ابتسمت الموظفة، وهي تمد لها الرسالة.

- حسنًا، هذه الرسالة لك.

ذهبت إلى البهو وجلست على أقرب مقعد، وفتحت الرسالة بلهفة:

(كان عليّ أن أغادر في هذا التوقيت، لا أحب الوداع؛ لذلك لم أشأ أن أخبرك، احترسي لنفسك وكوني بخير. سنلتقي).

ضحكت بسخرية، سخرية مشوبة ببكاء. هكذا إذًا بكل ببساطة، احترسي لنفسك وكوني بخير! لم يترك وراءه أي شيء، لا عنوانًا، ولا رقم هاتف، ولا حتى اسمًا تعرفه! لم يترك وراءه سوى وعد بلقاء.. (سنلتقي) إنه وعد مبهم كمجهول.

توالت الأسئلة على رأسها، سؤالًا وراء الآخر، من هو هذا الشخص؟ ماذا كان يريد منها؟ لماذا أخفى هويته؟

لاحقًا، توصلت للإجابة عن الأسئلة التي حيرتها لعدة أيام، وأجهدتها ومنعتها من النوم.

في توقيت مبكر طرق بابها رجلٌ، عرفها بنفسه أنه ضابط في الأمن الوطني. سألته ماذا يريد؟ أخبرها أنها في المركز ستعرف كل شيء.

طلب منها أن تستقل سيارة دفع رباعي سوداء، ولكنها اعتذرت وطلبت منه السماح لها بالذهاب بسيارتها. طوال الطريق كانت أفكارها تذهب وتأتي بها، لماذا يستدعونها في الأمن الوطني، وهي البعيدة كل البعد عن السياسة ولم تشغل رأسها يومًا؟!

وهما في طريقهما إلى الداخل كان يسبقها بعدة خطوات، يسير بخطى ثابتة، واثبة، كان ينقصه قبعة ومعطف ليبدو كشارلوك هولمز أو أحد رجال مباحث الستينيات.

استقلا المصعد للدور الثامن، وفي نهاية الممر طرق باب غرفة، وتركها أمامها وذهب. كان مكتبًا أنيقًا بإضاءة شبه خافتة. صافحها رجل من خلف مكتبه وعرفها بنفسه، وطلب إليها الجلوس، سادت لحظات من الصمت.

لاحظ ارتباكها، فحاول أن يبدو ودودًا، سألها ماذا تشرب؟

- لا أريد أن أشرب شيئًا، أريد أن أعرف لماذا أنا هنا؟

أجابها بنبرة مطمئنة وهادئة:

- ستعرفين كل شيء سيدة مانوليا، وذلك سوف يستهلك الكثير من الوقت والكثير من الأحاديث، أعتقد أنك تحتاجين فنجانًا من القهوة لإنعاش الذاكرة، فسوف تحتاجين أن تغوصي في الماضي.

كانت ستخبره أنها ليست في حاجة لإنعاش الذاكرة، فمعاناتها أنها تتمتع بذاكرة فولاذية. ولكنها لم تقل شيئًا.

ضغط من جهاز التحكّم عن بعد على شاشة معلقة على الحائط:

- هل تعرفين هذا الشخص؟

كان يبدو مختلفًا في الصورة التي عرضتها الشاشة، صورة أمامية، ومن ثم صور لبروفايل وجهه.

- نعم، أديب.

- لا، هذا ليس أديب. هذا الشخص يدعى (ليفي يعقوب)، وهو يهودي من أصل إيراني، ولقبه (الأعرج).

رددت خلفه باستنكار، وكأنها تريد أن تخبره هل أنت متأكد من ذلك.

- يهودي!

استكمل الضابط، وكأن مفاجأتها لم تعنِ له شيئًا.

- يحمل جنسيات مختلفة، انضم للعمل مع جهاز المخابرات الإسرائيلية منذ عشر سنوات تقريبًا، وحقق معهم نجاحًا كبيرًا.

الجهاز يختاره تحديدًا في عمليات الشرق الأوسط، لإتقانه اللغة العربية، وخاصة عندما يكون الهدف من النساء لأنه يبدو وسيمًا جذابًا، معسول اللسان، بالإضافة لإعاقته التي لم تجعل السيدات ينفرن منه، بل على العكس كانت تثير تعاطفهنّ تجاهه أكثر.

كان يتحدث واضعًا فاصلًا بين العبارة والأخرى، ويتأملها ليختبر وقع كلامه عليها.

- والده كان من أثرياء يهود إيران، وتعرضت عائلته لعنف شديد إبان الثورة الإيرانية، اقتحم بعض الأفراد منزلهم، وتعرض لهذه الإصابة في ساقه على أثر طلق ناري عن طريق الخطأ. سجن والده وتم الاستيلاء على ممتلكاتهم، استطاع الفرار مع أمه وأخواته إلى تركيا، وعاشوا هناك فترة من الزمن ثم ذهبوا بعدها إلى فرنسا. انضم للعمل مع جهاز الموساد، وأصبح أكثر عناصره أهمية لما يتمتع به من ذكاء وعدوانية تجاه هدفه، وربما هو أحد أشكال الانتقام لما حدث له ولعائلته.

فجأة شعرت أن الأرض تدور بها، هل هذا الشخص الذي عرفته، وتقربت منه يدعى (ليفي)؟!

قامت، اقتربت من الشاشة، تأملته لتتأكد أن هذا الرجل هو نفسه الذي تعرفه.

- ولكن كيف؟ كيف نجح في خداعي؟! هل أنا ساذجة وغبية إلى هذا الحد؟!

- الأمر لا يتعلق بك أنت. هذا الرجل شديد الذكاء، ويملك من الحنكة والخبرة الكثير.

- ولكن لماذا؟ ما الذي يريده مني؟

- هذا هو مربط الفرس.

بصوت يملؤه القلق والخوف:

- أي فرس، وأي مربط؟! أنا لا أعرف عنه شيئًا.

- نحن نصدقك تمامًا.

كلمة (نحن) أثارتها، ضاعفت إحساسها بالقلق:

- نحن، من؟

- جهاز المخابرات المصرية الذي كان يضعك تحت مراقبة دقيقة طوال هذا الوقت.

- مراقبة!

- نعم، في البداية أريد أن أخبرك أن جميع من يعملون في ترجمة وثائق الجينزا نحتفظ بملفات خاصة لهم، وقمنا بالتحري عنهم قبل السماح لهم بالعمل في هذا المشروع الكبير والهام، ومن وقت لآخر تأتي الإدارة التي تتولى أمر هذا المشروع تقارير عن العاملين فيه.

في تقرير عنك ورد أنك تقومين بالتردد على أحد الفنادق الكبرى يومين في الأسبوع، ولأن معلومة أنك تعزفين في أحد الفنادق لم ترد في الملف الخاص بك، أردنا أن نعرف لماذا تترددين على هذا الفندق، وبالمصادفة رصدنا لقاءك بهذا الرجل الذي قدم إلى البلاد بهوية مزورة، وعندما بحثنا عنه وجدنا أنه أحد عناصر المنظمة المهمين.

كانت تنصت إليه، وهي في ذهول من أمرها. المفاجأة أخرستها، وألجمت لسانها.

- وقع الاختيار عليك بالذات؛ لأنك أكثر العاملين في هذا المشروع هدفًا سهلًا.

بلهجة حادة:

- عذرًا، ما الذي تعنيه بهدف سهل؟!

- لا تسيئي فهمي. هذه المنظمة لا تختار أهدافها اعتباطًا، هي تقوم بدراسة وافية عن الذين يتم اختيارهم، من خلالها تعرف نقاط ضعف وقوة الهدف، وبسبب الظروف السيئة التي كنت تمرين بها مؤخرًا، علموا أنك ستكونين هدفًا سهلًا بالنسبة إليهم.

هزت رأسها بأسى:

- عندما علمنا بأمر هذا الشخص قمنا بوضع أجهزة تنصّت لكما.

- لكما! هل تعني لي أيضًا؟!

- نعم، في المقام الأول لنطمئن على سلامتك، ومن ثم نحاول أن نعرف ما الذي يريده.

- ولكن لماذا لم تخبروني بالأمر، بدلًا من أن أتعرض للخطر مع عميل خطير مثله؟!

- أعتقد أن هذا سؤال جيد جدًّا.

قالها، وهو يرفع حاجبيه الكثيفين للأعلى في حركة أثارت عصبيتها أكثر:

- لو كنا أطلعناك على الأمر، فمؤكد كنت ستكتشفين سريعًا جدًّا. كما أخبرتك هو شديد الذكاء، ومع القلق والارتباك وحالتك النفسية غير المتوازنة بسبب ظروفك، كل شيء سيكشف بسهولة، ووقتها كنا فعلًا سنعرضك للخطر. فضلنا أن نراقبك عن بعد، هذا كان أفضل لك، وفي الوقت المناسب كنا سنخبرك بكل شيء.

بماذا عليها أن تجيبه؟! لا شيء، مؤكد لا شيء.

- هل عرفتم ما الذي كان يريده؟

- وثائق الجينزا شغلت تفكيرهم منذ العثور عليها؛ لما تحويه من معلومات مهمة وكنوز لا تُقدر بثمن، ففي المقام الأول هم يريدون معرفة المخطوطات أو المعلومات المهمة التي تم التوصل لها، وذلك بشكل عام، ولكن الذي كانوا يريدون معرفته إذا ما تم العثور على النسخة الأصلية من مخطوطة (دلالة الحائرين لموسى بن ميمون)، وعند التأكد من وجودها كانوا سيحاولون الحصول عليها، وخاصة هناك أقاويل بأن جميع النسخ التي يتم تداولها مشكوك في صحتها. حاول بعض

علماء اليهود تبديل أفكار جاءت في هذه المخطوطة، لصالحهم طبعًا، فموسى بن ميمون كان دائمًا حجر عثرة في أفكارهم الثابتة المتحجرة.

رشفت من فنجان قهوتها الذي برد حتمًا بعد كل ذلك الوقت.

- ولكن هذه الخدعة البارعة التي حاولت أن تقنعيه بها من أين جاءتك؟

- عفوًا، لا أفهم عن أية خدعة تتحدث؟!

- خدعة لقائك ابن ميمون، والتسجيلات التالفة على هاتفك، والوثيقة التي فقدتها.

- ولماذا تعتقد أنه خدعة؟!

- سيدة مانوليا، أنت هنا في جهاز الأمن الوطني، حقيقي ليس هناك أية تهمة موجهة لك، ولكنك هنا لتدلي بأقوالك، فأرجو منك أن تأخذي كلامي بمنتهى الجدية.

- أنا حقًّا آخذ كلامك بمنتهى الجدية.

- إذًا أخبريني لماذا اختلقتِ هذه الأمور؟

- لم أختلق شيئًا.

- اسمحي لي أن أخبرك: بهذه الأجوبة المراوغة أنت تضلِّلين العدالة.

قالتها بحدة كأنها تنفي عن نفسها إثمًا ما:

- أنا لا أضلِّل العدالة.

- إذًا عليّ أن أخبرك أن كل خطوة كنت تقومين بها مسجلة عندنا.

قام بتشغيل الشاشة، فظهرت صورتها وهي تدخل إلى المعبد، وتهبط السرداب، تفتح ضوء كشاف هاتفها، ثم تدور بنظرها في أنحاء المكان، تقترب من البئر تمعن النظر داخلها، ثم تعود أدراجها مرة أخرى.

- هذه زيارتك إلى المعبد، لم تأخذ من الوقت سوى خمس عشرة دقيقة. إذًا عندما أسألك لماذا لفقت هذه الخدعة، عليك أن تجيبي دون مراوغة.

كانت تشعر أنها ريشة في مهب ريح إلّا أنها حاولت أن تظهر متماسكة:

- كنت أريد أن أفتعل حدثًا غير عادي، منذ وفاة زوجي وأنا أعيش في حزن عميق، وأصبحت الحياة مملة، فأردت أن أحظى بشيء من الإثارة، فتصنّعت الأمر.

قام بالتصفيق لها، وهو يهز رأسه:

- برافو، أجدت الدور فعلًا لدرجة أنك جعلت واحدًا من أخطر وأهم عملاء الموساد يصدقك، والغريب في الأمر أنه لم يخبر رؤساءه بهذا الأمر الفائق الأهمية.

- وفي اعتقادك لماذا لم يخبرهم؟

- في الواقع من الصعب التكهن بهذا، ولكن من منظوري الشخصي ربما قد انجذب إليك، ولم يرد أن يسبب لك مشاكل، خاصة أن أمرًا كهذا كان من المؤكد سيشغل تفكيرهم واهتمامهم بالرغم من استحالته، لكن هذه الخوارق تجذبهم جدًّا، وبإمكانهم تصديقها وخاصة أن ابن ميمون له الكثير من الكرامات التي اعتقد فيها اليهود لوقت طويل.

أمّا عن استدعائه واحدًا من أشهر وأمهر خبراء الإلكترونيات في العالم، وكلفه ذلك الآلاف من الدولارات، فأعتقد أنه كان يحاول مساعدتك لأمر متعلق به وحده.

- ولكنه أخبرني أن هذه خدمة مجانية سيقدمها له صديقه.

- لا، لم تكن مجانية، دفع مقابلها الكثير، وكما أخبرتك لأمر متعلق به وحده.

أخذت تفكر بماذا يعنيه بأمر متعلق به وحده، ولكن لماذا في إمكان أحد أن يدفع الكثير من الأموال لقاء تقديم خدمة لشخص ما؟! خرجت من أفكارها على صوت الضابط الذي أضاف قائلًا:

- وهذا الخبير عندما لم يجد شيئًا في التسجيلات، وعلم أنه محض خيال، قام بإيهامكما أن هناك صوتًا قادمًا من عالم آخر.

- ولماذا يريد إيهامنا؟ ما أهمية ذلك؟

- حتى لا يطالبه برد الأموال.

ارتبكت، وشعور باليأس مجددًا سيطر عليها، هل حقًّا ما يقوله؟ هل ادّعى الخبير ذلك حتى لا يطالبه برد الأموال؟

في كل ما قصه عليها لم يربكها ولم يحزنها سوى ما سمعته منه الآن. وكأن هذا الرجل الذي خدعها كل ذلك الوقت وجعلها تثق به، تثق به إلى حد أنها تركت الجميع، ولجأت إليه وحده وكأنه منقذها. كل ذلك لم يعنِها، كانت حقيقة لقائها بابن ميمون تهمها أكثر من أي شيء آخر، وأكثر من أية حقيقة أخرى.

فتحت حقيبتها، ومدت له الرسالة التي تركها لها:

- لا داعي لذلك، نعرف ما الذي كتبه فيها.

بصوت متردد

- وهل تعلم لماذا سافر فجأة؟

- في الحقيقة لا نعلم. جمع حقيبته، وذهب إلى المطار دون سابق ترتيب، قطع تذكرة إلى فرنسا، أمضى هناك يومًا، ثم سافر إلى برشلونة، ولكن من المؤكد أنه شك في مراقبتنا له.

تمتمت:

وربما لم يستطع أن يواصل خداعي أكثر من ذلك.

- هل قلت شيئًا؟

هزت رأسها بالنفي:

- هل هناك شيء آخر لم تطلعيني عليه؟!

- أعتقد أني أخبرتك بكل الأمور.

- وما المطلوب مني الآن؟

- لا شيء، ولكن لو حاول أن يتصل بك، فعليك أن تبلغينا على الفور.

- أعتقد أنه لا داعي لإخباركم، فأنتم تعلمون كل شيء.

كان في نبرة صوتها وملامحها ما يعبر عن الضيق بسبب ذلك.

- عزيزتي، تأكّدي أننا وضعناك تحت المراقبة، لأن الأمور حتّمت علينا فعل ذلك.

- والآن هل يمكنني أن أذهب؟

- بكل تأكيد، وكما أخبرتك لو حاول الاتصال بك مرة أخرى، فعليك إخبارنا.

صافحها وقام بتوصيلها إلى الباب. جلست خلف المقود دون أن تشغّل السيارة، كانت قصتها معه تدور كشريط سينمائي، يقطعه ما أخبرها به الضابط كفاصل إعلاني، ومن ثم يعود الشريط يدور مرة أخرى..

خبطت يدها بقوة على المقود، وهي تصيح (كيف - كيف - كيف) كيف كانت مغفلة لمثل هذا الحد؟! كيف بإمكان أحد أن يكون بارعًا في التمثيل بمثل هذا الشكل؟! هاتف يحاول أن يهدئ من روعها (ربما كانت مشاعره صادقة، ألست أنت من كنت تعتقدين أنك تستطيعين كشف الكذب بسهولة وخاصة فيما يتعلق بالمشاعر؟!)، ولكن لتنتظر أي مشاعر تلك؟! ولماذا في اعتقادها أنه كان يحمل لها أي مشاعر، وهو لم يصرح بشيء..، لم يخبرها أنه واقع في غرامها أو متيم بها؟! ولكن هل كان عليه أن يخبرها؟! كان تكفي لمسة يده ونظرة عينيه. هزت رأسها بقوة (كفى سذاجة، وأفيقي)، أية نظرة عين وأية لمسة يد! وهو العميل الأكثر ذكاء وخبرة كما أخبرها المحقق، فهل تراه كان سيخفق في أن يتقن دوره بنجاح؟!

يشرد بها عقلها مرة أخرى (ولكن ماذا عن الخبير الذي استدعاه خصيصًا، ودفع له من أمواله الخاصة لكي ينقذها من وساوسها وهلاوسها التي كانت ستذهب بها للجنون؟!) يد قوية تلكزها لتفيق من أوهامها. هذا جزء من عمله أيتها البلهاء، كان يريد أن يتأكد من حقيقة التسجيلات قبل

إخبار رؤسائه بها، أو ربما كان هناك شيء، شيء أهم من ذلك في عقل هذا الجاسوس المحترف، شيء أكثر أهمية بكثير من أنه طلب الخبير لمساعدتك، فلتفيقي من أوهامك أيتها الغبية.

الآن فقط فهمت من أي شيء كانت تحذرها العرافة الغجرية (احذري منهم)، ولكن كيف استطاعت أن تقرأ طالعها وتكشف مستقبلها، وهي تفصلها عنها قرون.

استرجعت لحظة دخولها إلى المبنى كما رصدتها الكاميرا، في ذلك اليوم لم يحدث شيء، دخلت كما خرجت، لم تنشق الأرض عن ابن ميمون ويخرج لها من باطنها، لم يأخذهما حديث طويل، لم يذهبا معًا لمشاهدة احتفال.

ظهر في التسجيل مدة بقائها بالداخل التي استغرقت خمس عشرة دقيقة ليس أكثر، ربما تكون قد انفلتت من الحياة، وتوارت بفجوة داخل الزمن، أو ربما انزلقت في الثقب الأسود، هل بإمكان أية كاميرا وقتها أن تسجل ذلك؟! لن تشغل رأسها بالتفكير، هي على يقين أنها قابلت الرجل وتحدثت معه، وهذا يكفي.

69

الإعدام شنقًا

هل يمكن أن أعجب بها لأنها أوقعتني في فخها، ونجحت في ما فشل فيه العديد من الناس؟!
لا أستطيع أن أصف لكم شعوري بعد ذهابها، كان شعوري غريبًا، مزيجًا من الخذلان والخزي. لم يفلح أحد في أن أمنحه ثقتي الكاملة، حتى أهلي أنفسهم، كنت أعيش معهم في المنزل نفسه ولم يعرفوا شيئا. كنت دائمًا غامضًا كشبح لا يمكن الإمساك به. لن ألومها على فعلتها، ولم ألم نفسي أيضًا، هي أدّت دورها بمهارة فائقة، لأنها كانت صادقة إلى أبعد حدود الصدق، فصدقتها. وحده الحب هزمني، وقادني إلى حبل المشنقة.

لا.. لا تفزعوا، أكاد أسمع فزعاتكم رعبًا، الأمر ليس بمثل هذا السوء بالنسبة إليّ، لطالما آمنت أن الموت مهما اختلف في طرقه فهو واحد، لا فرق بين أن أموت غرقًا أو في حادث سيارة أو لاعتلالي بمرض لا شفاء منه، أو أموت مشنوقًا.

صدر الحكم من محكمة القاهرة، نادى القاضي اسمي ضمن قائمة من الأسماء، ثم أعلن الحكم علينا بالإعدام شنقًا لممارستنا الجاسوسية والتخابر لدى مؤسسات أجنبية.

أمر يدعو للسخرية، كنت ساعدًا أساسيًّا في تكوين الكيان الصهيوني الذي قتل، وطرد، وسرق، ونهب، وفي النهاية يحكم عليّ بالإعدام من أجل تخابري لصالح مؤسسات أجنبية! لا أذكر حتى أني خلال عملي بالتخابر شاركت في مهمة كان لها نتائج مدمرة، الأمر لم يعُد جمع معلومات، كنت أتمنى أن أشنق لسبب أكثر وأشد إجرامًا.

تتساءلون كيف يكتب لنا الآن؟ ومع من سيترك هذه الأوراق؟ وكيف استمر في كتابتها داخل زنزانة منفردة، قذرة، مظلمة؟ والأهم من ذلك كيف سمحوا له بذلك؟!

حسنًا.. لِمَ العجلة؟! سأخبركم بكل شيء، باقٍ من الزمن ثلاثون دقيقة، بعدها سيأتي الجلاد ليضع حدًّا لحياتي، لا أعرف ما الذي يحدث تحديدًا؟ ولكن حسب علمي سيغطون رأسي بكيس أسود، وسيلف حبل قوي ومتين حول عنقي.

زارني رجل دين يهودي منذ قليل، جلبته لي هيئة تنفيذ الحكم، ليعظني قبل الموت، ولكن ما قيمة الموعظة قبل الموت؟! يا لهم من سذج!

طلب إليّ أن أردد أجزاء معينة من سفر إشعياء الآية 3-4 (أحيط بك كالدائرة، وأضايق عليك كحصن وأقيم عليك متارس. فتتضعين وتتكلمين من الأرض، وينخفض قولك من التراب، ويكون صوتك كخيال من الأرض) لا أعرف لماذا اختار هذا الحبر هذه الآيات تحديدًا لأرددها؟ ربما وجد أنها الأنسب لشخص في طريقه للإعدام شنقًا، وتتماشى كلماتها (دائرة وضيق ومتارس) مع الحدث.

على أي حال، أرتدي الآن بذلة الإعدام الحمراء، أجلس في غرفة في انتظار الموت، أمّا عن هذه الأوراق والمذكرات التي تتساءلون عنها ويهمكم أمرها، فدعوني أخبركم أنه منذ البداية لم يكن هناك أوراق، منذ البداية لم يكن هناك قلم. نعم، هذه هي الحقيقة، كل شيء كان مسجلًا ومدونًا بدقة متناهية هنا في رأسي.

كانت هذه المذكرات في عقلي دائما، والكلمات محفوظة وباقية هناك في دفتر كبير موضوع على رف داخل دهاليز الذاكرة. ما الداعي إذًا للكتابة طالما أنّ كل شيء محفوظ هنا؟!

نعم.. نعم، أسمع صياحكم، والكلمات البذيئة التي ترمونني بها كالغبي والأبله والحقير و.. و..

صدقوني أنا لم أخدعكم، من الذي سيهمه قراءة هذه المذكرات في حال دونتها على ورق؟! وبأي شيء كانت ستفيد؟! أنا نفسي لا أرى أن فيها شيئًا هامًّا، مجرد تاريخ عاشه شخص، تاريخ سقط سهوا من الزمن.

الزمن الذي نعتقد أنه يلف ويدور دون توقف، وأننا ثابتون، والحقيقة أننا نحن الذين نتحرك، نحن الذين نذهب ونجيء، نلف وندور، والزمن هو الثابت الذي لا يتحرك.

حسنًا، يمكنني أن أودعكم الآن، حانت اللحظة، أمامي ثلاثة من الجلادين، إنهم يقتربون مني، يقتربون جدًّا، ها هم يعدون جسدي للرحيل، كما نعد الشاة للذبح.

إلى اللقاء يا رفاق، لم تسنح لنا فرصة اللقاء هنا في هذا العالم، ولكن ربما نلتقي مرة أخرى في عوالم أخرى، فكما أخبرتكم نحن الذين نتحرك في عوالم لانهائية.

70
المخطوطة الأصلية

كان الرئيس يضع على وجهه ابتسامة على غير العادة في اجتماع ذلك اليوم.

- سوف أخبركم اليوم بشيء مذهل وهائل. طبعًا، مؤكد أننا عثرنا على الكثير من الوثائق ذات فائدة كبيرة، توصلنا من خلالها لمعرفة الكثير عن الحياة الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية لليهود، وجمعنا من خلال هذه الوثائق أدلة ومعلومات عن تكوين الكيان الصهيوني، والخطوات التي نفذوها في تكوين وطن لهم، واتضح أن هذه الفكرة مسيطرة على عقولهم منذ زمن طويل.

ولكن الأهم من كل هذا، والذي يُعتبر شيئًا مذهلًا في حدّ ذاته، أنه تم العثور على مخطوطة دلالة الحائرين، المخطوطة الأصلية التي كتبها موسى بن ميمون، وأجرينا عليها فحوصات، وقارناها بخط ابن ميمون من خلال وثائق أخرى كُتبت بخط يده، وتأكدنا أنها له.

وجدها الباحث ملفوفة في جراب من الخيش، في البداية لم يهتم، اعتقد أنها مجموعة وثائق جمعها شخص على مر سنوات طويلة، وفكر أن يتخلص منها في الجينزا، فلفها في كيس من الخيش مدكك بشريط، لكن لفت نظر الباحث كيف ألقي بهذا الكيس من هذه الفتحة الضيقة المسموح لليهود أن يلقوا منها الأوراق؟! الأمر كان غريبًا، لأن سمك وحجم المخطوطة كبير جدًّا، لا تسمح فتحة صغيرة بتمريرها.

وعندما فتح الكيس ليتحرى الأمر، وقتها علم أنه عثر على اكتشاف مذهل، لقد وجد بين يديه مخطوطة دلالة الحائرين، الكتاب الذي يعد أهم وأشهر عمل تناول اليهودية بمجملها، والذي ترجم لجميع لغات العالم.

لا نحتاج لكثير من التفسير كيف ولماذا وجد الكتاب هنا؟ من الواضح جدًّا أنه دفن في المقبرة رأسًا، وليس من النافذة الضيقة للجينزا المؤقتة، وذلك حتى لا يتم العثور عليه، ويختفي إلى الأبد، ومؤكد من فعل هذه الفعلة واحد من كبار رجال الدين اليهودي، لأنهم وحدهم المسموح لهم بفتح المقابر لدفن الوثائق في الجينزا الدائمة.

أمّا (لماذا؟) فقد أجاب عنها إبراهيم بن موسى عندما اتهم الحريزي بأنه أفسد ترجمة دلالة الحائرين بإضافة وحذف الكثير من الأشياء التي لم ترد في المخطوطة الأصلية. وقتها دافع الحريزي عن نفسه أنه قام بنسخ وترجمة العمل من نسخة أخرى، تُرجمت بواسطة رجال الدين اليهودي بإسبانيا. وبناء على ذلك كان يجب إخفاء المخطوطة الأصلية حتى لا يعثر عليها أحد أبدًا، وتختفي حقيقة ما دونه موسى بن ميمون للأبد، وطبعًا منذ قرون طويلة مضت، لم يكن أحد يعلم بما سوف يحل باليهود، وبأنهم سوف يتركون مصر، وتصبح هذه الوثائق في متناول أيدينا.

شردت بخيالها، لم تعد تسمع ما يقوله الرئيس، تذكرت اليوم الذي أخذ يلاحقها فيه بالأسئلة عن هذه المخطوطة إلى حدّ شعرت بأنه يقوم باستجوابها. ابتسمت بسخرية (كم أنا حمقاء!)، ومؤكد لو لم يذهب كنت سأهرع لأخبره بسذاجة (تخيل لقد عثرنا على المخطوطة الأصلية)، وكان سيرتب خطة لسرقتها، ومؤكد سأكون طرفًا هامًّا في تلك السرقة. كنت سأعرض حياتي ومستقبل ابنتي للخطر بسبب سذاجتي وركضي وراء رجل لا أعرف عنه شيئًا، ولم أحاول حتى التحري عن المعلومات التي زودني بها عن نفسه.

أفاقت من أفكارها على حديث الرئيس:

- أخفينا هذا الخبر طوال ذلك الوقت لحين التأكد من أنها المخطوطة الأصلية هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان يجب أن يخضع هذا الأمر للسرية التامة؛ لذلك قررنا إعلانه لكم في آخر اجتماع لنا، ونحن نحتفل بانتهاء المشروع بنجاح، وليكون الاحتفال ليس واحدًا ولكن احتفالين.

وغدًا سنعلن هذا الخبر للعالم، رتبنا لقاء صحفيًّا، دعونا له جميع وكالات الأنباء العالمية لنبث الخبر للعالم كله في ذات الوقت. هذا أمر لا يمكن أن نستهين به، (دلالة الحائرين) هو الكتاب الذي صنع ضجة على مر قرون طويلة، هو اليوم بين أيدينا في نسخته الأصلية، ومؤكد سوف نقارن ما كتب فيها بالنسخ المتداولة لنكشف كذب وخداع الذين حاولوا إخفاء حقيقة ما كتبه موسى

بن ميمون بالحذف تارة، والتلفيق والإضافة تارةً أخرى؛ وذلك كله ليتوافق مع أفكارهم التي كان موسى يتبرأ منها ولطالما اعترض عليها.

قاطعت الرئيس أثناء حديثه دون إذن، وحدثته دون النظر إليه وكأنها تتحدث مع نفسها لا أكثر:

- ولكنهم سيحاولون سرقته بالتأكيد.

- أعتقد أن الباحثة أثارت نقطة هامة. بالتأكيد سيحاولون أن يفعلوا ذلك، ولكن هذه المخطوطة محفوظة في خزانة خاصة مشفرة، كما أننا وضعنا كل احتياطات الحماية والأمان أثناء عرضه غدًا أمام الرأي العام، سيتم وضعه في واجهة زجاجية ضد الكسر، ومزودة بأجهزة استشعار عن بعد، حتى في حال تعرضت الوثيقة لأية محاولة للسطو عليها يتعرض السارق لصاعق كهربائي قوي.

قام الجميع بالتصفيق تحية للرئيس، تحية لأنفسهم، لتعبهم وجهدهم على مدى شهور طويلة، تحية لهذا الاكتشاف المذهل، تحية للعثور على المخطوطة الأصلية من كتاب دلالة الحائرين.

قاموا، صافحوا بعضهم، هنؤوا بعضهم بالابتسامات، بالضحكات، وبالدموع التي كانت تذرف من عينيها.

ابدا، لم يكن عليهم لكي يترجموا هذه الأوراق أن يتقنوا العبرية فقط! كان هناك لغة اخرى أهم منها بكثير يجب فهمها، لغة الخط، لغة الغبار، لغة الزمن.

71

الرباعية الأخيرة لبيتهوفن

في المساء كانت تجلس في ركن من بهو الفندق تعزف الرباعية الأخيرة لبيتهوفن (أوباس 131)، هذه المقطوعة التي أحبتها لغرابتها، ففي الوقت الذي كان فيه المعيار الطبيعي 4 حركات احتوت هي على 7 حركات، 7 حركات متواصلة، متعاقبة، دون استراحة، دون التقاط أنفاس، دون دوزنة.

الحركة الأولى والثانية، بطيئة وهادئة، تعزف وتفكر:

كيف استطاع خداعها؟! حقيقي كان مظهره يعكس الهدوء والتفكير، ولكن في الأماكن العامة كان يبدو مرتبكًا، كان دائمًا يبدو منعزلًا مع نفسه، وكأنه لا يملك قواسم مشتركة مع أحد.

لكنه كان يحاول أن يحافظ على هدوئه ليظهر بمظهر لائق، كمن يعتقد أنه سينفضح أمره، وسيلحق به سوء إذا بدا على وجهه أي ارتباك؛ لذلك كان دائمًا يتجنب أي انفعال أو حركة مفاجئة، كان يتصرف كروبوت وليس كبشر.

الحركة الثالثة والرابعة، وتيرة أعلى من السابق:

ما الذي جذبها إليه؟ أسلوبه، شخصيته.. وسامته.. أناقته.. أسلوبه اللامبالي، تلك النظرة الفارغة في عينيه تجاه العالم وكأن العالم كله لا يعني له شيئًا، أم في اهتمامه المفرط بها؟! هي الغبية التي اعتقدت أن هذا الاهتمام نتيجة لإعجابه.

تعزف دون توقف كما أراد بيتهوفن، وذلك تعبير أن فوضى العالم الخارجي كما الفوضى التي يصنعها العزف على آلة موسيقية لوقت طويل دون دوزنة.

الحركة الخامسة والسادسة، صراخ، تشنج، نشيج:

تذكرت آخر لقاء لهما تحت ضوء المصباح الخافت، وهي تتبادل القبلات مع غريب، يختفي خلف هوية أخرى. كيف لم تكتشف أمره؟! كيف لم تكتشف أن حرصه ونظامه الشديدين كان وراءهما شيءٌ؟! لم يترك شيئًا مبعثرًا لا على الطاولة أو الأريكة أو الموكيت، لا قطعة ثياب، لا عقبًا واحدًا من أعقاب السجائر. لا شيء، ليس هناك أي أثر يدل على وجوده في المكان.

تعزف دون توقف كما أراد بيتهوفن. بيتهوفن كان أصم ووحيدًا يشعر باقتراب النهاية، لم يكن يملك وقتًا للتوقف. كان يجب أن يعزف، يجب أن يعزف احتفاء باقتراب النهاية، احتفاء بالألم، احتفاء بالوحدة، احتفاء براحة أبدية.

وصف الشاعر الإنجليزي (إليوت) هذه الرباعية بأن الأزمنة تتداخل معها في وقت واحد، ماضيًا، حاضرًا، ومستقبلًا. ألذلك كانت تعزف وتدور ذكرياته معها أمام عينيها كما لو أنها تحدث الآن؟! كان بإمكانها أن تسمع نبرة صوته، تلمح طيفه، تشم عطره.

الحركة السابعة؛ الأصعب والأغرب:

تصفع المفاتيح بحدة، تصفع نفسها، تصفع عقلها، لتدقق في كل ما أخبرها به. تدور كل تلك التفاصيل المؤلمة، ما بين أول لقاء عندما اقتحم عزلتها، عزلة حياتها وملأها بالصخب والحياة، ثم تركها وحيدة مع رسالة لم يذكر فيها شيئًا سوى وعد مبهم بلقاء. وفي النهاية تعلم حقيقته.

قبل القفلة بقليل تصبح الألحان هادئة، كضوء شمعة يذوي، شيئًا.. فشيئًا. تحدث نفسها بأنه لم يعد ضروريًّا أن تلومه، لقد ذهب وانقضى زمنه، ولو كذب عليها ففي النهاية أكاذيبه هي جزء منه.

ثم كانت القفلة.

صفّقت لنفسها تحية لها، فقد عزفت المقطوعة كما أراد بيتهوفن تمامًا. عزفتها دون توقف، عزفتها بقوة..، بقسوة.

كانت الألحان مطفئة لغضبها، كانت تنتقم لنفسها فيها ومنها.

في طريق عودتها كان الهواء البارد يبعثر أوراق الشجر الميتة في الممرات بحفيف يتعالى ضجيجه، فتشعر بالبرد.

تمت

إسطنبول 21/8/2020

Notes

[1←]

من قصيدة (أغنية) للشاعر الفرنسي جاك بريفير.